الفصل الرابع

الكنيسة والنظام الديني

أديان الخلاص

نظام الكنيسة في عصورها الآلي

تزعم كنيسة روما

جريجوري الأول

الرهبانية والديرية

القديس بندكت

الأديرة الكلونية وأديرة أخرى

النظام البندكتي

الهيئات الدينية

١ ـ الفرسان الاستبارية

٢ ـ الفرسان الداوية

٣ ـ جماعة الفرنشسكان

٤ ـ جماعة الدومنيكان

حضارة أوروبا في العصور الوسطى

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

اهداء

إلى رُوحي

الأستاذ الدكتور عبد الحميد حمدي محمود
والأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق
وإلى كل من قدم علماً أو عملاً
لخدمة الإنسانية

أهدي هذا الكتاب

محمود سعيد عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لكل مجتمع من المجتمعات حضارته التي تختلف كلياً أو جزئياً عن حضارة المجتمع الآخر. والمعروف أن مجتمعات العصور الوسطى هي المجتمع البيزنطي، ومجتمع أوروبا العصور الوسطى، والمجتمع الفارسي الذي لم يدم طويلاً في العصور الوسطى، والمجتمع الإسلامي. ومما لاشك فيه كل هذه المجتمعات أثرت وتأثرت ببعضها، ولكن في النهاية أصبح لكل مجتمع منها خصائصه التي تميزه عن المجتمع الآخر.

وحضارات المجتمعات لا تنبت من فراغ، فهي أولاً تعتمد على حضارة المجتمع السابق في المكان نفسه، بمعنى أن مجتمع أوروبا العصور الوسطى قد تأثر بحضارة اليونان والرومان، كما أن حضارة المجتمع تأتي من خلال معتقداته الدينية، والبيئة التي يعيش فيها، بالإضافة إلى المؤثرات الخارجية السابقة لعصره أو المعاصرة له.

ونحن إذ نقول مجتمع العصور الوسطى، فهو المجتمع الذي تحول من النظام الروماني إلى المجتمع الأوروبي بعد ما طرأ عليه تحويلات كثيرة بسبب تحوله من عبادة الوثنية إلى الديانة المسيحية، وبسبب الغارات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا، أو بسبب النظام الإقطاعي الذي ساده، وأخيراً بسبب الحروب الصليبية التي كانت ظاهرة كبيرة في العصور الوسطى كان لها أثرها الكبير في ذلك العصر.

ولقد اختلف الناس في مفهوم الحضارة، وهذه النقطة في غاية الأهمية

لأنها تحدد الموضوعات التي تدرسها تحت هذا المفهوم، فالبعض قال إن الحضارة هي Civilization، وتعني الحضارة، المدنية أو التمدن، التحضر، أو رفعه في الذرق أو التفكير، والبعض قال أنها Culture وهي تعني الحضارة أو الثقافة. ومن هنا جاء الاختلاف في مفهوم الحضارة عند الكتاب والمؤرخين، ويخال لي أن الاختلاف يرجع إلى بعض الكتاب الذين لا تراث لهم. لذلك كان مفهوم الحضارة عندهم هو سلوك الأفراد في المرحلة الحالية. بمعنى أنك إذا دخلت مدينة ووجدتها نظيفة ومرتبة ومنظمة كان لهؤلاء حضارة، أما إذا دخلت مدينة وكانت غير ذلك فلا حضارة عند هؤلاء القوم.

والحقيقة إن الأمر يختلف تماماً فالحضارة عندي هي كافة الإنتاج البشري في المجتمع بما فيها نظام الحكم والأحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والقانونية والمعمارية وغير ذلك من الجوانب العملية أو الفكرية. ولكل دولة أو مجتمع مراحل تكوينه حضارية تميزه. فالعرب كانت لهم حضارتهم قبل الإسلام،. ثم كانت لهم حضارتهم في عصر الخلفاء والدولة الأموية والعباسية وكافة مراحل الحكم الإسلامي حتى إلى ما نسبه حالياً بالعصور الحديثة. ومن كل هذا التراث تتكون حضارة الدولة.

ويجب ألا نفهم أن العصور الوسطى هى فترة مظلمة محصورة بين القرن الرابع الميلادي والقرن الخامس عشر الميلادي، فقد نقرأ في نصوص العصور الوسطى أن اتباع بطرس أبيلار Pierre Abelard (١٠٧٩ - ١١٤٤ م)، وهو الأهوتي والفيلسوف الفرنسي الذي اتهم بالهرطقة،. كانوا يعتبرون محدثين Moderni، كما أن أسقف مدينة إكستر Exeter قد وصف في عام ١٢٨٧ م الزمن الذي يعيش فيه بأنه العصر الحديث.

ويلاحظ أيضاً أن الحد الفاصل بين العصور الوسطى التي نعرفها نحن الآن وبين العصور الحديثة والمعاصرة التي نعيشها الآن، هذا الحد الفاصل يتقدم على الدوام، وأن العصر الحديث أي عصر الفحم والثورة الصناعة نجد أنه أصبح من العصور الوسطى بعد التقدم الذي يشهده العالم الآن.

وعلى أية حال فقد جمع تراث العصور الوسطى بين الخير والشر، وإذا كان الخير يبقى والشر مآله إلى زوال، فإن بعض شرور العصور الوسطى لا زالت باقية حتى الآن، ومنها اضطراب الأمن في بعض نواحي العالم، والخوف الذي يزيد القسوة، والفقر الذي يولد الجهل، والقذارة التي تأتي بالأمراض، والجهل الذي يؤدي إلى السذاجة وسرعة تصديق الخرافات والشعوذة وإن جانباً كبيراً من هذا لا زال في بعض المجتمعات حتى يومنا هذا.

ومما هو باق حتى الآن التعصب. ذلك التعصب الذي أدى إلى محاكم التفتيش في أوروبا وربما إلى ديوان الزندقة في البلاد الإسلامية إبان الدولة العباسية. ومحاكم التفتيش هذه هي التي انتهزت الفرصة لكي تعتقل، وتقتل، وتدمر، وفي العصر الحديث والمعاصر كثيراً ما نسمع عن مثل هذه الأعمال تحت مسميات حديثة تعلنها الدول.

وكانت الديانة المسيحية أهم ما ورثته أوروبا العصور الوسطى ولذلك عرف هذا العصر باسم عصر الإيمان The Age of Faith، وفي هذا العصر كانت المسيحية التي انقسمت إلى كاثوليكية في غرب أوروبا وأرثوذكسية في شرق أوروبا؛ والديانة الإسلامية التي سادت المنطقة من الخليج إلى المحيط، واليهودية التي توزعت في مناطق الإثنين.

ولقد اهتمت الكنيسة في العصور الوسطى بميادين التعليم، والصدقات وبث الأخلاق الفاضلة من نفوس برابرة العصور الوسطى، ولقد خلف هذا كله في العصور الحديثة في أوروبا تراثاً كبيراً من النظم الإجتماعية، ولقد كانت البابوية تعمل بكل جهدها إلى قيام دولة أوروبا الموحدة، ولكن هذه الفكرة قضى عليها الصراع بين البابوية والإمبراطورية. ورغم ذلك فقد ظهر بعض المفكرين الذين نادوا بضرورة قيام إمبراطورية واحدة تحكم أوروبا، وبعدما قضي على ذلك الحلم بدأت أوروبا العصور الوسطى تتشكل في دول مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهي التي نراها اليوم مع تغيير في الحدود، وبدأ مبدأ القومية يعلوا على مبدأ أوروبا الموحدة.

ولقد ابتدع إنسان العصور الوسطى أنظمة كثيرة من القانون المدني والكنسي، كما أقام دساتير حرية وتجارية وعهوداً لحرية المدن، ونظام المحلفين وإن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وإن ما يخص الناس جميعاً يجب أن يناقش فيه الناس جميعاً. وفي العصور الوسطى أيضاً هب نبلاء إنجلترا ضد الملك ليضعوا العهد الأعظم، كما أعدت المحاكم والمجالس القضائية للدولة والكنيسة كذلك بعض أساليب الحكم، ونظم الإدارة التي لا يزال بعضها حتى يومنا هذا. وظهرت المجالس النيابة والبرلمانات. والواقع أن كل ذلك لم يأت طواعيه بين الحاكم والمحكوم بل جاء بعد صراع طويل سقط خلاله الكثير من الضحايا.

ومن أعظم تراث العصور الوسطى النظام الاقتصادي، لقد استغل أهل هذه العصور البراري والغابات والأحراش والمستنقعات والبحار، فجففوا وسمدوا وزرعوا وأنتجوا وأخضعوا التربة الأوروبية لإرادة البشر. كما قضت نظم العصور الوسطى في نهايتها على نظام الرقيق في معظم أوروبا الغربية، وكادت تقضي على نظام رقيق الأرض أي الإقنان.

كما نظمت أوروبا الوسطى العمال في نقابات حرفية تعتبر مثالاً يسعى رجال الأعمال اليوم إلى اتباعه، ولقد ظل الحرفيون من الخياطين وصناع الجلود وصناع الأثاث وغيرهم إلى يومنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية في حوانيت خاصة بهم كما كانت في العصور الوسطى.

كما أن الموالد والمناسبات الكبرى مثل الأعياد التي كانت تقام في المدن ويجتمع فيها الناس لبيع السلع، لا زالت باقية حتى يومنا هذا. وإن ما يبذل الآن من قبل الدول لمنع الاحتكار وتحديد أثمان السلع وأجور العمال وضبط الموازين والمكاييل لهو من تراث العصور الوسطى. كما أن المنظمات الدينية مثل جماعة الفرنشسكان والدومينكان التي نشاهدها الآن، فإن شعائرها وجذورها تمتد إلى العصور الوسطى.

وإذا كانت الهمجية قد سادت أوروبا العصور الوسطى في بدايتها، فإن نظام وأخلاق الفروسية وما يتبعها من نبل وسمو، وضع الفارس في مرتبة الرجل

النبيل الخلق، ولا تزال مُثل الفروسية من أنبل الأفكار الباقية حتى وقتنا هذا، وإن بعض الدول لا تزال حتى الآن تمنح الأوسمة لكبار المفكرين ورجال العلم بدرجة فارس. ولقد كان الناس في أوروبا في نهايات العصور الوسطى أرقى خلقاً من بدايتها، فقد كان هذا الرقي قائم على أساس وحدة الأسرة والتربية والانتشار البطيء للعادات الحسنة التي سادت أوروبا في مرحلة العصور الوسطى.

أما تراث العصور الوسطى الفكري، فهو يشمل اللغات الحديثة مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية وغيرها وهي التي تولدت من اللغة اللاتينية الأم، بالإضافة إلى الجامعات ومصطلحات العلوم والفلسفة، وكانت الرغبة في التغيير إلى الأفضل تلح في أذهان إنسان العصور الوسطى، فتبدلت العادات والثياب والشرائع وأساليب الزراعة والتجارة والصناعة.

ورغم هذا كله فقد كان تراث العصور الوسطى فى الجوانب العلمية متواضعاً، ولكنه بعد أن أخذ من الحضارة الإسلامية الكثير اشتمل على الأرقام ومنها الصفر، وقيام العلوم على التجربة، وجانباً كبيراً من الرياضيات والطب والفلك والجغرافيا، والبارود، والبوصلة، وصناعة الورق وغير ذلك. لذلك ارتقى الطب وتحرر من أعمال الدجالين. ونلاحظ أن جانباً كبيراً من مستشفيات أوروبا التي نراها الآن في أوروبا هي مؤسسات باقية من العصور الوسطى.

وكان للفن جانباً كبيراً في حضارة العصور الوسطى، فإن فنون الشعر والنثر والنحت والتصوير والموسيقى والحفر على العاج وصياغة الذهب وغير ذلك من الفنون المعمارية خاصة في الكنائس القوطية، وكانت هذه الفنون تقدم ثروة وعمقاً في الزخارف تبهج النفس أكثر من العمارة الحديثة. وفي هذا العصر الذي سمي بعصر الإيمان نجد الرموز الدينية والأعمال اليدوية من أبواب خشبية ونحاسية وأبراج وقلاع ومنارات وتماثيل وواجهات المقابر التي نحتت بكل عناية. وفي داخل الكاتدرائيات نشأت الموسيقى بنغماتها المتعددة، ومن الكنيسة أيضاً بدأ فن التمثيل الحديث والمعاصر.

وفي العصور الوسطى اتسع نطاق التجارة، ومع التجارة انفتحت آفاق

جديدة للمعرفة وشق طريق جديدة في البحار لم تكن معـروفة من قبل. ومع الاتصال بالشرق الإسلامي خاصة في عصر الحروب الصليبية، اتخذت التجارة شكلاً جديداً، وبدأ الغرب يبحث عن طرق جديدة لتجنب مرور التجارة عبر الأراضي الإسـلامية لكثـرة ارتفـاع الضـرائب، فكان اكتشـاف رأس الرجـاء الصالح وما تبع ذلك من كشوف جغرافية، واتساع رقعة العالم وازدياد ثـروته ومعارفه.

وظهر في نهاية العصور الوسطى باباوات أقوياء مثل البابا أنوسنت الثالث ١١٩٨ - ١٢١٦ م، والبابا بونيفاس الثـامن ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م، وأمثال هؤلاء الباباوات رفعوا الكنيسة إلى درجات عليا من النظام في جميع البلاد الأوروبية. كما رفع الحكام العظام في فرنسا أمثال فيليب أوغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) ولويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م، وفيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤ م). وفي إنجلترا هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م)، وإدوار الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) وفي إلمانيا فريدريك الثاني (١٢١٢ - ١٢٥٠ م)، رفع كل هؤلاء وغيرهم دولهم من بلاد تسودها العادات والتقاليد إلى دول تخضع للقانون، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة في عالم العصور الوسطى.

وبعد ذلك كله فإن عصر نهضة القرن الخامس عشر ما هو إلا امتداد أو إتمام لما بدأ في العصور الوسطى، فقد واصل المكتشفون الجغرافيون أمثال كريستوفر كولومبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م) الإيطالي، وفرديناند ماجلان (١٤٨٠ - ١٥٢١ م) البرتغالي، رحلات ارتياد البحار التي قام بها تجار وملاحو العصـور الوسطى من جنـوه والبندقية، وبرشلونة ولشبونه وغيرها. وأن روح الكفاح التي سادت المدن الإيطالية وغيرها في القرن الثاني عشر هي التي أثارت روح التقدم بعـد ذلـك.

وكان الدين المسيحي هو عصب الحياة في العصور الوسطى، والدين هو الذي أشاد الكاتدرائيات الكبرى والف الترانيم الجميلة، ذلك الدين هو الذي ساد ايطاليا وإسبانيا وفرنسا وغيرهما في عصر النهضة في القرن الخامس عشر مع فـارق بسيط، وهو أن الكنيسة في إيطاليا كان لها نصيب كبير في العصور الوسطى

لوجود روما مركز البابوية على أرضها، والكنيسة الإيطالية هي التي وهبت العقل الإيطالي حرية التفكير الذي ظهر في العصور الوسطى، وفي إيطاليا أيضاً كان عصر النهضة الذي تحرر من كل أفكار كنيسة العصور الوسطى.

وبتأثير ذلك كله لم تشترك إيطاليا أو فرنسا في حركة الإصلاح الديني بل إننا نراها تنتقل من ثقافة القرن الثالث عشر، وهي الثقافة الكاثوليكية إلى ثقافة الإنسانية في القرن الخامس عشر والسادس عشر، ثم إلى عصر الاستنارة في القرنين التاليين. ونحن إذ نتقدم من عصر الإيمان إلى عصر النهضة ثم إلى عصر الاستنارة إنما نتقدم من عصر الطفولة إلى عصر الشباب إلى عصر الرجولة. وبذلك ننتقل من ثقافة غير واثقة بنفسها إلى ثقافة قوية نقلت إلينا تراثاً متجدداً موفور الحضارة، من حق البشرية عليها أن تعمل على الدوام لنموها.

وفي النهاية يجب علينا ألا ننسى فضل العرب والمسلمين على ثقافة أوروبا في العصور الوسطى وفي عصر النهضة. وهنا أقف حائراً كيف لحضارة وليدة وهي حضارة أوروبا العصور الوسطى أن تأخذ من حضارة فتية وهي الحضارة الإسلامية، ثم تنمو حضارة العصور الوسطى وتتوقف الحضارة الإسلامية لتكون تراثاً نذكره على صفحات الكتب ولا نعمل به، والأجدر بنا أن نكون نحن العرب والمسلمين أرقى حضارة من غيرنا لما لنا من تراث مجيد.

ويلاحظ أن الكتاب بدأ بفصل عن الحضارة الكارولنجية وهي الحضارة التي عاصرت فترة حكم شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤ م) ثم استمرت من بعده بعض الوقت ثم توقفت، بمعنى أن هذه الحضارة لم تمتد إلى نهاية العصور الوسطى في القرن الخامس عشر، وإن كانت قد أثرت في الحضارات التي أعقبتها مثل نهضة القرن الثاني عشر ثم عصر النهضة.

أما الفصول الباقية من الكتاب من الثاني حتى الثاني عشر نلاحظ أن ما درج تحت كل فصل فإنه يتناول المرحلة منذ بداية العصور الوسطى أو بعدها بقليل حتى نهاية العصور الوسطى، أي أن ما درج في الفصل هو تطور الفكرة منذ بداية العصور الوسطى حتى نهايتها. ويمكن للقاريء الكريم أن يلحظ ذلك بكل وضوح داخل صفحات الكتاب.

الفصل الأول

الحضارة الكارولنجية

- الصبغة الدينية
- النهضة العلمية
- الفنون
- الحياة الاقتصادية

الحضارة الكارولنجية

تفوقت الأهمية الحضارة على الأهمية السياسية في الدولة الكارولنجية، والدليل على ذلك أن هذه الدولة التي أنشأها شارلمان (ت ٨١٤) لم تعش كثيراً بعد وفاته. وتعتبر النظم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذه المرحلة رغم بساطتها بداية لحضارة أوروبا في العصور الوسطى وهي التي أضاءت الطريق لحضارات أخرى تلتها على الأرض الأوروبية. وإذا كان من المعروف أن الحضارة لا تبدأ من فراغ، فإن الحضارة الكارولنجية قامت على ميراث الأمم السابقة في أوروبا وغيرها، ولكن الدولة الكارولنجية قد استطاعت أن تتجاوب مع هذا الميراث في حركة ناشطة تجمعت حيث كانت هذه الدولة في شمال أوروبا. وقد ساعد على قيام هذه الحضارة فكرة الإمبراطورية في أوروبا التي أصبح شارلمان على رأسها، كما أن وضع البابوية في روما قد ساعد كثيراً على نمو هذه الحضارة عندما اعتمدت باباوية روما كثيراً على حماية الإمبراطور شارلمان. كما أن سيطرة الدولة الكارولنجية على إيطاليا بعد هزيمة العناصر اللمباردية والقضاء على دولتها، وأخيراً فإن تنظيمات الدولة والكنيسة وإدخال التراث الكلاسيكي في ثقافة العصور الوسطى. ولا نستطيع في هذا الموضع أن نناقش كل هذه الأمور، لذلك نكتفي بإلقاء الضوء على الصبغة الدينية في الدولة الكارولنجية ومالها من تأثير على هذه الحضارة، والنهضة العلمية التي أقامها شارلمان داخل الإمبراطورية، وبعض الجوانب الفنية والاقتصادية. ا

الصبغة الدينية

ومن المهم جداً أن تكون الصبغة الدينية على رأس هذه الموضوعات لما لها من أهمية في عالم العصور الوسطى، وباعتبارها مدخلاً لكل الجوانب الأخرى. وواقع الحال كانت الدولة الكارولنجية دولة ثيوقراطية أي دولة تجمع بين الجانب الديني والسياسي على العكس من كافة الدولة التي قامت قبلها في أوروبا العصور الوسطى. ويظهر هذا الطابع الديني السياسي في الملابسات التي صاحبت قيام هذه الدولة. وأول هذه الملابسات أن الملك الفرنجي ببين الثالث Pepin III (٧٤١ - ٧٦٨ م) أو ببين القصير - الذي خلف أبيه شارل مارتل Charles Martel (ت ٧٤١ م) - أرسل في عام ٧٥١ م إلى البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢ م) يطلب تنحية الملك الميروفنجي شيلدريك الثالث Childric III ويطلب أيضاً تعينه ملكاً على الفرنجة.

ولما كان البابا زكريا في حاجة إلى حليف كاثوليكي قوي في هذه المرحلة بعد توتر العلاقات بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية، لذلك واثق البابا على طلب «ببين». ولكي يزيد هذا الأخير من دعم شرعية هذا العمل دعا نبلاء الفرنجة في شكل جمعية عامة حضرها بعض رجال الدين على رأسهم القديس بونيفاس في مدينة سواسون، وفي هذه الجمعية تقرر أن يكون «ببين» ملكاً على الفرنجة. وهكذا انتهى حكم الدولة الميروفنجية (٤٨٦ - ٧٥١ م) وبدأ حكم الدولة الكارولنجية (٧٥١ - ٩٨٧ م).

وقد أدى الاعتراف بشرعية الملك «ببين» من قبل البابا ورجال الدين والنبلاء إلى التحالف بين الدولة الكارولنجية والبابوية، هذا التحالف الذي عمل البابا وخلفاؤه من بعده على دعمه ومساندته، مما جعل من الدولة الكارولنجية منذ هذه المرحلة حامية للبابوية في روما، ولقد جاءت هذه الحماية في الوقت المناسب بعد أن إشتد الخلاف بين الإمبراطورية البيزنطية بسبب السياسة اللاأيقونية التي سارت عليها الأسرة الأيسورية الحاكمة للإمبراطورية البيزنطية، وبعد أن زالت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على ممتلكاتها في إيطاليا.

وزاد من تحالف البابوية مع الدولة الكارولنجية واضفاء الصبغة الدينية على هذه الدولة عندما قام الباب ستيفن الثالث Stephen III (٧٥٢ ـ ٧٥٧ م) بزيارة الملك ببين في عام ٧٥٤ م وحصل منه على معاهدة جعلت للبابوية السلطة على سائر الممتلكات البيزنطية السابقة في إيطاليا. وفي مقابل ذلك قام البابا بتتويج الملك ببين مرة ثانية ملكاً على الفرنجة. والحقيقة أن عملية التتويج ووضع جانباً من الأراض الإيطالية تحت سلطان البابوية من الأحداث الهامة في هذه المرحلة، لأن ذلك أدى إلى حماية الدولة الكارولنجية لإيطاليا، وإلى بداية رسالتها الإمبراطورية باعتبارها زعيمة وصاحبة الرأي في تنظيم العالم المسيحي في أوروبا العصور الوسطى.

وواقع الحال أن ملوك الدولة الكارولنجية كانوا مؤهلين لحمل هذه الرسالة باعتبارهم محاربيهم يرجع أصلهم إلى قديسين رومانيين بالإضافة إلى شدة إخلاصهم للكنيسة، وقد تمثل ذلك كله في الإمبراطور شارلمان الذي اتسمت كافة حروبه بالطابع الديني. والدليل على ذلك أن شارلمان تمكن من القضاء على الدولة اللمباردية الأريسورية المذهب، وبذلك يكون قد خلص البابوية من خطر دام حوالي مائتي عام، وأن يضم إيطاليا إلى ممتلكات الإمبراطورية الكارولنجية، كما أن حروب شارلمان ضد العناصر السكسونية الوثنية كان عملاً يقصد به القضاء على بقايا الوثنية الجرمانية. يضاف إلى ذلك أن قضاء شارلمان على دولة الآفار الوثنية وإدخال الديانة المسيحية إلى أقاليم الدانوب يعتبر عملاً دينياً يرضي البابوية ورجال الدين المسيحي. وفي هذا المجال أيضاً فإن حروب شارلمان ضد المسلمين في الأندلس وتأسيسه بعض الثغور المسيحية يعتبر أول رد فعل مسيحي ضد التوسع الإسلامي بعد معركة بلاط الشهداء (٧٣٢ م).

وكان تتويج شارلمان في عام ٨٠٠ م إمبراطوراً رومانياً، وما ترتب عليه من إحياء الإمبراطورية الغربية خاتمة لمرحلة التحالف بين الملكية والكنيسة. ففي هذه المرحلة اكتمل التحالف أو الاتحاد بينهما واختتمت مرحلة تنظيم العالم المسيحي الغربي أي بين الدولة الكارولنجية والكنيسة الكاثوليكية في

روما. ويجب ألا نعتقد أن العنصر الثيوقراطي في حكم شارلمان قد استمد قوته من تقاليد الإمبراطورية الرومانية القديمة، فواقع الأمر أن شارلمان اعتقد أنه مندوب العناية الإلّهية لزعامة العالم المسيحي الغربي وأنه مرشداً له، ويتضح ذلك مما كتبه مؤرخو عصره، ومن هؤلاء الكوين Alcuin معلمه ومستشاره الذي قال أن هناك ثلاث قوى عليا في هذا العالم ويقصد العالم المسيحي، هي البابوية في روما والإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية والعزة الملكية لشارلمان، وأضاف الكوين أن الأخير أعلى هذه القوى لأن السيد المسيح قد اختاره ليتولى زعامة العام المسيحي. يضاف إلى ذلك أن شارلمان كان مصدراً للقانون الكنسي وحامل السيفين أي سيفي السلطة الدينية والسلطة الدنيوية.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هذه الأفكار كانت هي المنطلق الذي سيطر على كافة نواحي الحكم في الدولة الكارولنجية، ومن هنا كانت هذه الدولة دينية أكثر منها دنيوية، وإذا قارنا هذه الدولة وهي القوة الكبيرة في غرب أوروبا مع الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا وهما قوتان مسيحيتان تدين الأولى بالمذهب الكاثوليكي والثانية بالمذهب الأرثوذكسي تبين لنا الفرق الكبير. ففي غرب أوروبا كانت البابوية تحتاج إلى دعم كاثوليكي وليس أرثوذكسي، كما أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن مثل الدولة الكارولنجية التي ظهرت حامية للديانة المسيحية ومنظمة لها، في حين تشابكت الأمور الدينية والدنيوية في الإمبراطورية البيزنطية تشابكاً بلغ حد التعقيد والصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية.

ومما يؤكد الصبغة الدينية في الدولة الكارولنجية وأن نظام الحكم في هذه الدولة كان حكماً ثيوقراطياً، نقول أن حكام الدولة الكارولنجية كانوا حكاماً للدولة والكنيسة. ومن ذلك أن القوانين والتشريعات التي أصدرها هؤلاء الحكام شملت كافة الأمور الدنيوية مثل القرارات الاجتماعية والاقتصادية والدفاعية، كما امتدت أيضاً إلى أدق القوانين الخاصة بسلوك رجال الدين، وتنظيم العقيدة المسيحية والطقوس الدينية، إلى جانب الشروط الواجب توافرها في الراغبين لدخول سلك الرهبانية.

وقد أورد إينهارد مؤرخ شارلمان جانباً من النواحي الدينية التي تمثلت في شارلمان، وذكر أنه كان على جانب كبير من التقوى والإخلاص للديانة المسيحية التي شب عليها منذ نعومة أظفاره، وقد يتضح ذلك في اهتمامه بإقامة العديد من الكنائس وعلى رأسها الكنيسة التي شيدها في مدينة آخن (أكس لاشابل). ولم يكتف شارلمان بذلك بل زين هذه الكنيسة بالذهب والفضة والشمعدانات والبوابات النحاسية. والواضح أن شارلمان قد أحب هذه الكنيسة التي أقامها في عاصمته، فقد اعتاد على إداء الصلاة صباحاً ومساء في تلك الكنيسة. كما اهتم شارلمان بملابس رجال الدين في هذه الكنيسة حتى أن حراس هذه الكنيسة كانوا يرتدون الملابس الفاخرة التي أعدها شارلمان لهم في أوقات الصلاة.

ولم يقتصر اهتمام شارلمان بالديانة المسيحية إلى هذا الحد، بل إنه اهتم بالمسيحيين خاصة الفقراء منهم داخل أوروبا وخارجها، ويذكر أينهارد أن الإمبراطور شارلمان اعتاد أن يرسل الأموال عبر البحر المتوسط إلى الشام ومصر وشمال إفريقيا وبيت المقدس والاسكندرية لمساعدة فقراء المسيحيين في تلك البلاد، ومن هنا كان على شارلمان أن ينمي أواصر الود والصداقة مع الحكام المسلمين في هذه البلاد حتى يضمن حسن معاملة أولئك الملوك أو الحكام لرعاياهم من المسيحيين . وربما تجاوز أينهارد الحقيقة في الفقرة الأخيرة من حديثه لأن الشريعة الإسلامية كافية وفيها الضمان الكافي لحسن معاملة أهل الذمة.

وكان اهتمام شارلمان بكنيسة القديس بطرس في روما كبيراً حتى أنه فاق ما عداه من اهتمامه بالكنائس الأخرى. فبالإضافة إلى الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي زخرت بها الكنيسة اعتاد شارلمان على إرسال الهدايا العديدة إلى البابوية، وجاهد طويلاً من أجل إعادة مجد مدينة روما في ثوبها المسيحي، كما حافظ شارلمان كثيراً على هيبة البابا. ومن ذلك أن أهل روما عندما ثاروا على البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ - ٨١٦ م) وقطعوا لسانه وسملوا عينيه، استنجد هذا البابا بالإمبراطور شارلمان. وقد أسرع شارلمان إلى روما ليعيد إلى الكنيسة هيبتها الجريحة، وقضى موسم الشتاء بأكمله في المدينة بعد أن أعاد البابا إلى

عرشه وحصل على اللقب الإمبراطوري في ديسمبر عام ٨٠٠ م.

وبالإضافة إلى ذلك كان تشكيل الحكومة في عهد شارلمان تشكيلاً دينياً دنيوياً إلى حد كبير، فقد اشترك رجال الدين مع النبلاء اشتراكاً مساوياً في جميع شؤون الحكم والإدارة، وليس ذلك فقط فقد اجتمعت معظم أمور الإدارة المركزية في أيدي رجال الدين من القضاة الإمبراطوريين للمحكمة العليا ورجال الكنيسة الخاصة بالقصر الإمبراطوري، كما أن رئيس هذه الكنيسة الإمبراطورية كان هو المستشار الأول للإمبراطور. وإذا تكلمنا عن الإدارة المحلية وضع شارلمان نظام المبعوثين الذين يقومون بالتفتيش على المحليات وضبط أمورها، وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة هم الذين يعهد إليهم بهذه الأمور.

وتتضح الصبغة الدينية والروح الثيوقراطية في خطبة أحد مبعوثي شارلمان، وقد ورد في مطلع هذه الخطبة «إننا قد قدمنا إلى هنا بأمر سيدنا ومولانا الإمبراطور شارلمان لأجل تحقيق الخلاص الأبدي في الدار الآخرة. ونحن نهيب بكم أن تعيشوا في الفضيلة وفقاً للشريعة الإلٓهية، وفي عدالة وفقاً لشريعة هذه الحياة الدنيا، ونحن نريد منكم أن تعرفوا أولاً وقبل كل شيء، أن عليكم أن تؤمنوا بإلٓه واحد - الأب والإبن والروح القدس... أحبوا الله حباً يملأ قلوبكم، وأحبوا جيرانكم كما تحبون أنفسكم، أو قدموا الصدقات للفقراء قدر استطاعتكم. ثم أورد المبعوث بعد هذه المقدمة واجبات كل طبقة وكل فرد ثم ختم خطبته بقوله «إن الله لا يخفى عليه شيء وإن الحياة لقصيرة، ولا تدري نفس بأي يوم تموت. فكونوا مستعدين للموت في كل وقت. ومن هنا يتضح مدى ارتباط الجانب الديني بالحياة العامة وسلوكها، وإلى أي حد كان لمبعوثي شارلمان السلطة في الجانبين الديني والدنيوي.

كما تمثلت الروح الثيوقراطية فيما كتبه شارلمان إلى البابا ليو الثالث، وقد كتب شارلمان واصفاً نفسه بأنه ممثل الله على الأرض، وعليه أن يحمي جميع المسيحيين ويحكم بينهم بالعدل، وأنه - أي شارلمان - سيد وأب، وأنه ملك وقسيس، وإنه مرشد وزعيم لجميع المسيحيين. ومما لاشك فيه أن الصفات الدينية التي وصف بها شارلمان نفسه لا تتفق والسلطة البابوية التقليدية. كما

أن شارلمان ذكر ذات مرة للبابا أن وظيفة الملك هي أن يحكم بين الناس ويدافع عن الكنيسة، وعلى البابا أن يصلي ويبارك أعمال الملك.

ولعل فيما وصف شارلمان به نفسه قد أزعج البابوية وزاد من متاعبها، لأن البابا وجد نفسه قد إنتقل من أحضان الإمبراطورية البيزنطية التي لا تحترم البابوية، إلى أحضان الإمبراطور شارلمان الذي أصبح هو الآخر لا يحترم البابوية بالصورة التي ترتضيها لنفسها.

وبعد تتويج شارلمان عام ٨٠٠ م، أصبح من الواضح أن شارلمان كان الرابح لأن سلطته الإمبراطورية أصبحت متمتعة بسند من القانون الروماني والتقاليد الرومانية. كما أن البابوية قد ربحت هي الأخرى وإن كانت بدرجة أقل. وفوق هذا كله فإن فكرة الإمبراطورية العالمية لم تزل ضرورية للبابوية، لأنها كانت مرادفة للحضارة المسيحية.

والمهم هنا أن إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية وعلى رأسها شارلمان كان له قيمة دينية ودنيوية، الأمر الذي جعل من شارلمان ندا! للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية. ورغم هذا فإن شارلمان بعد أن حصل على اللقب الإمبراطوري لم يبدل من حياته أو حكومته شيئاً، لقد ظل شارلمان فرنجياً في مسلكه وملبسه وأهدافه، ولم يكن تمسك شارلمان بالنظم الفرنجية في صالح دولته، لأن هذه النظم قد عرضت دولته للانهيار. وذلك أنه قسم ممتلكاته بين أبنائه في عام ٨٠٦ م وفقاً للعادات الجرمانية القديمة، ولم يأخذ بالمبدأ الروماني القائل بأن السيادة السياسية لا تتجزأ. وظلت هذه العادة بين أبنائه وأحفاده وهي التي قسمت الدولة الكبيرة إلى دويلات صغيرة وأطاحت في النهاية بوحدة الإمبراطورية الكارولنجية وأدت إلى زوالها.

وحول قيام الإمبراطورية الرومانية بزعامة شارلمان، فالواقع أن رجال الكنيسة وأهل العلم والأدب قد تحمسوا لهذه الفكرة على العكس من الملوك الآخرين وأهل السياسة. لأن الذين رحبوا بهذه الفكرة وجدوا أن قيام الإمبراطور يعني عندهم انتهاء عصر البرابرة وعودة العالم الغربي إلى النظم المتحضرة. وخير دليل على ذلك ما وُصف به شارلمان بأنه أوغسطس، وما وُصف به عصر

شارلمان بأنه عصر النهضة للتراث القديم، ونهوض روما مرة ثانية إلى عالم الوجود.

النهضة العلمية

يمكن القول أن النهضة العلمية في عصر شارلمان كان لها من الأهمية في التطور الثقافي في غرب أوروبا ما يعادل أهمية النهضة الأدبية في القرن الثاني عشر وكذلك النهضة الأدبية الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي، ومن هنا يمكن القول أيضاً أن النهضة العلمية في عصر شارلمان كانت نهضة علمية حقيقية. ولعل أهم ما قامت به النهضة العلمية هذه التي نسميها النهضة الكارولنجية أنها قامت بجمع التراث الكلاسيكي المبعثر وتنظيم هذا التراث ووضع نواة لحضارة جديدة.

ويرجع الفضل في النهضة العلمية الكارولنجية إلى الموهبة التنظيمية التي اتصفت بها الدولة الكارولنجية، وإلى الجهود التي قامت بها الأديرة سواء من الناحية الثقافية أو من ناحية الجهود التي بذلتها في جمع التراث الكلاسيكي والمخطوطات المتعلقة بالثقافة المسيحية. ومما لا شك فيه أن الهجرات الجرمانية، قد أدت إلى ضياع جانب كبير من هذه المخطوطات الأمر الذي أدى إلى هبوط المستوى الثقافي إلى أدنى حد في القارة الأوروبية. ولكن جهود رجال الدين الأنجلوسكسونيين والإيرلنديين وعلى رأسهم القديس بونيفاس Boniface (٦٨٠ - ٧٥٤ م)، أدت إلى إصلاح كبير في الجانب الثقافي والتعليمي على أرض القارة الأوروبية. كما أن القديس بونيفاس اتخذ من دير فولدا Fulda مركزاً ثقافياً، ومنه انتشرت الثقافة الأوروبية انتشاراً سريعاً داخل القارة الأوروبية خاصة أديرتها.

ولقد قام الإمبراطور شارلمان بجهد كبير في الحركة الثقافية داخل الإمبراطورية، كما أنه كان متحمساً شديداً لهذه الحركة، ولذلك تبنى هذه الحركة وجعل من مدرسة القصر الإمبراطوري مركزاً لهذه الحركة إلى جانب دير فولدا، ومن المعروف أن شارلمان كان أمياً، وفي مدرسة القصر التي أنشأها

كان شارلمان نفسه وزوجته وأبناؤه ضمن طلاب هذه المدرسة. وكان من بين طلاب هذه المدرسة الشباب الطموح من أبناء الأسر الكبيرة الذين لجأوا إلى القصر يلتمسون العلم. وأصبحت مدرسة القصر عاملاً هاماً في الحياة الأدبية والقومية. كما لجأ إلى هذه المدرسة الصبيان الموهوبون من عامة الشعب. كما أن شارلمان شجع كل الطوائف على اختلاف مشاربها للإلتحاق بمدرسة القصر، وكان يعين النابغين منهم في الوظائف الإمبراطورية. وإلى جانب مدرسة القصر ودير فولدا كان هناك دير تور، ودير كوربي، ودير سانت جال وغيرهما من المراكز الديرية الأسقفية.

وإلى جانب شارلمان الذي يرجع إليه الفضل في هذه الحركة، فقد وجد أيضاً لفيف من كبار العلماء جاءوا من جميع أنحاء أوروبا. فمن جنوب غالة (فرنسا) جاء تيودلف Theodulf وأجوبارد ومن إيطاليا بولس الشماس وبطرس البيزي وبولينوس. ومن إيرلندا جاء كلمنت ودونجال.

وإن طابع الحركة الثقافية الكارولنجية هو الطابع الأنجلوسكسوني فإن موضوع الأهمية في ذلك أن اللغة اللاتينية بقيت في إنجلترا كما هي دون أن تتأثر باللهجات المحلية مثلما حدث في فرنسا وإيطاليا. ويرجع بقاء اللغة اللاتينية على حالها في إنجلترا، إن إنجلترا كانت بعيدة إلى حد كبير عن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا على فترات متلاحقة. كما أن اللغة اللاتينية كانت في إنجلترا لغة العلم والعلماء وكان تحمس العلماء لهذه اللغة هو الذي ألهم الثقافة الأنجلوسكسونية.

ومن أعلام النهضة العلمية الكارولنجية العالم الكوين Alcuin الذي عمل رئيساً لمدرسة يورك York في إنجلترا. وقد التحق هذ العالم بخدمة شارلمان في عام ٧٨٢ م حيث عينه الإمبراطور مديراً لمدرسة القصر الإمبراطوري في مدينة آخن، ولقد قام الكوين هذا بدور كبير في توجيه سياسية شارلمان التعليمية، بالإضافة إلى توجيه الحركة الأدبية في الإمبراطورية الكارولنجية كلها. وكان الكوين نحوياً ومن أصحاب المنهج الكلاسيكي القديم الذي يشتمل على الفنون السبعة وهي النحو، والبلاغة، والمنطق، والحساب، والهندسية

والموسيقى والفلك. وأن هذا النوع من المدرسين هو النوع الذي احتاجه مثل هذا العصر.

ونجح الكوين بفضل تشجيع شارلمان أن يحقق أفكاره العلمية على أعلى مستوى عندما جعل من مدرسة القصر الكارولنجي نموذجاً للمدرسة في أوروبا كلها. ويرجع الفضل للعالم الكوين إلى مراجعه الإنجيل وكذلك مجموعة من كتب الصلاة. ولعل ذلك ما دفع البعض إلى اعتبار الكوين رائداً لحركة الإصلاح في الطقوس الدينية، وهو الإصلاح التي قامت عليه كافة الطقوس في أوروبا العصور الوسطى.

ولعب الكوين أيضاً دوراً كبيراً في إصلاح خطوط الكتابة حتى أصبح للعصر الكارولنجي فناً خاصاً قائماً بذاته. وتجلى هذا الإصلاح في المخطوطات التي جمعتها الدولة الكارولنجية، ومن هنا كانت الثقافة المسيحية مدينة بنهضتها واستمرارها في أوروبا وإنجلترا وغيرها إلى هذه المخطوطات التي نسخت بخط جميل رفيع المستوى. ولما كانت إنجلترا بعيدة إلى حد كبير عن الغزوات الجرمانية وما أحدثته من تلف داخل القارة الأوروبية لذلك كانت المخطوطات التي حفظت بها وفي إيرلندا أيضاً صحيحة ودقيقة، لذلك اتجهت أنظار العلماء الكارولنجين إلى هذه الأماكن لإحضار المخطوطات وإعادة كتابتها مرة أخرى.

ولم تقتصر هذه المخطوطات على الكتب الدينية وشروحها بل إلى المؤلفات الكلاسيكية، ولذلك وفد العديد من النساخ الإنجليز والإيرلنديين إلى البلاط الإمبراطوري وأديرة الإمبراطورية حاملين معهم المخطوطات لمراجعتها وإعادة نسخها وإعادة نسخ منها إلى بلادهم مرة أخرى. وكانت مدينة فولدا وديرها من المراكز الهامة حيث كان بها جالية إنجليزية. وكانت مدرسة هذه المدينة من أهم المدارس الأوروبية التي ظلت تعمل على إخراج العديد من المخطوطات الدينية المسيحية والكلاسيكية.

وعمل شارلمان على جمع أكبر قدر من المخطوطات، وعلى نسخ عدد

من النسخ لكل مخطوط بعد استخدام النصوص الصحيحة. ولم يكتف شارلمان بذلك، بل أصدر العديد من التعليمات لرجاله وللنساخ حتى لا يخطئوا في الكتابة عند النسخ، ويرجع الفضل أيضاً إلى شارلمان والعالم الكوين إلى استخدام نوع من الخط عرف باسم خط النسخ الكارولنجي، وقد أصبح هذا النوع من الخط نموذجاً في معظم دول أوروبا. ويبدو أن هذا النوع من الخط قد نشأ في دير كوربي بعد عام ٧٥٠ أي قبل عصر شارلمان، ولكنه تطور وبلغ درجة عالية من الإتقان في دير مدينة تور، وهو الدير الذي انتقل إليه الكوين بناء على طلبه في ٧٩٦ م. وفي هذا الدير جمع الكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للعهد القديم والعهد الجديد التي قام بها القديس جيروم، بالإضافة إلى الكتب الكلاسيكية حتى تكون أكثر دقة من النسخ التي تداولتها أوروبا قبل عصر شارلمان.

واستمرت النهضة العلمية الكارولنجية بعد شارلمان وتقدمت حتى بلغت ذروة مجدها، وذلك بفضل تلاميذ الكوين ومنهم المؤرخ أينهارد. وكان هؤلاء التلاميذ جميعاً من كبار العلماء وبجهودهم وصلت المكتبات في الأديرة إلى درجة عالية من النمو. كما أن خلفاء شارلمان السياسيين ساروا على درب شارلمان واهتموا وشجعوا العلماء والعلوم.

ومن الشخصيات العلمية الهامة في عصر خلفاء شارلمان يظهر العالم الإيرلندي يوحنا سكوت John the Scot (٨١٠ - ٨٧٧ م) المعروف باسم إريجينا Erigena الذي أشرف على مدرسة القصر الكارولنجي في عهد الملك شارل الأصلع (٨٧٥ - ٨٧٧ م)، ويوحنا هذا هو لاهوتي إيرلندي حاول التوفيق بين العقل والإيمان. وكان عالماً متبحراً في العلوم يجيد اللغة اليونانية، مغرما بأفلاطون والآداب القديمة، كما أن شارل نفسه كان معجباً به ويحبه ويحضر محاضراته.

وإلى جانب يوحنا سكوت كان هناك العديد نذكر منهم سيد ليوس سستوس وكان من أعظم العلماء والشعراء وأشدهم جاذبية في عصره. وقد عمل مدرساً في مدرسة ليبج Liege في أواسط القرن التاسع.

واستفادت النهضة العلمية الكارولنجية من الدراسات البيزنطية وظلت على اتصال دائم بها خاصة في مراكز الدراسات اليونانية في إيطاليا، ومن هذا الجانب جاءت الترجمات والمؤلفات التاريخية التي قام بها أنسطاسيوس الكتبي Anastasius the Librarian.

ومن أعلام النهضة الكارولنجية أيضاً يوحنا الشماس Johannes Diaconus المعروف باسم المنشد، وهو من أصدقاء أنسطاسيوس. وكان دخوله في خدمة البابوية عاملاً كبيراً على زيادة حماسة الثقافة الكلاسيكية ولمدينة روما بصفتها وريثة الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية. ومن مؤلفات يوحنا الشماس كتاباً تناول تاريخ البابا جريجوري الأول Gregory I (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م). وفي هذا الكتاب وضع يوحنا جميع المثاليات الكلاسيكية والتقاليد اللاتينية التي سار على نهجها علماء نهضة القرن الخامس عشر.

الفنون

من الأقوال المأثورة أن الإمبراطور شارلمان أسس فناً معمارياً رومانياً مقدساً، مثلما أسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن هنا يمكن القول أن للحضارة الكارولنجية كان لها تأثيراً كبيراً في بعض نواحي الفنون الزخرفية والتصويرية والمعمارية، ولذلك لم يكن للتقاليد الكلاسيكية أثراً كبيراً في هذه الجوانب، إنما جاء التأثير من الفن الأنجلوكلتي والشرقي، لذلك أصبح الفن الكارولنجي كثير الزخارف الهندسية المنتظمة والرسومات الشبكية المتموجة. ويتضح ذلك بجلاء في كنيسة القصر الإمبراطوري التي أقامها شارلمان في مدينة إكس لاشابل (آخن). وقد ظهر في هذه الكنيسة التصميم المعماري المثمن الأضلاع الشرقي الأصل.

وفي رأفنا ظهر فن العمارة الكارولنجية في كنيسة سانت فيتال St. Vital، ويعتبر فن عمارة هذه الكنيسة نموذجاً مفضلاً سارت على نهجه كافة المنشآت المعمارية في إلمانيا. ورغم هذا كله فقد اشتمل البناء على بعض العناصر الكلاسيكية، ويتضح ذلك في الأعمدة والنافورات والبوابات البرنزية.

وهناك بعض الكنائس التي بنيت على النظام الروماني القديم مثل الكنيسة التي بناها المؤرخ إينهارد في مدينة ستيناخ، ومنها أيضاً بعض الكنائس التي بنيت على الطراز البازيلكي الفسيح ذو الأعمدة والسقف الخشبي. ويلاحظ أن من هذه الطرز جاء الطراز الرومانسكي.

ومن الفنون الكارولنجية التصوير المنمنم والزخرفة البراقة، وقد انتشرت مدارس التصوير في العديد من المدن خاصة مدينة تور Tour وكوربي Corbie ومتز Metz. وقد تأثرت هذه المدارس بالفنون الأنجلو إيرلندية والشرقية والكلاسيكية، ولكن ميلها إلى الكلاسيكية كان أكثر من الفنون الأخرى. ويتضح ذلك في تعاملها مع الجسم الآدمي واستخدام شكل ورقة الأكنث في الزخرفة. ويتضح التأثير الكلاسيكي بجلاء في مخطوطات مدرسة القصر الإمبراطوري مثل أناجيل فيينا الشهيرة التي لا زالت المدينة تحتفظ بها حتى الوقت الحالي، وهي الأناجيل التي كان الأباطرة الألمان يقسمون عليها عند تتويجهم. وربما كان هذا التأثير من الإمبراطورية البيزنطية أو من إيطاليا وقام بنقله بعض الكتبة والنساخ، وسوف يكون لهذا الفن أثراً كبيراً خاصة في ألمانيا على نهضة القرن الثاني عشر الميلادي.

الحياة الاقتصادية

اعتمدت الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية الكارولنجية كما اعتمدت الكنيسة أيضاً على الأسس الزراعية التي قامت على ملكية الأرض، ومن هنا أصبح المجتمع الكارولنجي مجتمعاً ريفياً زراعياً. وكان يدير هذه المجتمعات مسؤول يسمى «ناظر»، وقد تولى إدارتها حسب الطرق الرومانية القديمة المتوارثة. والسبب في ذلك أن مجتمع العصور الوسطى حتى هذه المرحلة الكارولنجية عاش مرحلة الهجرات الجرمانية ولم يتفرغ حتى يضع لنفسه النظام الاقتصادي الذي يلبي حاجته.

ومن الملاحظ أن القصور كانت قمة البناء الاقتصادي في العصر الكارولنجي، لأن القصر كان بناء شاسعاً، وكانت منتجات الضياع المحيطة

بالقصر كافية لتأدية رسوم الإقامة للسيد الإقطاعي ورجاله عندما يأتون في زيارتهم الدورية للضياع. وكان هذا القصر أيضاً محاطاً بالمنازل والحوانيت الخاصة بأرباب الحرف والعمال الذين يحتاجهم القصر مثل الخبازين والنجارين والحدادين وغيرهم.

وكما تركزت الحياة الثقافية في الأديرة، فقد أصبح الدير كذلك مركزاً اجتماعياً واقتصادياً، لأن الأديرة ضمت أراضي شاسعة، ولم يقتصر عمل الرهبان على التعبد، بل أصبحوا أداة لنشر الحضارة في البلاد التي انضمت إلى الإمبراطورية الكارولنجية. ويتضح ذلك إذا علمنا أنه كان لبعض الأديرة مساحات شاسعة من الأراضي مثل دير فولدا الذي امتلك في القرن الثامن الميلادي خمسة عشر ألف حقلاً من الأراضي الجيدة الصالحة للزراعة، كما كان لدير لورش Lorsch حوالي تسعمائة ضيعة في ألمانيا، وزاد عدد الرهبان في هذه الأديرة حتى أصبح في دير كوربي حوالي ثلاثمائة من الرهبان، وتشبه الدير بالقصر وحوله مجموعة كبيرة من العمال التابعين للدير مثل أرباب الحرف والفلاحين، وعلى هذه الصورة أصبح الدير وما حوله من مساكن وأراضي زراعية مثل المدينة الصغيرة المحاطة بسور بداخلها الطواحين والحمامات والمخازن والمستشفيات والكنائس والمدارس وغير ذلك من المرافق.

وإذا كان الحديث قد أنصب على الحياة الاقتصادية التي تشتمل على الزراعة والصناعة والتجارة، فإن أعمال الأديرة قامت على أساس اقتصادي زراعي بقدر كبير. فقد استطاعت الأديرة بفضل الرهبان والذين انضموا إليهم أن تزيل الغابات وتجفف المستنقعات، وتقيم الوحدات الزراعية في الأماكن التي كانت بوراً.

وإلى جانب الزراعة أصبحت الأديرة أيضاً مركزاً تجارياً، ولعل ذلك يرجع إلى الحصانة الدينية والروحية التي تمتعت بها الأديرة، ولذلك استطاعت هذه الأديرة أن تصك النقود وتقيم الأسواق وتضع النظم للأعمال المصرفية بل قامت بأعمال المصارف. وزاد من أهمية الأديرة كمراكز مالية ما تدفق عليها من أوقاف وهبات وعطايا، حتى أن بعض ملاك الأراضي كانوا يقومون بأعمال

خاصة للأديرة مقابل مبالغ معينة، كما أن بعض ملاك الأراضي قد تنازلوا عن أراضيهم للأديرة مقابل مأواهم في الدير دون أن يكـونوا رهباناً.

وإلى جـانب هذه الأعمـال فمن المعـروف أن الأديـرة قـد ضمت بين جدرانها أعلى المستويات الـروحية والثقـافية، وبـذلك أصبحت الأديـرة هي المراكز الثقافية والاقتصـادية وأصبحت مـراكز متقـدمة للنشـاط المادي الفني والصناعي. ففي هذه الأديرة ازدهر الأدب والفن والموسيقى والعمارة وهي ثقافة العصور الوسطى. ومن الملاحظ أن ثروة الدير الهائلة لم تكن ملكاً لرئيس الدير والرهبان فحسب بل كانت أوقافاً للقديس الذي سميت كنيسة الدير باسمه، ومن هنا كانت حصانه الدير بالإضافة إلى إعفائه من الضرائب. وعلى أية حال لقد كانت كافة الأنشطة الاقتصادية التي يتولى أمرها الدير خاضعة لإشراف دقيق.

ولكل هذه الأسباب التي توافرت داخل الدير من نشاط ثقافي واقتصادي وحصانة دينية عاشت الثقافة الكارولنجية حتى زوال الإمبراطورية التي أسسها شارلمان، وظلت هذه الأديرة أو المراكز الحضارية تنبض بالحياة، وظلت هذه الأديرة حاملة لمشعـل الحضارة داخـل أوروبا في المـرحلة اللاحقـة للعصر الكارولنجي، وسنجد أثرها في نهضة القرن الثاني عشر.

الفصل الثاني

النظم الإدارية

- الملكية في بداية العصور الوسطى
- السلطة الملكية في عصر الدولة الميروفنجية
- نظام الحكم في الدولة الكارولنجية
- سلطة الملك الدينية
- مبدأ الوراثة
- علاقة الملك بالشعب
- السلطة التشريعية
- القضاء
- الإدارة المحلية
- الإدارة المالية
- الجيش
- البحرية

لاشك إنه يوجد اختلاف كبير بين نظم العصور الوسطى ونظم العصور الحديثة، وهذا الاختلاف يرجع من جهة إلى اتساع وظيفة الحكومة الحديثة، ومن جهة أخرى إلى ما تهيأ للحكومة الحديثة من وسائل، مثل سهولة المواصلات وانتشار التعليم ونمو النظم المالية وتطورها. ومع هذا فإن عمل الحكومة الجوهري لم يتغير فقد كان عليها أن تحفظ الأمن في داخل البلاد وأن تنشر العدل بين الناس، وأن تنظم ما يرتبط بالصالح العام من أمور اجتماعية واقتصادية، مثل تنظيم شؤون التنقل بين البلاد والاهتمام بالموازين والمقاييس والنقد. وتوفير الحاجات المادية لهذه الغايات، كما ينبغي إقامة وسائل للدفاع وإنشاء الإدارات العامة، ودفع رواتب الجيش وموظفي الدولة. وسوف نجد بعض التشابه في الطرق التي استخدمت لتحقيق هذه الأهداف في مختلف الدول ولو لم يكن بينهما صلة تاريخية.

الملكية في بداية العصور الوسطى:

سادت الملكية معظم دول أوروبا في العصور الوسطى، ولم يختلف النظام الملكي في بدايات العصور الوسطى عن القبيلة ونظامها الجماعي القليل التماسك. والراجح أنه لم يكن ثمة فارق سياسي ملحوظ بين قبيلة يتولى أمرها ملك، وبين قبيلة ليس لها ملك، لأن الملك كان ممثلاً للمجتمع الذي يحكمه لا سيداً عليه، كما أن السلطة الملكية في مراحلها الأولى كانت غير محددة الاختصاص، فظل الملك قاضياً وقائداً وحاكماً ورئيساً دينياً. ويمكن

القول أن الملك كان رب أسرة وسيد دولة في آن واحد. ولم يكن الحكم الملكي استبدادياً أو مقيداً بقيود محددة في بداية الأمر. ومع أننا نستطيع أن نلاحظ طوال العصور الوسطى جنوحاً تدريجياً نحو تحديد السلطات الملكية واختصاصاتها، فضلاً عن محاولات متعاقبة لتقييدها، فإن المجال لم كان متسعاً لتأثير الصفات الفردية، حيث ساهمت المؤهلات الملكية الشخصية في العصور الوسطى بنصيب أكبر منه في العصور اللاحقة.

السلطة الملكية في عصر الدولة الميروفنجية:

تقع المرحلة الأولى في تحديد السلطات الملكية بين تولية الملك كلوفس الحكم سنة ٤٨١ م ووفاة شارلمان سنة ٨١٤ م. وتفصيل ما حدث أثناء تلك المرحلة إن السلطات الملكية أخذت في النمو والازدياد زمن الملوك الميروفنجيين الأوائل، وأصبح التنظيم في الدولة هو التنظيم الملكي، وبالإضافة إلى ذلك أصبح الملك صاحب السلطة في منح الأفراد والجماعات من الحماية الخاصة ما جعل لهم مكانة ممتازة،كما جعل للذين يعمدون إلى معارضتهم عقوبات خاصة، ونفذت أوامر الملك خشية عقوبات خاصة تحمل التسمية الملكية. ثم أن وظيفة الملكية أصبحت وراثية مع عدم الالتزام بانتقال الحكم من الأب إلى الإبن، بل حدث أحياناً إن انتقل الملك إلى الأخ أو العم. وظل عدم تحديد الوراثة زمناً طويلاً في بلاد كثيرة، بل غدت الملكية انتخابية محضة في بعض الدول. ومع أن مبدأ ولاية الإبن بعد أبيه أصبح هو القاعدة تدريجياً، فإن قاعدة وراثة الإبن الأكبر للحكم، وهو نقيض قاعدة تقسيم الإرث الملكي لم تصبح هي القاعدة العامة في أوربا إلا أواخر العصور الوسطى. وتتضح أهمية المبدأ الوراثي أكثر ما تتضح في طول الحقبة الواقعة بين انهيار سلطان الملوك الميروفنجيين ونهاية حكم البيت الميروفنجي، إذ سيطر على ممتلكاتها مدة قرن من الزمان تقريباً حجاب القصر الذين صاروا يتصرفون في تولية الملوك وعزلهم كيفما أرادوا. وتضاءلت سلطات ملك الميروفنجيين حتى صارت في حكم المعدوم، على حين ظلت أشكالهم التي لم تختلف عن سائر رعاياهم إلا بشعورهم المرخاة على أكتافهم، موضع

احترام، يجلسون على العرش، ويستقبلون سفراء الدول الأخرى، ويجيبون على أسئلتهم ويناقشون مقترحاتهم بما يلقنه لهم حجاب القصر من إجابات. وظلت الأمور على ذلك الحال حتى عام ٧٥٢ م حين جرى عزل شيلدريك Childreic آخر ملوك الميروفنجيين، وانتقال لقب ملك إلى حاجب القصر Mayer of the Palace صاحب السلطة الملكية الفعلية وهو ببين Pepin ابن شارل مارتل Charles Martel. ومع هذا لم يتم ذلك الإجراء إلا بعد مشورة البابا زكريا (٧٤١ ـ ٧٥٢ م).

وكانت السلطة الملكية في مرحلة الدولة الميروفنجية لا تزال من الناحية النظرية محدودة بما للمجلس العام من سلطان، غير أن الملكية الميروفنجية امتازت عن الملكية التي سادت في بداية العصور الوسطى بعاملين خطيرين هما:

أولاً: إن الميروفنجيين استولوا على أقاليم يدين أهلها بالمسيحية ومصطبغون بالصبغة الرومانية، ونظمها رومانية إقليمية، وهي أقاليم تقبلت اعتناق المسيحية وعلى رأسها أبناء البيت الملكي. لذلك أضحى الملك الميروفنجي حائزاً على كل مؤهلات ما كان للإمبراطور الروماني، وتملك أراضي واسعة يتصرف فيها كيفما شاء، بالإضافة إلى ما جرت العادة بفرضه على الإقليم الروماني من ضريبة الرؤوس ورسوم النقل ومقررات التجارة وأرباح العملة. وغدا الملك أيضاً الملاذ الرسمي، وليس بينه وبين البابا إلا مسافة قصيرة.

ثانياً: إن الملكية ذاتها اكتسبت طابعاً مقدساً جديداً، إذ ارتبطت علاقة الملك بالرعية بما جرى من يمين الولاء، واستدعاء الملك المجالس الكنسية للانعقاد. ثم إن الملك اختص بالتصديق على انتخاب الأساقفة، وتولى أحياناً تعيينهم في أسقفياتهم بحجة حق الإشراف عليهم. ومن ذلك يتضح أن سلطات الملك الميروفنجي لم تكن ذات حدود معينة. ومع ذلك لم يكن الملك ـ من الناحية العملية ـ فوق القانون. ومن الدليل على ذلك أن الملك شاريبرت Charibert أخذ على عاتقه يوم اعتلائه العرش إلا يسن قوانين أو تشريعات

جديدة. ونستطيع أن نستخلص من هذا المعنى أيضاً من قصة «وعاء سواسون» الـذي ورد نصه في كتـاب جريجـوري التوري Gregory of Tours «تـاريخ الفرنجة» The History of the Franks إن جندياً نازع كلوفس ما ادعاه لنفسه في إبريق معين من غنيمة ـ لم يكن من نصيبه. وإن الجندي برهن على عدم أحقية كلوفس لوحده في هذا الإبريق. ورغم أن كلوفس لم يكن يطلب الإبريق لنفسه وإنما لإعادته للكنيسة التي سلب منها بناء على طلب الأسقف، ورغم أن الجندي لقي حتفه بعد ذلك، إلا أن القصة تصور لنـا اعتراض الجنـدي على تصرفات الملك كلوفس. وعلى أية حال فقد قيدت السلطة الملكية الميروفنجية بثلاث وسائل عملية وهي:

١ ـ انتقال ملكية الأرض دون المطالبة بما يقتضيه ذلك من خدمة عامة.

٢ ـ إصدار الإعفاءات الإقليميـة التي شملت كل مـا يتعلق بمباشـرة القضاء وموارده وأرباحه.

٣ ـ تحول الوظائف العامة إلى إقطاعات وراثية.

ومن الملاحظ أن هذه القيود هي التي أسهمت بنصيب كبير في سقوط البيت الميروفنجي.

نظام الحكم في الدولة الكارولنجية:

أما الكارولنجيون الذين استقامت إليهم حجابة القصر في أستراسيا، فإنهم ساعدوا على توطيد الملكية الميروفنجية بسلسلة من الانتصارات على منافسيهم قبل أن يتجرأ أحد أولئك الكـارولنجيين على اتخاذ لقب الملك لنفسـه. ثم استطاع شارلمان بعد أن امتدت أملاكه حتى شملت معظم غـرب أوروبا أن يحصل من البابا سنة ٨٠٠ م على لقب امبراطور، ولعل عرش القسطنطينيـة الذي كانت تجلس عليه الإمبراطورة إيرين Irene (٧٩٧ ـ ٨٠٢ م) كان في نظر شارلمان شاغرا، وإن اللقب الإمبـراطوري الـذي اتخذه لنفسـه انطوى على أحقيته في أن يكون خليفة أغسطس. غير أنه لم يحاول أن يحصل على امتلاك أراضي الإمبراطورية الشرقية، بل قنع بما جري عليه من الاعتراف به إمبراطوراً

في الغرب. وبلغت الإمبراطورية الكارولنجية من الاتساع حتى امتدت من البحر البلطي إلى جبال الرانس ومعظم إيطاليا ومن المحيط الأطلسي إلى نهر الفستولا. ونال الإمبراطور من العظمة ما جعل للنظم الإمبراطورية في دساتير الدول الأوروبية تأثيراً كبيراً لما لهذه الإمبراطورية من نصيب في الأساطير الأوروبية أواخر العصور الوسطى. ونستطيع أن نتبين ذلك من آثار المحاكاة للنظم الإمبراطورية العظيمة التي انتشرت في غرب أوروبا في البلاد التي لم تمتد إليها سيطرة الكارولنجيين يوماً من الأيام مثل إنجلترا.

سلطة الملك الدينية:

إن السلطة الملكية التي انعدمت تقريباً في أواخر عصر الدولة الميروفنجية، لم تلبث أن استعادت قوتها وتوطدت أركانها في ظل البيت الكارولنجي، فلم يكن الإمبراطور ملكاً في ممتلكاته فحسب، بل مشاركاً علمانياً للبابا في سلطاته، وكل منهما مساوٍ للآخر في واجب العمل على مد أطراف مملكة المسيح. ومن الدليل على مبلغ اعتقاد شارلمان في وظيفة الإمبراطورية إمعانه في الانتصار على السكسونيين، وما قام به بعد ذلك من حمل السكسون جملة على اعتناق الديانة المسيحية، فضلاً عن حملاته ضد المسلمين في إسبانيا. وفي الأمور الكنسية زاول الإمبراطور حق الإشراف على انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة مزاولة بلغت في كثير من الأحيان أن صار الإمبراطور صاحب الحق في اختيار مرشحيه لهذه المناصب. كما عين الإمبراطور موظفاً خاصاً للنظر في أمور الكنيسة، وكان من أهم موظفي البلاط، وهذا الموظف هو المعروف باسم رئيس القساوسة الإمبراطوريين، وكانت وظيفته تقابل من بعض الوجوه وظيفة رئيس البلاط. كما كان هذا الموظف هو كبير القضاة في المسائل العلمانية. ثم أن صفة القداسة التي لصقت بملوك الميروفنجيين ظلت لصيقة بخلفائهم الكارولنجيين. كما أن ثوب الإمبراطور عند تتويجه كان إشبه برداء الأسقف، على حين شابه رداء الملك رداء القس. واستلزم التتويج وسامة الإمبراطور أو الملك بدهن الرأس بالزيت المقدس. وزادهم على مر السنين أن اعتقد فيهم الناس أنهم أصحاب صفات مقدسة طاهرة لا سبيل إلى زوالها.

ومن ذلك كله يتضح إنه ثمة علاقة مرتبطة بين ما جري من استنجاد ببين بالبابا زكريا وتتويج شارلمان بيد البابا ليو الثالث Leo III عام ٨٠٠ م، وبين نظرية الحق الإلّهي فيما بعد، وما جري من تحالف طويل الأمد بين الكنيسة والملك. وفضلاً عن ذلك امتدت ولاية الملك زمن الكارولنجيين حتى شملت قضايا معينة سميت في القانون الإنجليزي باسم القضايا العامة، وهي جرائم انتهاك حرمة المعابد وإيذاء الأرامل واليتامى والمساكين العاجزين عن حماية أنفسهم وذويهم.

مبدأ الوراثة:

كانت الملكية وراثة دون مانع من تجزئتها، وللملك أن ينظم وراثة الحكم في المملكة، وعلى هذا قسم شارلمان سنة ٨٠٦ م أي قبل وفاته بثمان سنوات ممتلكاته بين أولاده الثلاثة، كما إن إبنه الأصغر لويس التقي الذي عاش بعد إخوته جميعاً وأصبح الوارث الوحيد للمملكة وانفرد بحكم إمبراطورية أبيه كلها، لم يلبث أن سار على نهج أبيه بأن قسم مملكته بين أولاده الثلاثة، وهم لوثير وببين ولويس، وأصبح لوثير مشاركاً لأبيه في الإمبراطورية، وببين الذي تولى حكم إقليم اكويتين،. ولويس الذي أضحى ملكاً على بافاريا والأقاليم التي ألحقت بها. وقد ظل مبدأ التقسيم سائداً طوال زمن الكارولنجيين، دون أن يدل ذلك على إنقسام الإمبراطورية من الناحية النظرية على الأقل. أما مبدأ عدم قابلية المملكة للتقسيم فلم يظهر إلا في زمن متأخر، ويرتبط ظهوره بالوعي القومي، وهو الذي كان في القرن التاسع الميلادي طيفاً ضعيفاً هزيلاً.

ونستطيع أن نلحظ جانباً من هذا القبيل في التاريخ الإنجليزي حيث انتقلت إنجلترا ونورماندیا عند وفاة الملك وليم الأول (١٠٦٦ - ١٠٨٧ م) إلى إبنين مختلفين. ولم يستقر مبدأ توريث الإبن الأكبر فقط إلا زمن هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م). أما في ألمانيا، أي الأراضي التابعة للإمبراطورية، فلم يتقدم مبدأ عدم تقسيم المملكة ومبدأ توريث الإبن الأكبر إلا في بطء شديد. ومع أن المرسوم الذي أصدره شارل الرابع (١٣٤٧ - ١٣٧٨ م) سنة

١٣٥٦ م منع تقسيم أراضي الناخبين الإمبراطوريين، فإن مبدأ توريث الإبن الأكبر لم يصبح قاعدة عامة في جميع الأراضي الألمانية إلا في نهاية القرن السابع عشر الميلادي.

علاقة الملك بالشعب:

وأهم ما قام به شارلمان هو توثيق الصلة بين الملك والامة أو الأمم التي تولى حكمها، ويتضح هذا في أعماله الحربية والتشريعية والمالية. ويبدو أكثر وضوحاً في نظام يمين الولاء، حيث كان من المحتم على كل رجل حر، سواء أكان تابعاً أو غير تابع لسيد من السادة، أن يقسم يمين الولاء للملك عند توليته الحكم، وينسحب ذلك القسم من وقت لآخر إلى أولئك الذين يبلغون سن الرشد. ورغم أن نمو النظام الإقطاعي أضعف من هذا الرباط بين الملك والرعية، فإنه ظل في عقول المواطنين زمناً طويلاً.

ويدل التفسير المتواتر ليمين الولاء دلالة واضحة على مدى الاعتقاد في حقيقة السلطة الملكية. على أنه من المحتمل أن تصبح هذه الحقيقة خيالاً هزيلاً بدليل ما هو مأثور عن أحد رجال القانون الإقطاعيين في فرنسا في القرن الثالث عشر، حين يقول بوضوح أنه من المحتم على الذين أقسموا يمين الولاء للبارون أن يحاربوا في جيشه ضد الملك. ومن البديهي أن تاريخ التغيير في هذا الاعتقاد، فضلاً عما جري بالتدريج من رجوع إلى الفكرة الملكية القديمة في مختلف البلاد هو تاريخ قيام النظام الإقطاعي وانهياره. والواقع أن فشل خلفاً شارلمان في المحافظة على الإدارة المركزية التي إتبعها لحكم الإمبراطورية هو ذاته دليل على عبقرية شارلمان الفذة . إذ ترتب على اختفاء هذه الرئاسة القومية أن أخذت هذه الإدارة في التفكك السريع، ونزل الملك عن حكمه المباشر للرعية، وبات موظفوه يتوارثون وظائفهم حتى استقلوا بها. وارتفع مبدأ التعاقد على القانون العام، وتفسير ذلك أن العلاقة بين السيد الإقطاعي وتابعه قامت على أساس تعاقدي، وكان في استطاعة كل من الطرفين أن يتحلل من العقد، وإن تم ذلك على مراحل.

السلطة التشريعية

أوضحنا فيما سبق أن الملوك الميروفنجيين كانوا مقيدين في سلطاتهم التشريعية، ويتبقى هنا أن نشير إلى أنه لم تكن هناك حدود رسمية معينة. وكذلك كان الحال أيام شارلمان من حيث انعدام الحدود، ولكن شارلمان كان مشرعاً خصيباً، فلم يكتف بجمع قوانين مختلف القبائل التي حكمها، بل سن قوانين جديدة، وأصدر أوامر إدارية تارة بموافقة الناس في المجلس السنوي العام وتارة بدون موافقتهم.

وحتى عصر شارلمان لم يكن فارق بين القوانين التي يقرها الملك بموافقة رعاياه، وبين الأوامر والقرارات التي أصدرها بمساعدة المجلس الملكي. والأرجح إن النشاط التشريعي وجد أواخر العصور الوسطى في إنجلترا، وذلك لأن العرف جري على اعتبار القانون قديماً لا يتغير، وإن كل ما يحدث من متجددات لا يعدوان يكون شرحاً لا قانوناً جديداً. كما إن استخدام القانون الروماني في إلمانيا وبعض أقاليم فرنسا أدى أيضاً إلى قلة التشريع واقتصار ما يصدر على اللوائح الإدارية. ومع إن التشريع ولا سيما ما يتعلق بالقانون الخاص، بدا أقل أهمية عن الإدارة في العصور الوسطى فإنه ظل من خصائص الملكية، وارتبط بيمين الملك عند تتويجه، حيث يلتزم بحماية حرية الرعية، ولذلك اشتملت مواد وثيقة التتويج في كثير من الأحيان على الوعد بإزالة مفاسد معينة، سواء أثبت ذلك بقانون جديد أو رجوعاً إلى القانون القديم، ومثال ذلك الملك الإنجليزي هنري الثاني عمد عند اعتلائه العرش، لا إلى إحياء قوانين الملك إدوارد التقي (١٠٤٢ - ١٠٦٦ م) وما أضيف إليها من تعديلات زمن وليم الفاتح بموافقة باروناته، بل سن أيضاً قواعد خاصة بشأن ضريبة المعونة ووسيلة جمعها لنفسه أو للإقطاعيين التابعين له.

وتوافر هذا التكامل بين عنصر السلطة الملكية وعنصر الموافقة العامة في الأمور التشريعية مثلما توافر في تعيين الملك. على أنهما اختلفا في الأهمية باختلاف الأزمنة، ففي المدة التي صدرت فيها قرارات أكسفورد زمن

الملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٧٧٢ م) في إنجلترا لم يكن من المستطاع الاستغناء رسمياً عن موافقة الملك. على حين إن ما أصدره الملوك في فرنسا في القرن الرابع عشر من قرارات بمشورة الوزراء الذين لم يكن لهم أهمية جوهرية، جري إعلانه بموافقة رجال الكنيسة والبارونات. على أن المعنى الحقيقي لهذين النصين يستمد من نمو الحكم المطلق والتنظيم النيابي على التعاقب.

كما إن منح براءات الحريات لم يقتصر على سنوات التتويج بل تعداه إلى أوقات أخرى، وكما ترتب على الحركة الإقطاعية ضد ملوك البلانتاجنت في إنجلترا إصدار العهد الأعظم عام ١٢١٥ م وتكرار إصداره من حين لآخر، حدث كذلك في فرنسا سنة ١٣١٤ م بعد الثورة ضد الملك فيليب الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤) إن منح خليفته لويس العاشر (١٣١٤ - ١٣١٦ م) في عام ١٣١٥ م سلسلة من العهود لإقاليم عديدة، فضلاً عن تأكيد مرسوم سنة ١٣٠٣ م الشامل لجميع أقاليم فرنسا.

وعلى أية حال فإن التشريع في العادة تطلب وسائل أقل تعقيداً، إذ أصدر الملك قراراته بموافقة المجلس الكبير، سواء كانت الموافقة حقيقية أم صورية في قوانين يتولى ديوان المكاتبات الملكية نشرها وأذاعتها. ولا يزال هذا الإجراء هو المعمول به في إنجلترا حتى العصر الحاضر، ما عدا إن إذاعة القوانين عن طريق «المطبعة الحكومية» حل محل إرساله إلى الأقاليم مختوماً بالخاتم الملكي. أما التنظيمات الصغرى فصدرت في صيغة منشورات جري إرسالها إلى نواب المقاطعات مختومة بختم الملك مع التعليمات بقراءتها علناً في الأيام المناسبة، كأيام الأسواق في المدن الكبيرة بالمقاطعة. وكان نشر القوانين وإعلانها على هذه الصورة في فرنسا ضرباً من تقييد السلطة الملكية، إذ أصبح من المحتم أن يجري تسجيل القوانين في البرلمان، وأتاح هذا الإجراء فرصة لرجال القانون بالبرلمان لتوجيه النقد للقانون المعروض للموافقة، أو الحصول أحياناً بطريق الاحتجاج على تعديله أو سحبه.

كان شارلمان كما كان أسلافه من الملوك الميروفنجيين القاضي الأعلى في الدولة، ويتضح ذلك من قول مؤرخه المؤرخ أينهارد، فقد أورد أن شارلمان كان يأذن لأصدقائه بالدخول عليه وهو يلبس نعليه أو يرتدي عباءته، بل إذا عرض عليه حـ ـب القصر قضية من اختصاصه فإنه يأمر بإحضار المتقاضين فوراً، ويستمع إلى القضية، ويصدر قراره فيها كأنه في مجلس الحكم، وإذا كان هذا هو الحال في بداية وأواسط العصور الوسطى، فإن الملوك المتأخرين جروا على النظر بأنفسهم في القضايا من حين لآخر، فجلس هنري الثالث ملك إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) للقضاء في المحكمة الملكية وفي محكمة دار الخزانة، كما إن المؤرخ جوانفيل Joinville يروي لنا إن لويس التاسع كثيراً ما كان يخرج بعد الصيد ويجلس مستنداً إلى شجرة في غابة فنسن Vincenne ويأمر رجاله بالجلوس حوله، ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب، ثم يفصل في القضايا بنفسه، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله، ولكنه كان يعطي كل شاك حق استئناف الحكم للملك نفسه.

ولم يكن الملك هو المصدر الوحيد للقضاء في العصور الوسطى، ذلك أنه رغم ندرة بقايا مجالس الحكم التي ترجع إلى القرون المتبربرة الأولى في أنحاء الإمبراطورية، فإن الفصل في القضاء ظل في أيدي الأحرار الذين تألفت منهم المحاكم الكارولنجية، حتى بعد إن غدا رجال الملك وموظفوه هم الذين يقومون بالإجراءات القضائية. وعندما أصبحت الوظائف وراثية، وزال الإشراف الملكي من أرجاء البلاد لم يعد القضاء ملكياً أو في أيدي الإحرار، بل أصبح في أيادي السادة الإقطاعيين، كما أصبح حق الاستئناف موضع الجدل والأخذ والرد.

واتخذ امتداد السلطة الملكية وقتذاك صوراً وأشكالاً مختلفة، كأن يقبل الملك استئناف بعض القضايا إليه، أو أن يعفي الأفراد أو الفئات من الخضوع للقضاء المحلي أو أن تختص محاكم الملك بالنظر في أنواع معينة من القضايا

ولا سيما القضايا الجنائية، أو أن يستعيد الملك، كما في إنجلترا، حق الإشراف على القضاء المحلي على يد قضاة الدوائر المدنية بالأقاليم. كل هذه الإجراءات انتهكها الإقطاعيون، وهم الذين كانوا حائلاً بين الملك والرعية. وهكذا كان قبول الملك استئناف القضايا مصدر متاعب كثيرة بين إنجلترا وفرنسا، كما أنه هيأ الفرصة لما أعلنه الملك الإنجليزي إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) من حرب على استكلندا، لأن عزل حنا باليول John Balliol عن العرش الإسكتلندي كان سببه استمرار قبول إدوارد الأول لقضايا الاستئناف من اسكتلندا. وكانت الإعفاءات من القضاء الملكي، وهي التي سميت باسم تحديد الاختصاص، من بواعث شكوى إدوارد الثالث في إقليم جيين Guienne - وكانت تعتبر قضايا خاصة -، ومن المواد الأساسية في العهد الأعظم مادة تنص على حماية محاكم البارونات.

الإدارة المحلية The Local Administration

إذا أردنا تفهم الإدارة المحلية قبل أن يسري إليها التخصص والتنوع فعلينا أن نرجع إلى زمن أقدم من زمن الإمبراطورية الكارولنجية ومركزيتها الناضجة. ذلك إن هذه النظم المحلية التي ترجع إلى مزيج بعضه روماني وبعضه إفرنجي، ورثت في الواقع نظماً سابقة وجعلت منها نظاماً واحداً متحداً. وفي هذا النظام كانت الكونتية هي الوحدة المألوفة للحكومة المحلية، والكونت هو الموظف الذي يتولى شؤونها، وهو نائب الملك في الشؤون الحربية والمالية والقضائية. والكونتية تقابل أحياناً الكونتية في غالة الرومانية، وأحياناً ما هو معروف عند الجرمان باسم (الجاو) Gau أي العشيرة، والقومص Comes الروماني وهو زميل الأسقف في إدارة قسمه ومدينته المركزية يقابل ما هو معروف عند الجرمان باسم (جراف) Graf.

ويتبين من ذلك أن الكونتية هي ما كان معروفاً عند الرومان باسم القسم ومدينته المركزية، وما هو معروف عند الجرمان باسم الحي. وامتاز الكونت بما له من حق الثلث في أرباح القضاء بين الناس. وفي إنجلترا كان الأيرل Earl الإنجليزي له هذا الحق الذي جرى الإصطلاح على تسميته «البنس الثالث في

الكونتية» وكان الأسقف صاحب السلطة العليا في الشؤون الروحية في الكونتية، وهو كبير القضاة في قضايا رجال الدين، كما كان الكونت كبير القضاة في قضايا العلمانيين، وعلى هذا النحو جلس الأيرل والأسقف في محكمة الكونتية زمن السكسون.

وفي المستويات الصغرى في التقسيمات الإدارية المحلية ترتب على تقسيم ما هو معروف باسم الجاو إلى أقسام مئينية (أضعاف المائة) إن صار لقب مئيني Hundredman أو سنتوري Centenarius في اللغة اللاتينية يطلق على فئة من صغار الموظفين الخاضعة سلطتهم - بغض النظر عن أصلها - لسلطة الكونت ولا تختلف عنها في طبيعتها.

كان هذا الأنموذج الكارولنجي، وهو جهاز للحكم يجري في انتقال السلطة بين ثلاث درجات، وهي الملك والكونت والمئيني. غير أن هذا الجهاز لم يلبث أن أصابه التعقيد لسببين: أولهما، استحالة السيطرة المباشرة للإمبراطور على هذا النظام، وثانيهما، منح أفراد من رجال الدين والعلمانيين امتيازات إعفائية من القانون. ويرجع السبب الثاني لهذه التعقيدات إلى العصر الميروفنجي أو ما قبله، وبلغت الحال إنه إذا حدث إن صار الأسقف أو رئيس الدير كونتا في الكونتية لم يكن في استطاعة الملك أن يتدخل في هذه الحالة، بأن يعين أحداً في وظيفة ما بالكونتية إلا بناء على سلطته في التدخل في الشؤون الكنيسية.

أما إذا كان للأسقف أو رئيس الدير أراضي في كونتيات مختلفة، أو في أقسام مئينية، وله في هذه الأراضي سلطة وولاية على مقطعية فلا تلبث أن تنشأ وحدة إدارية جديدة، برغم عدم اتصال أجزائها وتنهار بذلك وحدة الكونتية، ثم إن رجال هذه الوحدات الإدارية الجديدة لا يذهبون للحرب تحت راية الكونت، أو يلتمسون العدالة والقضاء في المحاكم العامة، فضلاً عن أنهم يتمتعون بالإعفاء من الضرائب. وكان المسؤول عن هذه الوحدة الإدارية الجديدة وامتيازاتها هذه، ملزماً بجميع الترتيبات اللازمة للإدارة الحربية والقضائية والمالية في هذه الوحدة الإقطاعية.

وقام الملك الإقطاعي بشؤون الإدارة المحلية في ضياعه الخاصة، أي دومينه الإقطاعي. ولذلك صارت السلطات المحلية في فرنسا منذ زمن هنري الأول Henry 1 ١٠٣١ - ١٠٦٠ م في يد الحجاب، وهم نواب الملك في إدارة أراضيه وضياعه الخاصة، وعملهم المعتاد إدارة التفاتيش الملكية. وقام كبار المقطعين بإدارة إقطاعاتهم على هذا النحو تماماً، مع اختلاف ألقاب الموظفين مثل الفيكونت Viconte في نورماندي. وهكذا غدت الإدارة في أرجاء فرنسا، ما عدا الجهات التي استقرت بها نظم المجالس البلدية، من اختصاص الملكيات الثابتة، بل إن العهود البلدية جنحت على هذا النحو، أي على أنها نوع من الملكية.

واسترشد الحجاب في قراراتهم بمجلس مؤلف من أربعة من العدول Goodmen ونفذ قراراتهم أعوان لهم، على أن مخالفات هؤلاء الأعوان ورؤسائهم من الحجاب أدي في القرن الثاني عشر إلى تعيين موظفين كبار يعرفون باسم الوكيل الملكي (البايلي) Bayle . وللوكيل هذا سلطة تصحيح الأخطاء ومراجعة القرارات. وفي جنوب فرنسا اتخذ هذا الموظف لقب سنشال Seneschal وحذا كبار الإقطاعيين حذو الملك وظلت أعمال أولئك الموظفين الكبار على حالها دون توضيح أو تحديد لاختصاصتها طوال العصور الوسطى، ولكن وظائفهم أخذت تنتقل بالتدريج إلى أيدي آخرين، فانتقلت أعمالهم القضائية إلى قضاة استئنافيين محترفين، وتحولت واجباتهم المالية إلى فئة من الجباة، كما صارت وظائفهم الحربية في أيدي العسكريين والحكام الإداريين.

ولم تكن الإدارة المحلية في إنجلترا إقطاعية تماماً إلا في تشستر Ches-ter ودرهام Durham تقريباً، مع العلم بأن الولاية الإدارية على المزارعين غير الأحرار فضلاً عن العرائض الخاصة بالملكية الزراعية، كانت كلها مرتبطة بامتلاك الأراضي، وظلت الكونتية هي الوحدة الإدارية. ولو أن الأيرل حل محل الوكيل الملكي في رياسة محكمة الكونتية، بسبب ما جري في القرن العاشر الميلادي من اجتماع كونتيات عديدة في يد أدواق. ومع إن أصل هذا الوكيل ليس معروفاً على وجه التحقيق، فيبدو من مسؤوليته عن أحوال ضياع الملك

بالكونتية أنه يقابل تقريباً الوكيل الملكي المعروف في فرنسا باسم البايلي، بما له من سلطة الإشراف على الحاجب. ثم إن الملك احتفظ بإشرافه على الإدارة المحلية عن طريقه، وكان في استطاعته دائماً فصله من عمله بسبب سوء السلوك أو عدم الكفاية، وفقد الوكيل الملكي في إنجلترا، مثل نظيره البايلي في فرنسا جانباً من اختصاصاته وأعماله تدريجياً، ولكن ذلك لم يتم فعلاً إلا في أواخر العصور الوسطى، ويلاحظ أن ظهور نظم جديدة أثناء تلك العصور لتصريف أعمال جديدة كان من المحتمل أن تقع في دائرة سلطات الوكيل الملكي.

وكان ديوان الخزانة هو الذي يتولى عن الحكومة المركزية هذا الإشراف المباشر على الإدارة المحلية، على حين قامت المحاكم المحلية بمباشرة أمور القضاء. ومع هذا وقعت مخالفات من حين إلى آخر، وتولى علاجها لجان خاصة كالتي تعرف باسم لجنة فحص أحوال الوكلاء الملكيين سنة ١١٧٠ م، وهي اللجنة التي ترتب عليها عزل معظم الوكلاء وقتذاك وتعيين آخرين بدلاً منهم. وبينما تظل وظائف الوكلاء الملكيين غير وراثية إلا في أحوال نادرة، صارت محاكم المئينات في كثير من الأحوال منذ زمن مبكر في أيدي هيئات دينية أو أفراد معينين، مع العلم بأن هذا لم يمس كثيراً ما للملك من سلطان، رغم أنه أدى في بعض الأحيان إلى تعطيل تنفيذ الدعوات الملكية. ولم تتأثر وحدة الكونتية إلا حين غدا لأصحاب المحاكم المئينية حق رد الدعوات الملكية والاتصال الفردي بديوان الخزانة.

وبالإضافة إلى البايلي في الأقسام المئينية إستخدام الوكيل الملكي فئة من الكتبة، وقام أحد هؤلاء بوظيفة الجابي، على حين قام الأعوان بتنفيذ أوامره. وظل الوكلاء الملكيين هم الرؤساء الفعليين للإدارة المحلية، مع تضاؤل أهميتهم تدريجياً، ومن الطبيعي أن يكون الإشراف على تعيينهم كالإشراف على المجلس الكبير، مسألة من المسائل التي كثر الجدل حولها بين الملوك والأحزاب المصلحة المتعاقبة. ومن الدليل على ذلك إن إنتخاب الوكلاء الملكيين كان من المطالب التي وردت في قرارات أكسفورد سنة

١٢٥٨، ووافق الملك عليها بصفة مؤقتة أكثر من مرة بعد هذا التاريخ، وحفل تاريخ البرلمان الإنجليزي بالقوانين التي تنظم سلوك واتجاه هؤلاء الوكلاء الملكيين.

الإدارة المالية The Financial Adminstration

تركزت الإدارة المالية بالمملكة الكارولنجية في ديوان الحاجب، الذي كانت وظيفته استلام ما يقدم للملك من الهدايا في أدوار انعقاد المجالس القومية والعمل على حفظها بالقصر. ومن الملاحظ أن هذه الهدايا كانت جانباً من الدخل الملكي وكانت معروفة بإنجلترا حتى زمن هنري الثاني، والراجح أنها هي الضريبة التي فرضها الأمراء على رعاياهم. وكانت وظيفة الحاجب تعتبر من وظائف الخدمة بالقصر إذ كان يتلقى الأوامر الملكية ويشارك في مسؤولية تدبير شؤون القصر. ويلغ الحاجب في مملكة آل كابيه بفرنسا من ارتفاع الشأن وشدة الهيبة ما جعله بعيداً عن الإدارة الفعلية، فقد تولى شؤونها موظف أقل مرتبة وحمل ألقاباً مختلفة، وهو الذي تولى مسئولية خازن بيت المال. على أن هذا الموظف أخذ يفقد أهميته تدريجياً حتى أصبح خازندار بالقصر، وأصبحت الشؤون المالية في أيدي فرسان الدوية Templars وأشرف على إدارتها هيئة من برلمان باريس، وهي هيئة ديوان النفقات. وعندما سقطت الداوية جري تعيين ثلاثة أو أربعة من موظفي الخزانة تحت إشراف هيئة ديوان النفقات، ولكن مهمتهم اقتصرت على تحصيل الأموال وصرفها ولم يكن لهم شأن بالإدارة المالية إطلاقاً.

وفي إنجلترا يمكن أن نميز بوضوح بين هيئة موظفي المالية التي ترجع بأصولها إلى وظيفة حاجب القصر زمن الكارولنجيين وبين مجلس الخزانة الذي يقارب ديوان النفقات في فرنسا. وإن كانت هيئة موظفي المالية فقدت أية صلة بحاجب القصر وضمت إليها رجلاً من رجال الدين وهو الخازن الذي شارك في مسؤولية تحصيل الأموال وإنفاقها والتأكد من جدوتها وذلك عندما حلت النقود محل الدفع العيني، وعندما تأسست دار مركزية لضرب النقود وجدت صلة

وثيقة بين هيئة موظفي المالية وبين دار الخزانة، لأن الملك اعتاد أن يرسل إلى دار ضرب النقود في طلب ما يتم ضربه من نقود، ولابد من رصد مصاريف أعمال الضرب لحساب أمين دار ضرب النقود في دفاتر دار الخزانة على أنها أموال أو ما يعادلها.

أما مجلس الخزانة Exchequer فكان في الأصل إحدى جلسات المجلس الملكي للنظر في الأمور المالية. وفي هذه الجلسة صار موظفو دار الخزانة من أعضاء المجلس.وجري الاصطلاح على تسميتهم باسم هيئة خزانة المتحصلات، أما مجلس الخزانة نفسه، وهو المعروف باسم الهيئة المالية العليا، فتألف من كبار موظفي الدولة والبارونات، وينظر في حساب الوكلاء الملكيين في الأقاليم وسائر حسابات المحاسبين. ثم لم يلبث كبار الموظفين باستثناء أمين الخزانة، إن اكتفوا بإرسال نواب عنهم إلى مجلس الخزانة. وغلب على هذا المجلس طابع التخصص.

تلك لمحة سريعة عن الإدارة المالية تعرضنا فيها إلى لمحات من النظام الفرنسي والإنجليزي، واستكمالاً لهذا الموضوع نوجز جانباً من الموارد المالية الملكية. والواقع إن موارد الملك المالية كانت أشبه بموارد إقطاعي من الإقطاعيين لا موارد دولة بالمعنى الحديث، فقد كان الملك في تلك العصور يعتبر من كبار الملاك ولم يكن بوسعه يعيش وأن يحافظ على مركزه بدون امتلاكه ضياعاً واسعة ملكية خاصة. ومن الدليل على ذلك إن ضعف الإمبراطورية الألمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي نشأ إلى حد كبير من انتقال معظم الضياع الإمبراطورية إلى أيدي الإقطاعيين. وفي تلك المرحلة الأولى من التطور الاقتصادي، حين كانت النقود نادرة وكان تحصيل الأموال من الضياع الملكية عينا لا نقداً، استحال على البلاط الملكي أن يظل مستقراً في مكان واحد لا يتغير.

ويلاحظ أن هذه التنقلات الملكية هيأت للملك فرصة استكمال السيطرة السياسية والقضائية على أرجاء المملكة، والأرجح إن هذه التنقلات ترجع أصلاً

إلى الحاجة إلى إستهلاك غلات الأرض قرب جهات إنتاجها. وهذا تفسير ما ورد في كتاب Domesday من قيام ضياع معينة بخدمة الضيافة الملكية ليلة أو أكثر، وهي الخدمة التي تحولت فيما بعد إلى ضريبة تقديرية. ومن الضرائب المتصلة بضرائب الأرض، رسوم القضاء، لأن المحكمة المئينية المحلية إرتبطت بالضياع التابعة لها واعتبرتها جزءاً من مواردها، وتنتقل معها من يد إلى أخرى بمعنى إذا انتقلت الأرض إلى مالك آخر أديت رسوم القضاء للمالك الجديد.

ولما كان الملك هو الحامي الرئيسي للكنيسة فقد إستطاع أن يجمع ما تغله أملاك الكنيسة في فترات شعور الأسقفيات ورؤساء الأديرة من رؤسائها، كما تمكن أيضاً باعتباره الرئيس الإقطاعي الأعلى من أن يستولي لنفسه على جميع ما يتركه الإقطاعيون الذين لا ورثة لهم. وفي ألمانيا جري تقييد هذا المورد المالي، فقد اشترط كبار الإقطاعيين في الإمبراطورية ضرورة إعادة منح هذه الأراضي إلى أحد الإقطاعيين الجدد وذلك في مدة لا تزيد عن سنة ويوم فقط. يضاف إلى ذلك أيضاً من الموارد المالية الملكية ما كان يتقاضاه الملك من إكرامية من ورثة الإقطاعي المتوفي عند قبول هؤلاء الورثة لإقطاعات آبائهم، ومن الأوصياء على الإقطاعيين القصر حتى بلوغهم السن القانونية. وفيما يتعلق بالأراضي التي لا وريث لها وتضم إلى أملاك الملك، فقد جري في إنجلترا تعيين موظفين يمكن تسميتهم بالمصطلح العربي باسم مباشري المواريث العشرية لإدارة ما يأتي بهذه الطريقة من الأراضي إلى أيدي الملك.

ومن الموارد المالية أيضاً ما كان يطلبه الملك من الإقطاعيين من هبات لافتداء الملك عند وقوعه في الأسر، وعند تنصيب الإبن الأكبر للملك فارساً، وعند زواج ابنته الكبرى. ولم يختص الملوك فقط بهذه الحقوق والمقررات الإقطاعية بل فرضها أيضاً السادة الإقطاعيون على أتباعهم. أما الحقوق والمقررات الإقطاعية التي اختص بها الملوك فهي إبدال النقد بالخدمة العسكرية وإقامة الاستحكامات العسكرية، وإصلاح الطرق والجسور فضلاً عن العوايد والمكوس ورسوم المواني التي كانت تجبي في أول أمرها عينا.

وفيما يتعلق بالحقوق الملكية في مناجم الذهب والفضة والملح فلم تكن عامة في جميع البلاد. ومن المصادر الهامة للملك أيضاً وأوفرها ربحاً كان حق صك النقود سواء سمح لبعض الأفراد المحليين بضرب النقود مع فرض مقررات مقابل هذا السماح أو التصريح، أو أقام داراً رئيسية لضرب النقود وتقاضي رسوماً على ما يجلب إليها من خامات فضلاً عن نفقات الضرب. ويكمل قائمة هذه المواد الملكية بيع الامتيازات، ورسوم المحاكم ورسوم الخاتم الملكي وهي الموارد التي يستطيع الملك أن يعيش من إيراداتها في أزمان السلم.

أما الضرائب أو المطالب الاستثنائية فشرع الملك من أجلها، من حين إلى آخر، على فرض ضريبة طارئة على مقطعية غير الأحرار، أو على أهل المدن الواقعة في ضياعه الخاصة، أو على اليهود الذين عاشوا بأرضه على مبدأ السماح واعتبرهم العرف وقتذاك كأنهم متاع شخصي.

ولم يكن باستطاعة الملك أن يتجاوز هذه الحدود قانوناً إلا بموافقة رعيته، مع ضرورة إعلان الأسباب الملحة التي تؤدي إلى ذلك، مثل الدفاع عن المملكة. وفي فرنسا أقيم لهذا الغرض ديوان خاص عرف باسم ديوان المساعدات المالية، وهو الديوان الذي أنشأه مجلس طبقات الأمة لتنظيم تقرير الضرائب، وصرفها في الأغراض التي فرضت من أجلها. وكانت الضرائب التي يحصل عليها الملك بهذه الطريقة من أنواع مختلفة وهي: ضريبة المنقولات، وضريبة الأرض، ويدخل فيها مال الدفاع عن البلاد، ومال الأراضي الزراعية، ثم ضريبة الصادرات وضريبة الرأس والاحتكارات المؤقتة.

و يتضح نمو الحكم المطلق جلياً في العصور الوسطى من أمرين متلازمين وهما:

أ ـ تحول الضرائب المؤقتة إلى ضرائب دائمة.

ب ـ إقامة جيش ثابت من حصيلة هذه الضرائب، بدلاً من الجيوش الإقطاعية.

الجيش Army

سبق أن أشرنا إلى إن الجيش الإقليمي قد تولى قيادته الملك بنفسه أو ابنه،

أو تابع اشتهر بإخلاصه. وظل حاجب القصر هو الذي يتولى قيادة النجيش حتى أيام ملوك فرنسا الأولين، على حين تولى الكونت قيادة الجيش المحلي، ولم تقتصر قيادته على الجند الأحرار بإقليمه بل اشتملت كذلك على جند الجهات المتمتعة بالامتيازات في الإقليم، مع العلم بأنهم انضووا تحت قيادة سيدهم أو نائبه. أما فرسان الجيش الكارولنجي فجاء بهم أرباب الإقطاعات الشخصية الجديدة، إذ كان ما يؤدونه من خدمة عسكرية ثمناً لإقطاعاتهم الشخصية مدى الحياة، ثم ما لبثت هذه الإقطاعات أن أصبحت إقطاعات وراثية. ذلك إنه ما دامت التنظيمات الاقتصادية ناقصة في تلك العصور فإن الوسيلة الوحيدة لإنشاء جيش من الجند الخيالة لمواجهة الأخطار الخارجية هي منح الأراضي للقادرين على الحضور بجيادهم إلى ميادين القتال.

وبفضل إزدياد الجيوش الراكبة منذ القرن العاشر الميلادي وما بعده صار للكندسطبل Constable والمارشال Marshal، وهما من موظفي الإسطبلات الملكية مكانة في قيادة الجيش الإقطاعي، الذي أصبح عماد الجيش النظامي، ومع إن الفروسية غدت أواخر العصور الوسطى مرتبة لا مهنة، فلم تكن طبقة الفرسان في أول أمرها على الأقل قاصرة على ما اعتبرهم القانون أحـرار. ولـذا يمكن القول بأن الجيش الإقطاعي تألف من فئات صغيرة من الفرسان تخدم كل منها أربعين يوماً دفعة واحدة بقيادة السيد الإقطاعي، ولم يكن لهذا الجيش أهمية كبيرة في العمليات الحربية التي تستغرق زمناً طويلاً نظراً لقصر مدة الخدمة، وامتناع بعض الفرسان عن تأدية الخدمة العسكرية المطلوبة.

ولما كان من العسير تجريد الفارس من أرضه التي يحوزها، لذلك لجأ الملوك في إنجلترا على سبيل المثال إلى فرض بدل نقدي يوازي أجر فارس لتأدية الخدمة الإجبارية المقررة، وهذه الضريبة هي المعروفة بالبدل. كما أن الملوك تقاضوا أيضاً غرامة نقدية مقابل الامتناع عن الحضور للحرب دون سبب مقبول. ولما كان حشد الجيش من أعمال الكندسطبل وحاجب الإسطبلات الملكية فقد حصلت ضرائب البدل بناء على شهادتهم. وكان للبارونات الذين

أدوا الخدمة العسكرية أن يجبوا البدل من إتباعهم الذين تخلفوا عن الذهاب معهم إلى ميدان القتال.

وفيما يتعلق بالجيش القومي القديم الذي قام أصلاً لأغراض دفاعية فإنه ظل موجوداً رغم قيام الجيش الإقطاعي. ومن الأدلة على ذلك وجود قوانين مثل قانون السلاح الذي يتطلب أن يحرز كل رجل من الأسلحة والعتاد ما يتناسب مع مقدرته المالية. ويتصل بهذا القانون اتصالاً وثيقاً ما هو معروف من القاعدة التي تقضي بإلزام كل شخص يمتلك من الأراضي ما يزيد قيمتها على قدر معين من المال بأن يقبل مرتبة الفروسية، وهذه القاعدة جري تقييدها في إنجلترا في مراحل عديدة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي. ومن الملاحظ إن العقد الإقطاعي لم يلغ حق الملك في دعوة رعيته للدفاع عن البلاد، فقد دعا ملك فرنسا رعيته للقتال، كما أصدر ملك إنجلترا أمراً إلى النائب الملكي بالأقاليم لجمع الرجال، أو عيّن مندوبين لاختيار نسبة معينة منهم. ورغم هذا كله لم يعد الجيش الإقطاعي والجيش القومي قوة كافية في القرن الرابع عشر الميلادي.

واعتمدت الحروب مرة بعد أخرى على جند مأجورة يتولى جمعها قادة محترفون وفقاً لعقود واضحة. وهذه هي بداية التنظيم العسكري الذي يجعل الكولونيل Colonel مسؤولاً إسمياً عن تأليف الأورطة الحربية Horde الحديثة والإنفاق عليها. وكانت النتيجة المباشرة لهذا التنظيم هي قيام جيوش من المأجورين (المرتزقة) Mercenaries . وهي التي قدمت ولاء مشوباً بالقلق، لأن معظم هؤلاء المرتزقة كان من المسجونين، يضاف إلى ذلك إن هؤلاء المرتزقة كانوا ينضمون إلى الجانب الآخر أثناء المعركة نظراً لما يبذل إليهم من مال.

البحرية Navy

لم تبلغ البحرية في العصور الوسطى ما بلغه الجيش من التنظيم، إلا في بعض الحالات مثل البحرية الاسبتارية التي كانت السلاح الهجوي لهذه الهيئة وجرت العادة في إنشاء البحرية في تلك العصور أن تطلب الدولة من المدن

البحرية إقراضها سفينة أو أكثر، أو الإستيلاء على السفن التجارية الراسية في مختلف مواني الدولة لمدة معينة. وحملت هذه السفن أنواع الجند المختلفة في الحملات العسكرية خاصة الحملات الصليبية. واشرف الكتبة الملكيون على تجهيز هذه السفن واعدادها على نسق ما حدث في إعداد الجيش.

وفيما يتعلق بتأجير السفن لإعداد أسطول لنقل الجنود نجد على سبيل المثال أن المدن التجارية في ايطاليا أمثال جنوه، بيزا، والبندقية وأمالفي كانت تشترط عند استخدام سفنها في الحملات الصليبية أن يكون لها امتيازات تجارية أو أحياء كاملة في الأراضي التي يتم فتحها مثلما حدث في الحملة الصليبية الأولى على الشام، كما إن بعض قواد الحملات الصليبية مثل لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ ـ ١١٨٠ م) وكونراد الثالث ملك ألمانيا (١١٣٨ ـ ١١٥٢ م) اللذان قادا الحملة الصليبية الثانية قد فضلا القدوم براً عن الإبحار في سفن صقلية نظراً لأطماع روجر الثاني ملك صقلية (١١٢٩ ـ ١١٥٤ م) في الشام ولاعتبارات سياسية أخرى. أما ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك إنجلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩ م) عندما أبحر إلى فلسطين مع الحملة الصليبية الثالثة، فقد عمد إلى اتخاذ إجراء استثنائي بأن اشترى نصيب النصف في كل السفن التي اشتركت في الحملة. بينما نجد أن البندقية قد استغلت الحملة الصليبية بأكملها التي أعدت لغزو مصر وأبحرت بها إلى القسطنطينية وهاجمتها وأسقطتها، وتمزقت الإمبراطورية البيزنطية منذ عام ١٤٠٢ م حتى أعيدت وحدتها مرة أخرى في ١٢٦١ م. أما الحال في الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت مصر عام ١٢١٨ ـ ٢٢١ م نجد أن المدن التجارية التي ساعدت في نقل جنود الحملة من أوروبا إلى الشام ثم إلى مصر تعارض في عقد الصلح بين الصليبيين والمسلمين لما في ذلك من أضرار اقتصادية بالمدن التجارية التي كانت تتطلع إلى استكمال غزو مصر والسيطرة على مواردها. وتلك لمحة سريعة عن النتائج التي ترتبت على عدم امتلاك الدول للأساطيل البحرية.

الفصل الثالث

النظام الإقطاعي

- نشأة الإقطاع
- العبيد
- الأقنان
- القرية الإقطاعية
- النمو والنضج الإقطاعي
- الدومين والبارون
- الملكية الإقطاعية
- التشريع الإقطاعي
- حروب الإقطاع
- الفروسية

النظام الإقطاعي

لم يكن العصر الوسيط عصراً منفصلاً عن العصور التي سبقه أو لحقه ، فمنذ بداية العالم والعصور تلاحق بعضها البعض في عملية نمو بطء يتدرج فيه المجتمع الإنساني من مرحلة إلى أخرى لأسباب عديدة . ولما كان العصر الإقطاعي مرحلة من مراحل تاريخ العصور الوسطى فالحكم نفسه ينطبق عليه، بمعنى أن العصر الإقطاعي ليس منفصلاً عما سبقه أو لحقه من عصور، وهو طور من أطوار النمو الذي تدرجت فيه البشرية. ومرحلة الإقطاع في أوروبا بلغت مداها في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، وليس معنى ذلك إن الإقطاع بدأ في مطلع القرن التاسع وانتهى بنهاية القرن العاشر، فالتطور إلى المجتمع الإقطاعي ليس بالحادثة التي يحددها زمن معين مثل معركة أو تنصيب ملكاً على العرش، إنما كما قلنا هو عملية تطور تدريجي من مرحلة يعتذر تحديدها حتى يصل إلى مرحلة النضج .

نشأة الإقطاع

بعد انهيار الإمبراطور الرومانية في غرب أوروبا واجتياح البرابرة الجرمان لغرب أوروبا تغير المجتمع الأوروبي تغيراً أساسياً، وإن كان بطيئاً، كان له أثره الكبير على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية. ومن جراء الهجرات الجرمانية إلى جوف أوروبا أصبحت مدن أوروبا غير آمنة على نفسها، ولذلك انتقل أعيان المدن إلى قصورهم في الريف وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم وأعوانهم ، وكان على رأس هؤلاء الأعوان الفلاحين والعسكريين، ومن

هنا قامت وحدات اقتصادية دفاعية شبه مستقلة في الريف، يضاف إلى ذلك تواجد بعض الأديرة التي كان رهبانها يزرعون الأرض ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية. ومن جراء الغارات الجرمانية أيضاً أن الطرق لم تعد صالحة لما أصابها من التخريب أو الإهمال فتوقف تبادل السلع بين المدن فكسدت التجارة واضمحلت الصناعة وقلت إيرادات الدولة وعجزت الحكومة المركزية عن الوفاء بالتزاماتها تجاه الشعب. ومع عدم إمكان الاتصال بين المدن والقرى سعى الأعيان إلى الاكتفاء الذاتي داخل القرية وبدأت الضياع تصنع العديد من البضائع التي كانت تشتريها من المدينة، وأصبح أعيان الريف يعيشون عيشة الترف، وكونوا أرستقراطية إقطاعية، وتطور الحال وأصبح للأعيان محاكمهم الخاصة وجيوشهم للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم..

وبعد ما أقام الجرمان دولاً في غرب أوروبا مثل الدولة الميروفنجية التي أسسها الملك كلوفيس Clovis (٤٨٢ - ٥١١ م) ودولة القوط الشرقيون في إيطاليا بقيادة ملكها ثيودريك Theuderic (٤٩٣ - ٥٢٦ م) على سبيل المثال نجد أن الملوك الميروفنجيين ومن بعدهم الملوك الكارولنجيين أخذوا يؤجرون أو يمنحون قوادهم وموظفيهم مساحات من الأرض أصبحت شبه مستقلة ووراثية لهؤلاء القواد أو الموظفين بسبب ضعف هؤلاء الملوك، وأيضاً بسبب غارات المسلمين والنورمان وعجز الحكومات المركزية عن حماية بعض الأراضي خاصة النائية منها.

ومن هنا أقام هؤلاء الأعيان الذين يطلق عليهم البارونات بالإضافة إلى الأساقفة أو رؤساء الأديرة نظاماً محلياً في المناطقة الخاصة بهم، كما أقاموا محاكم خاصة للفصل في المنازعات، هذا بالإضافة إلى نظام عسكري للدفاع عن أراضيهم. واجتاحت القرية إلى الفرسان لمواجهة الفرسان الذين يهاجمونها، ولذلك تشكل جهاز المدافعين عن القرية من كل من يملك حصاناً، وأصبح هؤلاء الفرسان طبقة وسطى بين الفلاحين والبارونات. وقد تقبل الأهالي هذا النظام عن طيب خاطر طالما أصبح هذا النظام هو الكفيل بحمايتهم مما يحيط بهم من أخطار. وقد واكب هذه العملية قيام الفلاحين ببناء منازلهم بالقرب من قصر

البارون الحصين أو الدير المنيع، وقدموا ولاءهم وخدماتهم إلى الإقطاعي الذي بسط حمايته عليهم. ويجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الناس الذين خضعوا للسادة: الإقطاعيين كانوا رجالاً أحراراً لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم، فعرضوا جهودهم على رجل قوي نظير حمايتهم وإطعامهم. وكان من عادة السادة الإقطاعيين أن يمنحوا أتباعهم قطعة من الأرض بعقد لفلاحتها ولهؤلاء السادة استرداد هذه الأرض متى شاءوا. وهكذا كان الإقطاع هو خضوع الفرد اقتصادياً وعسكرياً إلى رجل أرفع منه منزلة مقابل الحماية العسكرية، داخل تنظيم اقتصادي عمادة القرية.

وعلى ذلك يمكن القول أن الإقطاع هو مرحلة واقعية فرضتها الحوادث على المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، وكان الدافع إلى قيام هذا النظام هو الاستعاضة عن الحكومات المركزية البعيدة عن مجتمع القرية، بالإضافة إلى حاجة القرية إلى الأمن والاستقرار التي عجزت عن تقديمه الحكومات المركزية لضعفها. ومن الملاحظ أن هذا النظام لم ينشأ في جميع بلاد أوروبا في وقت واحد، ومن هنا جاء اختلاف النظام الإقطاعي بين بلدان أوروبا وإن كان بينهما جميعاً تشابه عام.

وكان المجتمع الإقطاعي يتكون من العبيد، ورقيق الأرض والأحرار. والأحرار هم البارونات ورجال الدين والجنود النظاميين ومعظم التجار والصناع وأصحاب المهن، وأخيراً الفلاحين الذين يملكون أرضاً ولا يرتبطون بأي سيد إقطاعي إلا قليلاً. وكان هؤلاء الأحرار من القلة بحيث لم يتجاوز عددهم ربع الأهالي في أوروبا الغربية.

العبيد

كانت كلمة Servus اللاتينية تطلق على رقيق الأرض والعبيد ولكن هذا اللفظ تطور مع مضي الزمن وتحول إلى كلمة Serf لتقابل رقيق الأرض وكلمة Slave أي العبد. وكان معظم العبيد في أوروبا يتكونون من أسرى المسلمين أو الصقالبة، أو من الصبيان الصغار وكذلك البنات الذين يتم خطتهم من البلاد

الإسلامية أو اليونان أو البلاد الممتدة على سواحل آسيا الغربية والبحر الأسود وشمال إفريقيا. وكان يتم بيع هؤلاء للعمل في الزراعة أو الخدمة المنزلية أو غير ذلك.

ولقد راجت تجارة العبيد في إيطاليا بصفة خاصة، ولعل ذلك مرجعة إلى تقارب إيطاليا من بلاد اليونان والبلاد الإسلامية في حوض البحر المتوسط والأندلس. وكان هؤلاء التجار يقومون بهذا العمل وهم مرتاحو الضمير باعتبار أن هذا العمل يعتبر انتقاماً عادلاً لغارات المسلمين على الأراضي المسيحية. وإذا كان هذا المفهوم قد ساء التجار الإيطاليين في بداية الأمر، فإن جشع التجار قد دفعهم إلى بيع آلاف الأطفال المسيحيين الذين كونوا حملة الأطفال في عام ١٢١٢ م إلى البلاد الإسلامية في الشام ومصر وشمال إفريقيا. وراجت هذه التجارة في الشرق كثيراً وهو ما عرف باسم المملوك.

والحقيقة إن نظام التعامل مع العبيد هو نظام قديم وليس وليد العصور الوسطى. وفي ظل نظام العصور الوسطى ساعدت نظم الكنيسة على إباحة استرقاق المسلمين والوثنيين، وإن كانت قد حرمت بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين. وإذا كان البابا جريجوري الأول Gregory I (٥٩٠ ـ ٦٠٤) قد أعتق إثنين من عبيده وقال أن للناس جميعاً الحق الطبيعي في الحرية، إلا أنه ظل يستخدم المئات من العبيد في ضياع البابوية، كما أنه حرم على العبيد أن يصبحوا رجال دين أو يتزوجوا من نساء مسيحيات أحرار. ولكن استرقاق الكنيسة للعبيد قد انتهى تقريباً مع نهاية القرن الحادي عشر. وكان الأرقاء الذين يعملون في الضياع البابوية يحرمون لمن توريث ما يملكونه لأحد بل كان ما يملكونه يصبح ملكاً للكنيسة.

ومما شجع على الاسترقاق داخل أوروبا أن بعض الفلاسفة أمثال توماس الأكويني قد فسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم، وأنه وسيلة اقتصادية في محيط يكد فيه البعض ليمكنوا الآخرين من الدفاع عنهم.

ورغم هذا كله فقد تطورت عملية الاسترقاق وأخذت في الاضمحلال

بسبب التطورات الاقتصادية، فقد اتضح للجميع أن الإنسان الذي يعمل تحت العبودية أقل إنتاجاً من الإنسان الذي يعمل في ظل الحرية. ومن هنا اضمحل نظام الاسترقاق وأن احتفظ السادة بعبيدهم بعد أن حرروهم للعمل في ضياعهم.

الأقنان

الأقنان أو عبيد الأرض، ومفرد الأقنان (قن) وهو الرجل الفلاح الذي يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه أو يملكها له السيد الإقطاعي، وكان هذا القن يمتلك هذه الأرض أو تؤجر له مدى الحياة مقابل أن يمنحه السيد الإقطاعي حمايته العسكرية، وفي نظير ذلك يؤدي له القن أجراً سنوياً من الغلال أو العمل أو المال. والقن مربوط إلى هذه الأرض ولا يملك حرية الانتقال منها وللمالك أن يطردوه منها متى شاء، وإذا مات هذا القن فلا تنتقل قطعة الأرض إلى ورثته إلا بموافقة السيد الإقطاعي.

وإذا كانت هذه الأسس الرئيسية التي تقام عليها العلامة بين السيد الإقطاعي والقن فهناك روابط أخرى تربط القن بالسيد الإقطاعي وبالأرض الممنوحة له. فمن المعروف أيضاً أنه إذا تزوج القن أو رزق بمولود فعليه أن يؤدي مبلغاً معيناً رمزاً لتبعيته للسيد الإقطاعي. كما أن القن كان من السلعة يباع ويشتري حسبما يري السيد الإقطاعي.

والحقيقة أنه رغم هذه الروابط التي تبدو قاسية، فإن القن نفسه لم يفضل ترك الأرض لأنها المورد الوحيد لكسب عيشه، وإذا انتقل إلى إقطاعي آخر فالحال كماهو، لذلك فضل القن البقاء في وسط مجموعة وأرض ولد وتربى فيها وعمل بها. كما لم يكن من السهل أيضاً على السيد الإقطاعي أن يطرد أقنانه من الأرض لأن هذه الأرض سوف تصبح عديمة الفائدة إذا لم يوجد من يفلحها، والأرض هي التي تمد السيد الإقطاعي بالغلال وبالمال والأقنان هم الذين يفلحون أرضه الخاصة ويقدمونُ له الخدمات الأخرى.

ولما كانت المنافع متبادلة بين السيد الإقطاعي والقن،فإن جماعات الأقنان

عاشت في الأرض الممنوحة لهم أجيالاً بعد أخرى دون طرد أو حرمان. وهناك نقطة أخرى تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، وهي أنه إذا كان من المعترف به أن القن يباع ويشترى. فالمتفق عليها أن القن كان يباع ويشترى مع الأرض نفسها. بمعنى أن الإقطاعي إذا أراد بيع أرضه فإن الأرض تباع بمن عليها من الأقنان، وتشبه هذه الحالة حال الشركة التي تباع فإن ملكية الشركة وما بها من عمال تنتقل إلى المشتري الجديد. وليس في ذلك دفاعاً عن الإقطاع ولكنه تشبيه على سبيل المثال. والواقع إنه من الأفضل للسيد الإقطاعي الجديد أن يشتري الأرض وما عليها من الأقنان الذين خبروها وأصلحوها وأفلحوها وبإمكانهم التعامل معها بكل سهولة.

ويمكن القول على ضوء ما سبق أن علاقة القن بالسيد الإقطاعي كانت ذات شقين فهي تبعية اقتصادية وعبودية شخصية. ولكن هذا المفهوم تغير مع الزمن حيث أصبح من الجائز أن يكون هناك إرتباط شخصي فقط بين القن والسيد الإقطاعي دون أن يكون لدى القن أي قطعة من أرض السيد الإقطاعي. وأصبح القن الذي يرتبط بالأرض منفصلاً عن القن الذي يؤدي واجبات معينة للسيد الإقطاعي مثل الحراسة أو العمل في مخبز السيد الإقطاعي أو طاحونته أو غير ذلك من الأعمال المرتبطة بالزراعة.

ولقد استمر حال الأقنان على هذه الحالة حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ثم تطورت الأحوال وإن كان تطوراً بطيئاً، فقد أصبح بالإمكان أن يحرر القن نفسه مقابل دفع مبلغاً من المال، أو إذا أطلق السيد الإقطاعي سبيله. وقد وجدت عوامل ساعدت على تحرير الأقنان، فقد جدت أراضي كثيراً صالحة للزراعة بعد ردم المستنقعات أو إزالة بعض الغابات. وكان السادة الذين تولوا أمر هذه الأرض الجديدة يقدمون مغريات كثيرة للأقنان الراغبين في الانتقال إلى الأرض الجديدة، ومن هنا انحلت التبعية الجامدة بين الأقنان والسيد الإقطاعي، مع الأخذ في الاعتبار أن الحالة الجديدة لم تشمل كل الأقنان بل ظلت جهات كثيرة تسير طبقاً للأوضاع القديمة من الجمود والظلم حتى بداية التاريخ الحديث.

وحتى نتفهم الحالة الواقعية للأقنان فيجدر بنا أن نعدد الواجبات الإقطاعية التي كان على الأقنان أن يؤدوها للسيد الإقطاعي ومن أهم هذه الواجبات :-

كان القن يؤدي بعض الضرائب النقدية كل عام هي ضريبة الرأس، وهي ضريبة صغيرة تدفع للسيد الإقطاعي ويؤديها بدورة إلى الحكومة. وضريبة أخرى هي نفقة يقررها السيد الإقطاعي مرة أو أكثر في العام وتدفع في الوقت الذي يحدده.

وعلى القن أن يدفع كل عام جزءاً من غلاته وماشيته تصل إلى حدود العشر، كما يفرض على القن أن يعمل لدى السيد الإقطاعي بعض أيام السنة مسخراً بدون أجر، وكانت هذه الأيام تصل إلى حوالي ثلاثة أيام في الأسبوع في معظم أيام العام، وكان القن في هذه الأيام يقوم بالأعمال العامة مثل إقامة الجسور أو تقطيع أشجار الغابات أو تجفيف المستنقعات، وكان عدد هذه الأيام يزيد أيام مواسم الحرث أو الحصاد، ويلاحظ أن هذه السخرة كانت تفرض على رجل واحد في الأسرة الواحدة، ومن المسلم به إن على القن أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ويعصر نبيذه عند السيد الإقطاعي مقابل مبلغ محدود، وإذا اقتضى الأمر وكان للقن قضية فعليه أن يرفعها أمام محكمة السيد الإقطاعي مقابل رسوم معينة تختلف حب نوع القضية. وعلى القن أن ينضم فوراً إلى جنود السيد الإقطاعي إذا ما طلب منه ذلك. وكان القن يجامل السيد الإقطاعي بالهدايا القيمة إذا أصبح ابن السيد الإقطاعي فارساً، وإذا قام القن ببيع بعض ما يزيد عنده، فعليه أن يقدم للسيد الإقطاعي ضريبة مقابل ذلك، ويلاحظ أنه لم يسمح للأقنان ببيع ما يفيض منهم إلا بعد ما يفرغ السيد الإقطاعي من بيع ما عنده بأسبوعين، وعلى القن أن يدفع غرامة معينة إذا أرسل ابنه للمدرسة أو ليلتحق بالكنيسة لأن الضيعة سوف تخسر هذه القوة البشرية.

وليس في المستطاع في هذه الصفحات إحصاء كل الواجبات التي فرضت على الأقنان وإن اختلفت من كان إلى آخر، فقد كانت هناك الكثير من الفروض التي أثقلت كاهل الأقنان في العصور الوسطى. ويمكن القول إن رقيق

الأرض في هذه العصور قد عانوا الكثير من البؤس والحرمان. ورغم هذا كله فقد ظل الأقنان حتى القرن الثالث عشر ينظرون إلى السيد الإقطاعي نظره إعجاب وربما نظرة الحب في بعض الأحيان باعتباره المدافع الأول عنهم ضد أخطار الزمان.

ومن أشهر ما عاناه الأقنان حرب الوراثة التي تقع على الأرض إذا مات صاحبها دون ابن أو إبنة، لذلك كان الأقنان يلحون على سيدهم بالزواج إذا ماتت زوجته حتى لا يتعرضون لمثل هذه الحروب.

وإذا ألقينا نظرة على الحياة العامة للفلاح نكون قد أوضحنا صورة كافية عن حياة الأقنان في تلك المرحلة، وبداية نقول أن الفلاح كان يسكن كوخاً من الخشب يعلوه سقف كان من الخشب غالباً، ولذلك إذا اشتعلت النار في أحد الأكواخ أتت عليه تماماً. وكان هذا الكوخ يتكون من غرفة واحدة وربما كان من إثنين ليس أكثر. وبداخل هذا الكوخ وجدت حشية كبيرة على الأرض لينام عليها القن وأسرته. وبعض الأدوات المنزلية التي تفي بغرض الحياة. وكانت الخنازير والدواجن تعيش في الفناء الممتد أمام المنزل، وبالقرب من هذا الكوخ كان يوجد فناء مسور للأبقار والخيول.

أما عن ملابس القن أو الفلاح فقد كان قميصاً من القماش أو جلد الحيوان وعليه سترة من الصوف أو من الجلد وسروالاً، ويضع في قدميه حذاء عالياً أو نصف عالياً. وكان القن وزوجته يكدحان من بزوغ الشمس حتى غروبها. ورغم هذا كله فقد كان هذا القن لا يعتبر نفسه مظلوماً مغلوباً على أمره، بل تصور نفسه بطلاً يفلح الأرض، قوياً صبوراً، وإنه يتحمل كل هذا من أجل حياته وحياة أسرته وحياة السيد الإقطاعي والآخرين الذين يعيشون حوله.

وعاش الفلاح على طعام كان كافياً ومغذياً، يتكون من البيض ومنتجات الألبان والخضر وبعض اللحوم والخبز الأسود، وعاش مع أقرانه في القرية حياتهم البسيطة يجتمعون في المناسبات وأيام الأعياد والآحاد في ساحة القرية أو الكنيسة. وعلينا أيضاً أن نعرف أنه كان أمياً غير مثقف ليس لديه معرفة عن

شيء سوى الزراعة وأعمال القرية التي تكفل له الحياة التي اقتنع بها. لذلك سيطرت عليه الخرافات، ولكنه كان مقتنعاً بأن الموت أن لا ريب فيه. فقد كان مهدداً إما بحريق أو قحط أو مجاعة تأتي على كوخه أو حيواناته أو مزروعاته مثلما حدث في فرنسا بين عامي ٩٧٠ - ١١٠٠ م من القحط الذي هلك الزرع والنسل، وكما حدث في إنجلترا في الفترة من ١٠٨٦ - ١١٢٥ م حتى اضطر الأهالي إلى أكل الخيول. ولذلك كان هذا الفلاح أو القن جلفاً عنيفاً شرهاً قاسياً.

القرية الإقطاعية

تكونت القرية الإقطاعية من مجموعة من الفلاحين بعضها من الأقنان والبعض الآخر من أنصاف الأحرار والأحرار. وكان هؤلاء الفلاحين يبنون أكواخهم حول قصر أو قلعة السيد الإقطاعي للاحتماء به، لذلك كانت هذه الأكواخ متقاربة من بعضها داخل أسوار القرية من أجل الأمان. وكان داخل هذه القرية بالإضافة إلى الفلاحين بعض العاملين لدى السيد الإقطاعي ويسألون أمامه. وكانت شخصية العمدة من الأهمية داخل القرية فهو الذي ينسق نشاط الفلاحين الزراعي ويتم اختياره بمعرفة الفلاحين، وهو الذي يتوسط بين الفلاحين والسيد الإقطاعي إذا لزم الأمر.

وكان هؤلاء الفلاحين يلتقون في سوق القرية في فترات محددة لتبادل ما فاض منهم من السلع، وبذلك عملت القرية على الاكتفاء الذاتي بين الناس. فقد كان الفلاح ينتج بنفسه ما يحتاجه من الخضر واللحم، وكان يغزل صوفه أو كتانه بنفسه أو بمساعده أفراد أسرته. كما كانت بعض الأعمال التي تخصص فيها أحد عمال القرية مثل الحداد ودابغ الجلود والنجار الذي يصنع أثاث المنزل والأكواخ وصانع العربات والقصار والصباغ والبناء والسروجي وصانع الأحذية وغير ذلك من الأشياء التي يحتاجها المنزل القروي على فترات متباعدة.

وقامت القرية الإقطاعية أساساً على الزراعة، وكانت أرض قرية العصور الوسطى الصالحة للزراعة تقسم إلى ثلاثة أقسام، يترك أحدها للراحة ولا يزرع

أما القسمان الآخران فقد كان أحدهما يزرع شعيراً أو شوفاناً والآخر يزرع قمحاً أو شيلماً. ثم يتم تقسيم كل قسم من الذي سيزرع إلى مساحات صغيرة يفصل بينهما شريط غير مزرع. وتولى موظفو القرية تسليم كل قطعة أو أكثر إلى أحد الفلاحين لزراعتها طبقاً للخطة الموضوعة، وكان الفلاحون جميعاً يتولون العملية الزراعية من حرث وبذر ورعاية وحصاد متعاونين قانعين بهذه الحياة. وبالإضافة إلى ذلك، فإذا ما فرغ الفلاحون من هذه الأعمال أو ربما أثناءها أن يقوموا بقطع الأشجار ورعى الماشية، وجمع الكلأ. وكان تسميد الأرض يتم بحرق بقايا النبات والأعشاب الضارة.

وكان عدد من الفلاحين يساهمون في شراء محراث واحد أو زحافة لاستخدامها في أغراض الزراعة وذلك لعدم وجود قدرة شرائية لدى كل فلاح لشراء ما يحتاجه من مثل هذه الأدوات. واستخدم الثور كحيوان لجر هذه الأدوات باعتباره أقل نفقة من الحصان، ثم تطور الأمر واستخدم الحصان بعد ما صنعت الأطواق الجلدية التي ساعدته على الجر دون مشقة حتى أنه كان يحرث في اليوم أضعاف ما يحرثه الثور. وقد استفاد الأوروبيون من المسلمين وأدخلوا السواقي في العمليات الزراعية.

واعتبرت الكنيسة أن العمل يوم الآحاد يعتبر إثماً كبيراً، لذلك انتظر الفلاحون يوم الأحد للترفيه عن أنفسهم. وكان هؤلاء الفلاحين يبدأون هذا اليوم بالصلاة في كنيسة القرية ثم ينطلقون للغناء والرقص، والألعاب الرياضية مثل كرة القدم والمصارعة والهوكي أو رفع الأثقال. كما تسلي الفلاحون بمشاهدة مصارعة الديوك أو الثيران. ومن المشاهد المألوفة في القرية في العطلات وضع أوزة أو دجاجة في منطقة مغلقة ثم يقوم رجلان معصوبا العينين بمحاولة قتلها بالعصي. وتزاور الفلاحون لبعض الوقت في الأمسيات تناولوا فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مسراتهم.

وبهذا الصراع والكد المتواصل أطعم هؤلاء الفلاحين أنفسهم وأوروبا كلها بما عليها من السادة الإقطاعيين والجنود العاملين ورجال الدين، ووسعوا نطاق الحضارة بما اكتسبوه من معرفة أتت إليهم من المسلمين، وإن ما نراه الآن

في أوروبا الحديثة هو من جهدهم وكدهم وعرقهم بل ومن دمائهم. فكانت معركة طويلة احتاجت إلى صبر وأناة شارك فيها الفلاح وزوجته وأولاده. ويضاف إلى هؤلاء الفلاحين جماعات الرهبان الذين أقاموا أديرتهم في أراض نائية ثم ما لبثوا أن زرعوا ما حولها ودافعوا عنها بالحرب في بعض الأوقات، وأقاموا المدارس داخل هذه الأديرة، ونسخوا المخطوطات، فأضافوا إلى ما قام به الفلاحون عملاً حضارياً خدم البشرية كلها في المراحل اللاحقة.

النمو والنضج الإقطاعي

استغرقت عملية النمو الإقطاعي حوالي قرنين من الزمان هما القرنين التاسع والعاشر الميلادي وذلك وسط اضطرابات اجتماعية واسعة وأحداث سياسية صاخبة، والمعروف أن هذا النظام نتج عن عوامل كثيرة أهمها حركة التطور العام نحو اللامركزية، وإن هذه الحركة صاحبت مرحلة انهيار الإمبراطور الرومانية في غرب أوروبا وتدفق العناصر الجرمانية على أوروبا وسيطرتهم على بعض الأقاليم والاستقرار بها.

وفي ختام هذه الحركة التي يمكن الإشارة إليها بسقوط دولة اللمبارد في إيطاليا على يد شارلمان عام ٧٧٤ م، نجد أن شارلمان هذا قد وضع في بداية الدولة الكارولنجية ما ساعد على نمو العملية الإقطاعية، وبمعنى آخر أن الدولة الكارولنجية لم تتمكن من القضاء على فكره المحلية وإنما ما أمكنها القيام به هو وقف بناء التطور نحو المحلية في مرحلة قصيرة ولعله في البداية. ولكن ما قام به شارلمان من تفويض للسلطة المركزية لنوابه في الأقاليم كان مما مهد السبيل إلى المحلية مرة أخرى. وليس ذلك فحسب بل أن نظام الوراثة الذي سار عليه الملوك الكارولنجيين والذي ينص على تقسيم الدولة بين أولادهم من بعدهم، كما أن براءات الإعفاء، التي جعلت بعض الأراضي بعيدة عن التدخل المركزي في الأعمال المالية والقضائية، وعلاوة على ذلك فإن ما عرف لدى أيام شارلمان من نظام المبعوثين الملكيين يدل في باطنه على ضعف السلطة المركزية. يضاف، إلى ذلك أنه بعد وفاة شارلمان عجزت الدولة المركزية

عن اتخاذ سياسة مركزية ضد غارات أهل الشمال على أراضي الإمبراطورية الكارولنجية.

وإذا كان شارلمان قد حاول جاهداً فرض السلطة المركزية على البلاد، فإنه بعد وفاة شارلمان وما أعقبه من إهمال مستمر في الإدارة المركزية بالإضافة إلى اشتداد غـــارات أهل الشمال في الشمـال والمسلمين في الجنوب على جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا كان كافياً بل دافعاً لتثبيت دعائم الحكم الإقطاعي في مراحل لاحقة وهي مراحل النضج الإقطاعي.

وتمت عملية النضج الإقطاعي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، حيث نلاحظ أن الحكومة المركزية أصبحت شبه معدومة، وأن ولاء الناس قد تحول من الحكومات المركزية إلى بعض النبلاء المحليين، بعد فشل قيام الحكومات المركزية بدور ملحوظ في الدفاع أو لخدمة المواطنين. وهؤلاء النبلاء المحليين هم الذين تحملوا عبء المسؤولية في الأراضي التي كانت تحت أيديهم، ومن ذلك قيام أودو Odo كونت باريس بالدفاع عن المدينة عندما هاجمها الشمـاليون في عـامي ٨٨٦ ـ ٨٨٧ م، وعجز الملك شـارل السمين (٨٨٤ ـ ٨٨٧ م) عن الدفاع عن المدينة.

وفي هذه المرحلة أيضاً نجد امتلاك الأرض أصبح مصاحباً لحق امتلاك الحكم والسلطان فاندمجت الأرض بالسلطان، وقامت العلاقات بين صاحب الأرض ومن يعيش على هـذه الأرض، وارتبط العلاقـات بتعهدات مشتـركـة والتزامات متبادلة بين الطرفين حتى صارت هذه التعهدات هي القـاعدة التي سارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الأمن والحياة. ومن ذلك يتضح أن نظاماً وسطاً، وهو النظام الإقطاعي قد قام بين الحكومة المركزية واللامركزية، لأن النظام الملكي ظل باقياً في وضع هزيل لا يمكنه من مواجهة الأحداث.

ويوضح ذلك ما ذكره أحد المؤرخين عندما وصف الإقطاع، فقد ذكر أن الأرض هي أساس المجتمع الإقطاعي، فالذي يمتلك أرضاً أصبح له الحق في الحكم والسلطان حسب ما تحت يده من أراضي. ويلاحظ أن هذا الـوصف

ينطبق على مرحلة ذروة النظام الإقطاعي، أما في مراحل النمو فقد صارت العلاقة السائدة في تلك المرحلة هي نوع من العلاقات الشخصية التي تنشأ بين القوي وهو صاحب الأرض والضعيف وهو الفلاح أو ما يماثله.

وفي عصر اكتمال النظام الإقطاعي أصبح المجتمع كله على شكل هرم قمته الإمبراطور أو الملك ويليه إلى أسفل كبار البارونات أو الأفصال ثم يلي هؤلاء جماعة أقل نفوذاً وهكذا حتى نصل إلى أسفل القاعدة حيث العبيد والأقنان. ويلاحظ أن هذا التنظيم لم يبدأ من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى بل تكون جميعه معاً حتى أصبح الجسد الإقطاعي مستقيم الأجزاء، ونشأ عصر من الأستقراطية مالكة الأرض دام إلى عصر الانقلاب الصناعي وإلى ما بعده في بعض المناطق الأوروبية.

الدومين والبارون

يرى البعض أنه ليس هناك فارق بين الدومين والبارون، لأن الكلمة اللاتينية Dominuis تعني السيد المالك، ولما كان هذا السيد المالك قد أطلق عليه أسماء مختلفة في أنحاء أوروبا منها السيد Lord والأيرل Earl وتعني المستشار في إنجلترا، والنبيل أو البارون Baron أو الدوج Doge. فمعنى ذلك أن كل هذه الألقاب لا تبعد كثيراً عن كلمة السيد المالك في درجات مختلفة. ولكن ما تم التعارف عليه هو أن كلمة الدومين أصبحت تعني ما تحت يد السيد الإقطاعي من أراضي، وقد تكون قطعة واحد أو عدد من القطع مبعثرة هنا وهناك في مسافات يتمكن السيد الإقطاعي من السيطرة عليها.

والمهم هنا أن البارون أو مالك الأرض كان يتحمل ثلاث مهام رئيسة، أولاً، أن يوفر كافة وسائل الدفاع العسكري عن الأراضي التي يملكها وما عليها من الأهالي. ثانياً، أن ينظم ويهتم بكافة الشؤون الزراعة والصناعية والتجارية في المنطقة التي يمتلكها. ثالثاً، أن يكون في خدمة سيده الأعلى منه مرتبة في درجات السلم الإقطاعي. وإذا كانت هناك واجبات تجاه الفلاحين للسيد الإقطاعي وهي ما سبق أن ذكرناها مثل استخدام معاصر وافران السيد المالك

وغير ذلك فإن بعض الملاك كان رحيماً وعامل رجاله معاملة طيبة ولم يثقل عليهم في الواجبات الملقاة على كاهلهم، بل أن البعض أيضاً كان يفتح أبواب قلعته أو قصره للفقراء أيام الأعياد لإطعامهم، كما اهتم كثيراً بكافة الأمور التي من شأنها زيادة منتجات الأرض بما يحقق ذلك فائضاً للمالك وأهل القرية، ويرجع ذلك كله إلى شعور المالك بمصالحة الاقتصادية التي انعكست بدورها على الجميع.

وكان للمالك أيضاً سلطات قضائية وعسكرية في أراضيه، وكانت هذه المحاكم تتكون من قضاه كانوا من أرقاء الأرض، ولذلك لم تكن هذه المحاكم ظالمة بالصورة التي يمكن أن نتخيلها عن العصور الوسطى، فإن الوثائق تشير إلى لجوء رقيق الأرض لهذه المحاكم لانصافهم حتى يمكن القول أن هذه المحاكم أعطت هؤلاء الأرقاء مزيداً من الحريات وإن كانت بطيئة حتى حررت في النهاية كل رقيق الأرض، بالإضافة إلى عوامل أخرى.

ولما كان للسيد الإقطاعي أن يمتلك قطعة من الأرض يمكن أن نطلق عليها الضيعة أو القرية أو يمتلك أكثر من قرية، فقد كان يعين وكيلاً يشرف على هذه القرى كلها، وكان يعين في كل قرية ناظر أو مأمور. وكان السيد الإقطاعي نفسه يقيم في قصر أو قلعة، ويحيط بهذا القصر أو القلعة خندق عريض عميق يملأ بالماء إذا لزم الأمر، ويقام جسر متحرك لربط القلعة أو القصر بالناحية الأخرى. وكان هذا المسكن محاط بسور تقع داخله الأسطبلات والمخازن والمخبز ومساكن الخدم وكنيسة صغيرة وغير ذلك من لوازم الحياة. وفي حالة الخطر يسرع سكان القرية إلى داخل هذا السور لطلب الحماية.

وكان الحصن أو البرج الذي يتخذه السيد الإقطاعي سكناً له مكوناً من ثلاثة طوابق، ولكنه كان مظلماً خاصة في الشتاء قليل النوافذ، يضاء بالمشاعل أو الشموع. وكان كل طابق عادة عبارة عن غرفة واحدة. وكان الطابق الثاني هو الطابق الرئيسي حيث تعقد محكمة السيد الإقطاعي في القاعة الرئيسة، وبعد أعمال المحكمة تتحول القاعة إلى غرفة طعام. ويلحق بهذه القاعة غرفة واحدة لجلوس الأسرة ونومها عندما يحين وقت النوم، توضع حشيات عن الأرض أو على أسرة منخفضة،

وكـان يفصل بين أفـراد الأسرة حـواجز أو ستـائر، كمـا استحدثت الستـائـر لحماية أفراد الأسرة من التيـارات الهوائية. واستخدم سكان المنزل المواقد لتدفئة المكان في الشتاء.

وارتدى السيد الإقطاعي جلباباً من الحرير الملون في أغلب الأحيان، وقد زين هذا الجلباب بالرسوم الهندسية أو البنائية، وتحت هذا الجلباب ارتدى سروالاً قصيراً وحذاء طويل، ووضع على كتفيه حرملة يمكن رفعها إلى رأسه لوقايته من المطر، وفي وسطه وجد حزام ربط به سيفه. ثم اتخذ هؤلاء الملاك بعد ذلك من الأشكال والرموز وهي التي عرفت باسم الرنوك وهي رموز تدل على مكانتهم وجماعة الفرسان المرتبطين به.

ومن واجبات هذا المالك الاستيقاظ مبكراً حيث يصعد إلى برجه ليتفقد ما حول ضيعته أو قريته فربما كان يحيط بها خطر، وبعد أن يطمأن إلى عدم وجود ما يعكر صفوه يتناول أفطاره ثم يـذهب للصلاة. وبعـد ذلك يبـدأ في الطواف في القرية للإشراف وإصدار الأوامر. وبعد ما يفرغ من هذه الأعمال يعود إلى منزله حيث المحكمة أن كان لديها عمل واستقبال الزوار ومن لهم مشكلة أو عابري سبيل. وكان الجميع تقريباً ينامون في وقت مبكر. ولم يغير من هذا العمل اليومي سوى أعمال الصيد وألعاب الفروسية.

وتعددت واجبات زوجة المالك الإقطاعي، فكانت تلدله الأنباء وتربيهم وفضل الولد من أجل الوراثة، كما كانت ترعى شؤون المنزل وتـوجه الخـدم وتضربهـم إذا لزم الأمر، وتشرف على أعمال المخبز والمغسل، وعلى أعمال منتجات الألبان كالزبد والجبن، وعلى أعمال حفظ اللحوم وأعمال الحيـاكة والتطريز وغير ذلك من الأعمال المنزلية.

وحلت الزوجة محل زوجها في كافة أعماله إذا خرج للحرب أو سافر في مهمات رسمية، وكانت تمده من القرية بكل ما يلزم وسائل الحرب. وإذا وقع في الأسر عليها جمع فديته أو بيع بعض مصوغاتها أو كلها إذا لزم الأمر. وإذا توفي الملك دون وريـث ذكر أصبحت الزوجة سيدة الضيعة. وفي هذه الحالة

كان أهل القرية يشجعونها على الزواج من سيد آخر ليتولى أمورهم، وتدخل السيد الأعلى للزوج المتوفي لترشيح بعض القادرين للزواج من هذه الأرملة. وتزينت سيدة المالك الإقطاعي في أوقات فراغها وارتدت الثياب الحريرية وغطت رأسها بغطاء جميل حتى تشيع البهجة داخل المنزل.

وكان ابن المالك الإقطاعي يرسل وهو في حوالي السابعة إلى بيت إقطاعي آخر ليكون وصيفاً له ويعلمه الأدب والطاعة والأخلاق الطيبة وطريقة ارتداء الملابس وعادات الفرسان وتقاليدهم. كما يتولى قسيس الضيعة الجديدة تعليم هؤلاء الأبناء شيئاً من القراءة والكتابة والحساب. أما البنات فقد تعلمن شؤون المنزل وأعمال الفنون والعناية بالضيوف بالإضافة إلى القراءة والكتابة ويستمعن إلى بعض القصاصين والمغنيين في أوقات الفراغ.

وتواجد عدد من الأفصال في بيت المالك الإقطاعي، والأفصال هم ملاك إقطاعيين أو فرسان يكونون أدنى مرتبة من المالك الرئيسي، وكان هؤلاء الأفصال ينالون شرف خدمة السيد الإقطاعي في الأعمال العسكرية أو الشخصية دون أن يكون لهم أرض. وكان هؤلاء الأفصال يؤدون مراسم الولاء للسيد الإقطاعي، وكانت هذه المراسم تتم بأن يركع الفصل وهو أعزل عارى الرأس ويضع يديه في يدي السيد الإقطاعي ويعلن الفصل أنه تابع للسيد الإقطاعي مع الاحتفاظ بحريته، ثم يرفع السيد الإقطاعي الفصل من يده ويقبله ويمنحه رمزاً لهذه التبعية مثل العصا أو الحربة أو القفاز. وقد يقطع هذا المالك فصله قطعة من الأرض ليتولى أمرها.

وكان من حق هذا الفصل أن يمنح قطعة من الأرض التي يحوزها إلى فصل آخر أو لعدد من الأفصال مع الاحتفاظ بولائه الكامل لسيده الأعلى مانحه الأرض، وهكذا إذا اعتبرنا أن الملك أو الإمبراطور هو السيد الإقطاعي الأعلى فتتعدد الأفصال حتى نصل إلى القاعدة. ويلاحظ أن الرابطة بين هؤلاء الأفصال لم تكن الرابطة الاقتصادية هي الأساس، بل كانت الرابطة العسكرية هي القاعدة. وهكذا كان الإقطاع نظاماً قوياً قوامه الأخلاق الطيبة في ظل مجتمع

معرض للخطر فارتبط برباط عماده تبادل الواجبات والحقوق في نسيج من الحماية والإخلاص.

ولم يقتصر الأمر على رجال الدنيا في امتلاك الضياع بل كان مالك الضيعة في بعض الأوقات من الأساقفة أو رؤساء الأديرة. وكان الملك هو الذي يعين رجال الدين هؤلاء، وقد أقسم من امتلك أرضاً من الأساقفة ورؤساء الأديرة للملك يمين الولاء والطاعة مثل غيرهم من السادة الإقطاعيين. وقد سك هؤلاء العملة ورأسوا محاكم الأسقفيات والأديرة، وقاموا بواجباتهم الإقطاعية مثل الخدمة العسكرية والإشراف على الأراضي الزراعية.

وتميزت الإقطاعات الدينية هذه بأنها كانت تنال حظها من أموال العشور التي تجبي في أراضيهم، كما نالت هذه الإقطاعيات الكثير من المعونات من الملوك والإشراف، وكانت هذه المعونات في شكل هبات من الأرض، فزادت هذه المعونات من مساحات الأراضي الإقطاعية، مثل الأراضي التي امتلكها دير فولدا Fulda، ورقين الأرض في دير سانت جول St. Gall. وعلى ذلك يمكن القول أن الكنيسة في داخل الممالك كانت جزء لا يتجزأ من النظام الإقطاعي نفسه، وأصبحت منظمة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية، وقد أدى هذا بالتالي إلى ازدواجية ولاء رجال الدين وهو الولاء الموزع بين البابوية والملكية الأمر الذي أدى إلى الصراع بين البابوية والملكية أو الإمبراطورية وهو الصراع أو المشكلة التي عرفت باسم التقليد العلماني Lay Investiture.

الملكية الإقطاعية

كان الملك على رأس النظام الإقطاعي، فالملك هو صاحب السيادة على جميع الإقطاعيين سواء كانوا من النبلاء أو رجال الدين. وبموجب إحدى النظريات التي سادت العصور الوسطى كان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله، وإنه كان يحكم بموجب حق التفويض الإلهي سواء ارتقى عرشه بالوراثة أو الانتخاب. ورغم هذا كله فإن كبار الإقطاعيين في الدولة كانوا يعتبرون أن الملك ما هو إلا إقطاعياً مثلهم وأنه لا يعدو أن يكون هذا الملك ممثلاً لهم.

وكانت سيادة هذا الملك لا تتعدى حدود أملاكه الإقطاعية. أما في الأراضي الأخرى فكانت السيادة بيد الإقطاعي الذي يملكها، وكان سكان هذه الأراضي يدينون لسيدهم الإقطاعي بالولاء والطاعة مباشرة. وترتب ذلك أن قوة الملك كانت صغيرة لا تتعدى حدود أرضه وأن الدولة في النظام الإقطاعي لم تتعد دومين الملك نفسه.

ولم يقتصر الأمر عند هذه المرحلة، فقد كان الملك يضطر إلى منح جزء من أرضه لأحد الرجال الأقوياء ليكسب معونته ومساعدته، وهكذا تقلصت أرض الملك رويداً رويداً. وعلى سبيل المثال فإن ما تبقى من الأراضي لملوك فرنسا في بعض المراحل الإقطاعية كان قليلاً وجعلهم ضعفاء، ولم يعد لهم على اتباعهم من السيادة التي تؤمنهم على عروشهم مثلما حدث في نهاية الدولة الميروفنجية وتسيد نظار القصور على مقدرات الدولة، ثم خلع هؤلاء الملوك من عروشهم.

ومثلما حدث في نهاية الدولة الميروفنجية حدث أيضاً في نهاية الدولة الكارولنجية فقد ذهب هذا التقسيم في غاله إلى حد بعيد، لأن الملوك الكارولنجيين قسموا أملاك الدولة بين أبنائهم، فإذا أضفنا إلى هذا التقسيم وما ينتج عنه من ضعف للسلطة المركزية، هجمات العناصر الشمالية الذي حدث في فرنسا باعتبارها أشد الهجمات على أوروبا كلها، أدركنا مدى الضعف الذي انتاب السلطة المركزية.

وعلى أية حال فقد كان الملك في ظل النظام الإقطاعي هو إقطاعي مثل بقية الإقطاعيين ولم يتميز عنهم إلا أنه كان صاحب المقام الأول بين هؤلاء الإقطاعيين. وأنه كان إقطاعياً يعيش على موارد أرضه ويعتمد في الحرب والسلم على المعونة التي يتلقاها من أتباعه وهي الخدمة لمدة أربعين يوماً في الأعمال العسكرية كل عام.

وفي ذروة النظام الإقطاعي لم يكن لدى الملك من القوة للتدخل في الإقطاعيات الأخرى، لذلك قام هؤلاء الأتباع بإنشاء المحاكم وأقسام الشرطة،

ودور سك النقود التي أصدرت العملة باسم هؤلاء الأتباع. وعجز الملك عن إيقاف الحروب التي نشبت بين هؤلاء الأتباع، أو التدخل في المعاهدات التي عقدوها من تلقاء أنفسهم، وزاد عجز الملك حتى أنه لم يعد بوسعه أن يرسل موظفيه أو رجال الضرائب إلى أراضي هؤلاء الأتباع. وكلما زاد عجز الملوك وضعفت سلطاتهم كلما زاد الإقطاع قوة.،

والعكس أيضاً صحيح، فإذا ضعف الإقطاع قويت السلطة الملكية، وهناك عوامل عديدة ساعدت على ضعف النظام الإقطاعي، منها متطلبات النظام الاقتصادي والاجتماعي والعسكري، وعجز الأتباع عن حفظ النظام فيما بينهم حيث سادت الحروب الإقطاعية. فإذا أضفنا إلى هذا كله الإفراط في الحرية حتى اختلت الحياة في جميع صورها، لذلك نادى الكثير بأن تقوم الحكومة المركزية محل الإقطاع.

وقد ساعد على هدم النظام الإقطاعي وتقوية الحكومة المركزية أيضاً أن المجتمع الأوروبي قد أوجد طبقه من التجار والصناع غير راضية عن النظم الإقطاعية وضرائبها المتعددة، بالإضافة إلى أخطار نقل البضائع داخل البلاد وخارجها. وقد تحالفت هذه الطبقة الجديدة مع الملك ضد النظام الإقطاعي ونشأ من هذه الطبقات مجتمعات جديدة في مدن جديدة ساعد الملوك على إقامتها، وقد أمدت هذه الطبقات الملك بالمال لتأييد سلطاته في داخل الدولة، وهرب العديد من الأقنان والعبيد من قراهم والتحقوا بهذه المدن رغم النظم التي تقضي بإعادة الآبقين إلى قراهم. وكان هروب هؤلاء سبباً في تخفيف السادة الإقطاعيين الواجبات الملقاة على كاهلهم، وأخيراً آمن هؤلاء الإقطاعيين أن الإنتاج في ظل الحرية أكبر بكثير من الإنتاج في ظل العبودية.

وساعدت الكنيسة في بعض المراحل على تقوية السلطةالمركزية، ومن ذلك أن رجال الدين الإقطاعيين كانوا أوفياء للملك، كما أن تعامل البابوات مع الملوك في معظم الأوقات كان أيسر بكثير من تعاملهم مع الإقطاعيين. ومن القوة الجديدة التي ساندت الملكية استطاع الملوك تقوية حكومتهم المركزية

شيئاً فشيئاً وتولى أولادهم السلطة من بعدهم بالوراثة بعد أن بدأبالانتخاب. وكان المتبع مع الملوك هو قيامهم بتتويج إبناً لهم أو أخاً قبل وفاتهم. وبسبب ما عاناه الأهالي من النظم الإقطاعية أرتضوا بالملكية الوراثية بدلاً من الفوضى الإقطاعية.

وكان التحول من النظام الإقطاعي إلى النظام المركزي شديد الوطأة على الإقطاعيين فقاوموا هذا التحول بكل قوة، ولكن الملوك خففوا مرارة هذا التحول بمنح الألقاب والامتيازات إلى كبار الإقطاعيين ليعوضوهم عما فقدوه من نفوذ. ومن ذلك ما قام به الملك أوتو الأول Otto I في ألمانيا عندما نجح في إقناع الأدواق بأن يؤلفوا حاشية كبيرة له في حفل التتويج الذي أقيم له في مدينة إكس لا شابل Aix – la – Chapelle وهو الحفل الذي توج فيه الملك أوتو على يد هيلدبرت Hildbert رئيس أساقفة المدينة، وتحولت قلاع الأعيان أو قصورهم إلى مراكز يقدمون فيها الخدمات الرسمية للملك. وأرسل هؤلاء الأعيان أولادهم إلى قصر الملك ـ لا إلى قصر إقطاعي آخر ـ ليخدموا الملك أو الملكة وليتعلموا آداب القصور والبلاط.

وبفضل هذا التحول الكبير الذي أدى إلى زيادة موارد الملك بصفة مطردة. تمكن الملك من السيطرة شيئاً فشيئاً على كافة الأراضي، واستعان ملوك فرنسا برجال القانون الذين ساندوا القوة المركزية وقضوا على النفوذ الإقطاعي، وقد استعانت بهم الملكية في إعادة المركزية إلى الدولة وبسط السلطان القضائي على كافة المملكة، وفي النهاية تمكن الملك من انتزاع ولاء كافة الإقطاعيين بصفة ملكاً لا بصفته كبير الإقطاعيين.

التشريع الإقطاعي

كان للبارون جميع الحقوق القضائية في إقطاعه، ولا يستطيع الملك أن يتدخل في شؤون الإقطاعية دون موافقة البارون، كما كان البارون بدوره لا يستطيع أن يتدخل في أرض تابع له دون موافقة هذا التابع. ومن هنا نشأت جميع تشريعات الإقطاع. وعلى ذلك فالتابع كان من حقه التشريع، وللبارون

أيضاً، والملك، إذا ما وافق البارون والتابع على تشريعات الملك، أو وافق التابع على تشريعات البارون. واستناداً إلى هـذا المبدأ العـام قامت جميـع التشريعات الإقطاعية الخارجة عن صميم سلطة التابع في صورة قانون يصدر عن محكمة السيد الأعلى بموافقة أتباعه صراحة أو ضمناً. ويلاحظ أن الهيئات التشريعية لم تكن من الناحية التاريخية وليدة اجتماعات إقطاعية فحسب، بل كانت بقايا مجالس شعبية أقدم منها.

وكان العرف والقانون في نظام الحكم الإقطاعي شيئاً واحد، وعندما تعقد المحكمة وكان قضاتها عادة من الأميين وثارت قضية ما ووجب على القضاة تحديد نوع العقوبة يسأل القضاة أكبر الأعضاء سناً عما اتبع في مثل هذه الحالة من قبل، فإن وجد مثال لذلك طبقة القضاة، وفي حالة عدم وجود سابقة استمع القضاة لأوامر الملك أو الشريف ولهم أن يوافقوا عليها أو يعترضوا. وليس معنى ذلك خلو أوروبا العصور الوسطى من القوانين،فقد كانت بعض الأماكن تطبق القوانين الرومانية الموروثـة مثلما حدث في جنوب فرنسا.

وفي شمال فرنسا حيث كان الفرنجة وذروة الإقطاع سارت شرائع الفرنجة القديمة. وتطلب توحيد القوانين في دولة ما صـراع كبير بين الـطبقات حتى توصلت إنجلترا على سبيل المثال في عام ١٢٩٥ م عندما عقد البرلمان المثالي وقرر مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً.

ولما كانت الأرض عماد النظام الإقطاعي، فقد كان القانون الإقطاعي قاسياً في عقاب من يعتدون على حقوق هذه الأرض. ومن هذه العقوبات ما كان في ألمانيا ما ينص على عقاب من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التي تمسك أحد الجسور، بشق بطنه ونزع أمعاءه ووضعها مكان اللحاء. وظل في وستفاليا حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي قانوناً يقضي بأن يدفن في الأرض كل من يزيل أحد معالم حدود الأرض، ويجري حرث الأرض وللرجل الدفين إنقاذ نفسه إذا أمكن.

وكانت محاكم القرى تنظر في القضايا التي تقام بين مستأجر وآخر، أو بين السيد الإقطاعي والمستأجر. أما القضايا التي كانت تقع بين السيد الإقطاعي وتابع له (فصل) أو بين سيد إقطاعي وآخر فقد كانت تعرض على محلفين لا يقلون منزله عن مقدم الشكوي. وإذا ما جري استئناف قضية فكانت تنظر أمام محكمة الملك المكونة من الأعيان. وإذا ما خسر أحد الشاكين قضيته فكان يعاقب بنفس العقوبة التي كان من المفروض أن تقع على الخصم إذا ما كسب القضية. أما القضايا الخاصة برجال الدين فكانت تنظر في محاكم الأسقفيات أو محاكم الأديرة.

وتعددت العقوبات في المجتمع وكانت قاسية كقسوة الإقطاع ونظمه، فكان منها التحكيم الإلّهي، والاقتتال أو المبارزة، والسجن، والصلب، والرجم، والجلوس على كرسي الاعتراف، والعمل بالسخرة في السفن، وبتر الأعضاء، والنفي، وقطع الرأس.

وكان التحكيم الإلّهي من العقوبات التي استمرت طوال عهد الإقطاع تقريباً، ومن التحكيم الإلّهي مرور المتهم وسط كتلة من النيران فإن مر بسلام كان بريئاً، أو يربط المتهم في كرسي ويلقي به في أحد الأنهار فإن نجا وخلص نفسه كان بريئاً، واستجد الاختبار بالحديد المحمى للمارقين على الدين فإذا أمسك المتهم بقطعة من الحديد المحمى وأصيب بحروق كان متهماً ويعاقب بالحرق. ولكن الناس كرهت مثل هذه العقوبة وبموجب قرارات مجلى اللاتيران الكنسي Lateran Council الذي عقد في روما عام ١٢١٥ م تحت رئاسة البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) إلغى هذا العقاب ، وعملت بذلك إنجلترا منذ عام ١٢١٩ ، ولكنه ظل في أجزاء متفرقة في أوروبا حتى القرن السادس عشر. ومن الذين عوقبوا بهذا التحكيم عام ١٤٩٨ م الراهب والمصلح الديني الإيطالي سافونارولا Savonarola الذي شن حملة على الفساد الأخلاقي الذي ساد الكنيسة الأوروبية في عصره.

والاقتتال أو المبارزة عادة جرمانية قديمة ولكنها سادت العصر الإقطاعي وقد ظلت هذه العادة في إنجلترا النورماندية. وكان الاقتتـال أو المبارزة تتم بالسيف على ظهور الخيـل أو على الأرض، وربما تكسـرت السيوف وقتلت الخيول أو فقداها المتبارزان فيتم الاقتتال بالأيدي ربما حتى الموت. وفي مرحلة متقدمة من العصور الوسطى فرضت القيود على هذه العادة وذلك بـالحصول على موافقة المدعي عليه، وكان من حق المدعي عليه أن يرفض المبارزة إذا أثبت أنه لم يكن في مكان الجريمة وقت وقوعها، ولم يكن بوسع أحد أن يبارز إلا فرداً مساويـاً له في مـرتبته، مـع إعفاء المـرضى وأصحاب العـاهات من المبارزة، وكان من حق المحكمة المعنية أن تمنع أية مبارزة. وجرت العادة أيضاً اختيار البعض لأشخاص غيرهم ليبارزوا بدلاً منهم، وكان هؤلاء البدلاء من الإبطال المأجورين.

وكان هؤلاء المأجـورين يعلنون بأنهم على استعـداد للمبارزة بـدلاً من الآخرين بعد إلقاء القفار على الأرض. ولما كان هذا التحول يحط من شأن المحاكمة نفسها لأن شخصية المبارزين أصبح لا علاقة لها بالقضية نفسها فقد حرم البابا أنوسنت الثالث في مجلس اللاتيران الكنسي هذه العادة التي ترجع في أصولها إلى حق الناس في الثأر لأنفسهم بعيداً عن القانون، فربما يقتل إنسان في هذه المبارزة بسبب شيء تافه يستحق الغرامة وإن تعددت شكل الغرامات في هذه المرحلة.

وكان السجن من العقوبـات المتبعة في العصـور الوسـطى، ورغم أن السجن نفسه كان عذاباً للمسجـون لما في السجن من حشـرات، فقد كـان السجن أيضاً يتم لعزل المتخاصمين. واستخدم الصلب للرجال والنساء وكان الصلب يتم في أحد الساحات حتى يكون المصلوب هدفاً لسخرية الناس من المذنبين. ومن العقوبات المتعلقة بالسخرية أيضاً رجم المجرم بالحجارة أو بالطعام الفاسد إذا كان جرمه أقل.

واستخدم كرس الاعتراف في بعض الجرائم خاصة للنساء الساقطات

أو الثرثارين أو أصحاب الشائعات، وفي مثل هذه الحالات كان المذنب يربط في كرسي ثم يلقي بالكرسي والمذنب معاً في مجرى أحد الأنهار أو البحيرات أو برك الماء، فإذا استطاع أن ينجو بنفسه كان بريئاً.

واستفاد مجتمع الإقطاع من المذنبين الإصحاء الأشرار فقد كان يحكم عليهم بالعمل في السفن، حيث يرغمون على التجديف وهم عراة، فإذا توقفوا كان الجلد بالسوط أو الضرب بالعصا عقاباً لهم.

وكان بتر الأعضاء من العقوبات المألوفة في المجتمع الإقطاعي، فكان قطع اليدين أو القدمان أو صلم الأذن، أو جدع الأنف أو سمل العينين من الوسائل التي استخدمت لعقاب المجرمين، ليكون المجرم عبرة للآخرين.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الكي بالنار برمز ما يدل على اقتراف الفرد على جريمة ما، كما استخدم حرق اللسان، والعقاب بالنفي في جريمة القتل أو السرقة، أو الشنق أو قطع الرأس، أو دفن المذنب حياً. ورغم أن الكنيسة كانت تدعو للرأفة بالمذنبين إلا أنها طبقت العقوبات نفسها إذا وقعت في دائرتها، ومن ذلك أن محكمة أحد الأديرة عاقبت سبع نساء بالدفن وهن أحياء مقابل جريمة السرقة. وكان أشد العقوبات في العصور الوسطى هي التي أنزلتها الكنيسة بما سمتهم الخارجين على الكنيسة.

حروب الإقطاع

لقد قام الإقطاع عندما عجز الملك والحكومة المركزية عن الدفاع عن كل أراضي الدولة، ولذلك كان الواجب الأول للسيد الإقطاعي هو الدفاع عن الأراضي التي تحت يده، وتلى ذلك قيام نظام تعاقدي قام على دعامتين هما الدفاع عن الأرض مقابل الانتفاع بها. ولذلك كان العمل في الأرض والتدريب العسكري من الأعمال اليومية في المجتمع الإقطاعي. ولعل خير دليل على ذلك ما قام به الفريد Alfred ملك وسكس في إنجلترا (٨٧١ - ٨٩٩ م) من تسليح أكبر عدد من المواطنين، وكانت عملية استدعائهم للتدريب أو للحرب

تتم في فترات متقاربة، وأنه كان يحاب بالبعض ويظل البعض الآخر للعمل في الحقول، ويتم ذلك فيما بينهم بالتناوب.

وفي غياب السلطة المركزية للدولة قام الجيش الإقطاعي في نسيج متماسك لحمته الإخلاص وسداه الولاء. وكان يتولى قيادة هذا الجيش الإقطاعي الأمراء أو الكونتات أو رؤساء الأساقفة، كما تولى قيادة الفرق البارونات والأساقفة أو رؤساء الأديرة. وقد انقسم هذا الجيش إلى فرسان ومشاه، وخلف الفرسان المشاه سار الخدم دون نظام لجمع الغنائم أو قتل من أصيب في القتال إصابة بالغة تهدد حياته لراحته من عذاب الألم، وقتل جرحى الأعداء أيضاً.

واستخدم الجيش الإقطاعي الأدوات التي كانت مألوفة في تلك المرحلة، وهي السيف والحربة والقوس والسهم. واعتز هؤلاء المحاربين بسيوفهم وأطلقوا عليها الأسماء المحببة إليهم. ويلاحظ أن أشكال هذه الأدوات الحربية كان تتغير مع الزمن، كما تعددت أشكالها أيضاً في مرحلة واحدة فقد كان هناك القوس القصير والطويل. ولقد كانت الفروسية عماد الحروب الإقطاعية، ولكن الحال تبدل عندما تطور القوس وازدياد كفاءة الرماة بالتدريب. فقد كان بوسع هؤلاء الرماه قتل جواد الفارس من بعيد فيضطر الفارس إلى الترجل والقتال على الأرض وهي طريقة لم يألفها فتزعزعت مكانة الفارس. وإذا توغلنا في العصور الوسطى وأشرفنا على نهايتها كان اختراع المدفع والبارود وأمكن عن طريقة تدمير القصور والقلاع من مسافة بعيدة.

وإذا كان للفرسان والمشاة أن يقوموا بعملية الهجوم، فقد لعبت الحصون والقلاع والأبراج دوراً كبير في وسائل الدفاع، وكان بوسع القوات التي تهزم في ميدان القتال أن تتراجع وتتحصن في الأماكن الحصينة، كما كان بوسع سكان المدينة والقرية الالتجاء إلى هذه الأماكن والاستعداد للقتال إذا فاجأتها قوات الأعداء. وكانت عملية الحصار تستغرق ربما أيام أو أسابيع أو شهور وهذا يتوقف على حصانة المكان، ولذلك لجأ الحكام إلى تحصين المدن بالأسوار.

وقد تحاط المدينة بسور واحد أو إثنين أو ثلاثة مع وجود أبواب في غاية المتانة، وقد تحاط المدينة بخندق قد يملأ بالماء في بعض الأحيان أو بوضع النباتات الشوكية أو قطع من الحديد المدبب بداخله. وكان يتم الاتصال بالمدينة وخارجها عن طريق قناطر تغلق وتفتح إلى أعلا حسب الأحوال. وقد استعمل المهاجمون لمثل هذه المدن الأبراج المتحركة حتى تلاصق السور للقتال.

ولعبت السفن دوراً كبيراً في مهاجمة أو الدفاع عن المدن الساحلية، ولم تكن السفن قد تقدمت، وكانت متعددة الأشكال والأحمال منها ما هو معد لحمل الخيول أو المشاه أو المؤن ومنها السفن القتالية ، وكانت الأخيرة مزودة بأبراج للقتال وكانت هذه الأبراج ترتفع وتنخفض، وقد ظهر هذا النوع في مطلع القرن الثالث. وكانت المجاديف هو الوسيلة الوحيدة لدفع السفن إذا ما غابت الرياح أو هدأت. وتفنن صانعو العصور الوسطى في حماية هذه السفن ضد الحريق وذلك بتغطية سطحها بالجلود، كما تفننوا أيضاً في تزيين هذه السفن بالألوان الزاهية وطلاء مقدمتها بماء الذهب، ووضع تماثيل الأشخاص أو الحيوانات في مؤخرتها أو مقدمتها، كما استخدمت الأشرعة الملونة. وكانت كل سفينة تحمل الرنك (رمز) الخاص بالسيد الإقطاعي وهو الرنك الذي يضعه على ملابسه ودرعه.

وكانت الحروب الإقطاعية كثيرة ولكنها لم تكن بالحروب المدمرة، فقد تميزت بقلة نفقاتها وقلة قتلاها. وترجع كثرتها لأن كل سيد إقطاعي كان له الحق في شن الحرب على إقطاعي آخر لا تربطه به صلة الإقطاع القائم على الولاء والإخلاص، يضاف إلى ذلك أن الفرسان بصفتهم محاربين كانت أمانيهم أن يموتوا في ميدان القتال. وكونها بالحرب غير المدمرة فقد كان القتال يعتمد على المهارة في قتال الفرد للفرد، وقد لعبت الدروع والحصون دوراً كبيراً في حماية القوات العسكرية المقاتلة. وكان أسر الفارس وقبول فديته أهم من قتله. وكانت مجاملة الأسير وطلب الفدية المناسبة من الأمور المألوفة في المجتمع الإقطاعي. ومن المألوف أيضاً إطلاق سراح الأسير إذ وعد بشرفه أن

يعود ومعه قديته ونادراً ما أخل فارس أسير بهذا الوعد. ورغم هذا كله فقد قاس الفلاحون من هذه الحروب التي أدت إلى إتلاف مزارعهم ونهب محاصيلهم أو حرقها.

ولقد حاولت الكنيسة والملوك والبارونات منع هذه الحروب ـ وإقامة «سلم الله» ـ أو الحد منها على الأقل، ولكن مثل هذه الجهود قد فشلت بعد أن أصبحت هذه الحروب عادة متأصلة في المجتمع الإقطاعي. ومن هنا ظهرت فكرة «هدنة الله» وتقرر اعتبار الأيام الواقعة بين ليلة الجمعة وصباح الإثنين من كل أسبوع فترة هدنة، كما تقرر أن تكون الأماكن المقدسة كالكنيسة وساحتها مناطق حياد ومن لجأ إليها كان آمنا. وعلى الجميع الامتناع أيضاً عن القتال في فترة الصوم الكبير وفي مواسم الحصاد وقد حددت هذه الأيام للالتزام بها. وهددت الكنيسة بإنـزال قرار الحرمان على من يخالف ذلك. وقد نجحت هذه الفكرة إلى حد ما خاصة بعد قيام الحروب الصليبية وقدوم أعداد كبيرة من المحاربين من أوروبا إلى الشرق لمحاربة المسلمين.

الفروسية

من معالم أوروبا العصور الوسطى النظام الإقطاعي، ومن معالم النظام الإقطاعي الفروسية، وقد نشأت الفروسية في تلك المرحلة من عادات قديمة وأفكار مسيحية تتعلق بالأسرار المقدسة، ومن التعرف على أنظمة القتال عند المسلمين. وكان للفارس نوعان هما فارس السيف وفارس الحمام. أما فارس السيف فهو الذي أخذ هذا اللقب في ميدان القتال نظير بسالته في الحروب. أما فارس الحمام فقد مر بمراحل كثيرة منذ صباه. وكان من أراد الفروسية عليه أن يعمل منذ صباه وصيفاً عند أحد السادة الإقطاعيين، فإذا بلغ الرابعة عشر أصبح تابعاً لهذا السيد يقدم له الطعام ويرتب له غرفة نومه ويخدمه في الجوانب الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك قيامه بالتدريب الشاق على استخدام أسلحة الحروب الإقطاعية.

وإذا أتم الفارس تدريبه أقيم احتفال كبير يحصل فيه على لقب الفارس.

وكان فارس الحمام يبدأ هذا الحفل بالاستحمام رمزاً للتطهر الروحي والجسدي ومن هنا جاءت عبارة «فارس الحمام»، ثم يرتدي قميصاً أبيضاً دلالة على نقاء الخلق، ويضع فوق القميص رداء أحمر دليلاً على الدم الذي قد يسال في سبيل الله أو الشرف، ثم يضع معطفاً أسوداً رمزاً للموت الذي قد يلاقيه. ويقضي الفارس ليلة في الكنيسة يصلي ويعترف بذنوبه ثم يحضر مراسم القداس ويتناول العشاء الرباني ويستمع إلى المواعظ والواجبات الدينية والاجتماعية والخلقية والحربية ويتعهد بمراعاتها.

وفي الوقت المناسب يتقدم الفارس إلى مذبح الكنيسة بعد أن يضع سيفه متدلياً حول عنقه حيث يواجه السيد الإقطاعي الذي سيمنحه لقب الفارس،وبعد أن يتعهد الفارس الجديد بالقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية بتقدم إليه بعض الفرسان أو بعض السيدات لإلباسه لباس الفروسية كالزرد والدرع والقفاز ووضع المهمازين في حذائه. ويعد هذه المراسم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه أو على خده، وهي لطمات تعبر عن رموز الإهانة التي قد يلاقيها ويتحملها دون الأخذ بالثأر لنفسه. وعند هذه المرحلة يقول السيد الإقطاعي «بسم الله والقديس ميخائيل والقديس جورج أرسمك فارساً» ثم يتسلم الفارس الجواد والحربة والبيضة (الخوذة)، فيضعها على رأسه ويقفز فوق جواده ويلوح بحربته ويخرج من الكنيسة حيث تقام الولائم فرحاً بمولد فارس جديد.

وكانت حلبة البرجاس هي المكان المناسب للتدريب وإظهار مهارة الفارس. وكان حفل البرجاس يدوم يوماً أو أكثر حتى أسبوع، وفي نهاية العصور الوسطى كان البرجاس يبدأ بيوم الأحد حيث الاجتماعات، ويخصص يوم الإثنين والثلاثاء للمبارزة وعادة ما كان يوم الأربعاء يوم راحة، وكان يوم الخميس هو يوم الاحتفال العام الذي أطلق عليه يوم البرجاس. وفي الساحة المعدة لهذا الفرص يجلس المشاهدون وقد جلس كبارهم في الشرفات مرتدين أفخم الثياب، ومع بداية الاحتفال تبدأ الموسيقى بالأنغام.

ويدخل الفرسان المشتركون في الاحتفال جميعاً حلبة البرجاس في أزهى

ثيابهم على صهوات جيادهم وخلفهم أتباعهم، وكان على الفارس أن يحمل ترسه وخوذته على رأسه وحربته في يده، ثم تخلوا الحلبة ويبقى بها فارسان فقط للمباراة. وكانت قواعد المباراة تقضي بأن يعدو كل فارس في اتجاه مضاد ليقابل الأخر فيلقي كل منهما بحربته لإصابة الآخر، فإذا سقط أحدهما من على جواده فلابد أن يترجل الآخر وتستمر المبارزة حتى يجرح أحدهما أو يموت أو يطلب إيقاف المباراة، أو يتدخل القضاة أو الملك لوقف المباراة. ويتقدم المنتصر إلى السيد الإقطاعي أو إلى القضاة ليتلقى جائزته. وكان بالإمكان أيضاً أن يتلقاها من إحدى سيدات المجتمع وتتكرر هذه العملية بين فارس وآخر حتى نهاية الاحتفال. وفي المرحلة الأخيرة للاحتفال يصطف جميع الفرسان في جماعات متقابلة ويقاتلون بعضهم البعض. وفي مثل هذه المباراة كان يتم أسر البعض فيطلق سراحهم مقابل الفدية ويحصل الفارس المنتصر على جواد الأسير وأسلحته. وفي نهاية البرجاس تقام الولائم في حفل ليلي يدور فيه الغناء والرقص والاستماع إلى القصائد والأغاني التي تعد لمثل هذه المناسبة.

لقد كانت الفروسية على هذه الصورة - وهي التي يجب أن تكون - مخالفة للواقع لأن الطبيعة البشرية لفرسان العصور الوسطى قد لوثت هذه النظم بفعل البيئة التي وجدت فيها، فقد كان الفارس الذي أقسم على أن يكون صادقاً أميناً مدافعاً عن الدين والفقراء والمساكين والنساء، كان له وجه آخر هو الغدر والغلظة حتى الوحشية في الأحيان، وقد يكون في بعض الأوقات قاطع طريق محرقاً للديار. ومن هنا كان للفروسية وجهاً آخر هو الهمجية والفسوق.

ولقد خففت النظم المسيحية والمرأة التي هي مريم العذراء من هذه الهمجية، فكثيراً ما طالبت الكنيسة بالحض على الأخلاق الكريمة، كما نادت في بعض المراحل بإلغاء حفلات البرجاس التي يسقط فيها العشرات من زهرة شباب الدولة قتلى في نهاية كل حفلة، في الوقت الذي يحتفل فيه المنتصرون بالغناء والرقص. وعندما عجزت الكنيسة عن وقف هذا التيار فإن ما وقع في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي من تيار الحروب الصليبية قد حول هذا العنف لقتال المسلمين.

إن ما يتعلق بالدور الذي لعبه النساء في العصور الوسطى فقد يرجع ذلك في ظاهرة إلى عبادة السيدة مريم العذراء، فقد رفعت هذه العبارة من منزلة المرأة التي اشتاق إليها الرجال المياليين إلى العنف والقسوة، لأن النساء كان لهن أكبر الأثر في ترويض وتهذيب الرجال، فتحول الفارس إلى سيد كريم نبيل عال الخلق في بعض الأحيان، ولعل ما تغنى به الشعراء من الحب العذري الذي جعل من المحبوب مثلاً أعلى خير دليل على ذلك. ومن جهة أخرى كان هناك أيضاً الحب البيروني الذي ينزل بالمحبوب إلى أحط الدرجات. ولعل محاكم الحب التي قامت في العصور الوسطى وتولى أمرها مجموعة من النساء النبيلات خير دليل على هذا وذاك.

وإذا اكتفينا بهذا القدر، فإنه يمكن القول أن الفروسية التي دامت ثلاثة قرون من العاشر حتى الثاني عشر قد شاهدت الكثير من الوحشية والأحقاد والحب بنوعية، إلا أنها تركت آثارها في نواحي كثيرة منها التربوية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية والأدبية، ولما كان الفارس قد تعلم آداب السلوك والمروءة والشهامة فقد كانت هذه الصفات تنقل تلقائياً إلى المستويات الدنيا في المجتمع. كما أن آداب العصور الوسطى قد ضمت الكثير من أخلاق الفروسية التي تحلى بها البعض حتى أن ما نراه من مجاملات في المجتمع الأستقراطي ما هو إلا الصورة الجميلة لخلق فرسان العصور الوسطى.

وفي ختام هذا الفصل نرى أن صورة المجتمع الإقطاعي لم تقتصر على حياة العبيد والأقنان والتابع والمتبوع والأمية والعنف وقطع الغابات وتجفيف المستنقعات والحرب الصليبية، إنما كان هناك الفلاح الذي أطعم العالم الغربي، والفرسان الذين أقسموا أن يكونوا شرفاء وواجهوا الأخطار من أجل مبدأ أو سيدة جميلة. كما ضم هذا المجتمع المرأة المكافحة. ولعل أهم ما قام به المجتمع الإقطاعي هو إعادة النظام الاقتصادي والسياسي. بعد أن توالت عليها غارات القبائل الجرمانية.

أديان الخلاص :Salvationist Religions

نحن نعلم أنه في سنة ٣١٣ م أعلن الأمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) المسيحية ديناً من أديان الدولة، وفي سنة ٣٢٥ م - وهي نفس السنة التي بدأ فيها بناء العاصمة الجديدة الأمبراطورية الرومانية - عقد أول مجلس مسكوني للكنيسة المسيحية في مدينة نيقية Nicea بآسيا الصغرى على الجانب الآخر من مضيق البسفور. وإلى ذلك التاريخ كان قد مضى على المسيحية ثلاثة قرون ،تطورت فيها نظمها وتعاليمها. وكانت المسيحية في بادىء الأمر تعتبر مذهباً من مذاهب اليهودية، ولكنها انتشرت بين الوثنيين بفضل تبشير القديس بولس St. Paul الذي يعزي إلى نشاطه الجم في نشر الدعوة، وإيجاد جاليات مسيحية في المدن الرئيسية بأنحاء الأمبراطورية. ولما كانت الدعوة في بدايتها قد سرت بين صفوف الطبقات الكادحة المضطهدة، فقد انتشرت المسيحية في أنحاء البحر المتوسط، وشقت طريقها ببطء إلى أن احتلت مكانها بين أديان الخلاص الأخرى التي أخذها الغرب عن الشرق. وفي آخر الأمر حازت المسيحية قصب السبق على ما عداها من الأديان، وما إن وأتى القرن الرابع حتى أضحت المسيحية من القوة لدرجة أن قسطنطين اكتسب نفوذاً سياسياً كبيراً في تحالفه مع أتباع الدين الجديد.

لقد نشأت عقائد الخلاص ونمت عندما فقد الإنسان ثقته في الحياة الدنيا، واعتقد في وجود عالم أفضل. أن الوثنية القديمة صيغت لتلائم عالم

كان الدين فيه مسألة من مسائل الحياة الدنيوية، وكان يقوم على خدمة الآلهة جماعات من الكهنة الدنيويين، وكان الإعتقاد السائد أن تلك الآلهة تجزل العطاء للجماعات التي تعبدها. وعلى ذلك لم تكن الفردية طابع هذه الأديان. فالآلهة القديمة ومدن الولايات City - States قد اقترنت بفكرة عامة، وتقاسمت نفس المصير، إذ كان تدمير مدينة من المدن يجلب معه نهاية الآلهة الوثنية التي كان المفروض أنها تقوم على حماية المدينة. غير أنه طالما كانت الأمور تسير سيراً مرضياً في العالم، لم يهتم الإنسان كثيراً بالدين، وكانت الوثنية ـ وهي الدين الرسمي ـ تكفي للأغراض العامة. وبعد غزوات فيليب والإسكندر المقدوني لليونان، وجد الإغريق أن النظام القديم قد انهار، وأن عالمهم السعيد قد انتهى، وأن هناك تجربة شاقة لا بد أن يتجاوزها، فالإنسان الذي كان راضياً قانعاً بأمور هذه الدنيا ولم يحفل كثيراً بالمستقبل، وجد نفسه فجأة يتوق إلى شيء أفضل مما يستطيع تحقيقه في هذه الحياة. وكان إمام الإنسان طريقان: الأول، وهو طريق الفلسفة، فظهرت الرواقية والأبيقورية، في العصر الهلنستي. أما الطريق الثاني، فقد وجده الإنسان في فكرة الخلاص الدينية التي كانت سائدة منذ قرون عديدة في الشرق، حيث كان الإنسان دائم الأنين من وطأة الغزاة والمستبدين.

كانت المذاهب الفلسفية تروق للعقل، ولكنها لا تنفذ إلى الوجدان، وكان القليل من الناس يستطيع تفهمها، فلم يكن أمام الأكثرية من بني الإنسان إلا سلوك الطريق الآخر وهو اعتناق عقائد الخلاص التي أحيت العزاء والأمل في قلوبهم. ومع أن بعض الرومان قد اعتنقها أيام الجمهورية، إلا أنها لم تنتشر إلا لما اشتد تبرم الناس وزاد سخطهم على الحياة وقت تفشي الفوضى والإضطرابات في الامبراطورية، وهكذا تسللت تلك العقائد إلى الأفئدة وزاد الإقبال على اعتناقها.

وكان هناك عدداً من أديان الخلاص أخذتها روما عن الشرق، فمن مصر سرت عبادة الثالوث أزيس وأوزوريس وحورس، وكان لعبادة إيزيس أتباع كثيرون في أنحاء العالم الروماني. ومن آسيا الصغرى جاءت إلى روما عبادة

سيبـل Cybele أو الأم العظمى Magna Mater آلهة الأرض العظيمة ومانحة الحياة، ومن فارس جاءت ديانة مثرا Mithra إله الشمس، الذي يقود عباده إلى النصر في الحياة الدنيا وفي الآخرة: وكانت ديانة إيزيس هي ديانة التجار. وكان مثرا هو إله الجيش. وجميع هذه الأديان تشترك فيما بينها في عدة نواح، فكلها وعدت كل فرد من المؤمنين بها بالخلاص في الآخرة، وجميعها كانت ديانات خاصة، وكـان على معتنقيها القيام بطقوس تقتصر معـرفتها عليهم، وكـان القائمون على أمر تلك العبادة هم طبقة من الكهنة وهبوا أنفسهم لخدمة هذا الإله أو ذاك، ولكنهم ظلوا بعيدين عن الإختلاط بالشعب.

واليهودية تشترك مع تلك الأديان في وعدهـا بالخـلاص، وفي طابعهـا الخاص، وفي وظائف كهنتها، ولكنها تختلف عن بقية أديان الخلاص الأخرى في وحدانيتها، وفي أنها دين اعتنقه عنصر واحد، وليس من تعاليمها التبشير، إذ وعـدت اليهوديـة معتنقيها بـالخلاص في الحيـاة الآخرة، وكـان التحول إلى اليهودية مباح، وكان الأعضاء الجدد، يتلقون مبادىء الـدين الجديـد، ولكن اليهودية لم تبذل أي جهد لنشر الدعوة، أو لكسب اتباع جدد، الأمر الذي قامت به كل عقائد الخلاص الأخرى.

لقد كانت الجماعات الأولى التي اعتنقت المسيحية مـن اليهود، ومع أن المسيحية هي أقرب الأديان إلى اليهودية، إلا أنها تختلف عنها في كونها دين عالمي قام بـالتبشير بـه القديس بـولس. لهذا سـرعان مـا وقع الصـراع بين المسيحية وبين الأديان الأخرى، فيما عدا اليهوديـة التي لم تكن ديناً عـالمياً يسعى لكسب اتباع جدد. وقد بدأت الكنيسة المسيحية في نشر الدعـوة بين الطبقات الفقيرة، ثم انتشرت تدريجياً إلى أن ضمت إليهـا أنصاراً من جميـع طبقات المجتمع.

لم تعر الحكومة الرومانية في بادىء الأمر أي اهتمام بالدين الجديـد، ولكن لما أخذت الدعوة في الإنتشار اتضح للمسئولين أمران:

الأول: أن المسيحيين رفضوا رفضاً باتاً عبادة أي إله من آلهة الوطنيين

وأبوا حتى عبادة الأمبراطور التي كانت واجبة على كل روماني.

الثاني: أن اجتماعات المسيحيين كانت تعقد في الخفاء، وقد رفضوا إذاعة ما كان يدور في هذه الإجتماعات لغير المسيحيين.

لهذين العاملين أضطهدت الجماعات المسيحيةفي القرون الثلاثة الأولى، ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه خلال العصور المختلفة كانت أية جماعة تعقد اجتماعات سرية تعتبر عنصراً هداماً، تهدف إلى قلب نظام الحكم. ولذلك لم يتوان الحكام الرومان عن إنزال العقاب والتنكيل بتلك الجماعات. وقد لاقى الشهداء الأوائل حتفهم بتهمة العمل على قلب نظام الحكم كما ذكرنا. ومع أنه لم يكن لدى الحكومة الرومانية ما يثبت هذه التهمة على الجماعات المسيحية إلا أن الأمر تطور لدراجة أن مجرد الإنتماء إلى المسيحية أصبح محرماً رسمياً أيام دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)، واعتبر تهمة تقود صاحبها إلى الإستشهاد، إذ أقنع الأباطرة أنفسهم أن الولاء للكنيسة المسيحية والولاء للأمبراطورية أمران يتنافى أحدهما مع الآخر، وأن المسيحي لا يمكن أن يكون مواطناً رومانياً صالحاً.

والإضطهاد ـ كما نعلم ـ قوى من شوكة الكنيسة، . وكان بمثابة الدعاية للدين الجديد. وكان ثبات الشهداء وشجاعتهم وترحيبهم الظاهر بالآلام الفظيعة التي كانوا يعتقدون أنها تحرر الروح من قيود هذه الحياة الدنيا، وتفتح أمامهم أبواب بيت المقدس. وكان لكل هذا أعمق الأثر في ألد أعداء المسيحية،وأدى بهم آخر الأمر إلى اعتناقها. وما أن أتى القرن الرابع حتى انتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً بين جميع طبقات المجتمع، ولم يسع قسطنطين إلا أن يعلن الدين المسيحي ديناً من أديان الدولة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وأن يسمح للمسيحيين بنشر الدعوة ومزاولة شعائرهم الدينية جهاراً. وقد رأى قسطنطين بثاقب حكمته أن انضمام الكنيسة للدولة سيكون حتماً في مصلحة الأخيرة، وبذلك أنهى موقف العداء الذي كانت تقفه الواحدة من الأخرى، وكانت النتيجة أنه استطاع تقوية نفوذه السياسي وتدعيم وحدة الأمبراطورية.

نظام الكنيسة في عصورها الأولى:

لقد كانت هناك نتيجة أخرى لاضطهاد المسيحيين، هي أن نظرتهم إلى الحياة قد تغيرت، وأصبح العالم في اعتقادهم مفعماً بالشرور وفي طريقه إلى الخراب والفناء، فانطووا على أنفسهم، وتفانى كل منهم في الوصول إلى خلاصه الشخصي، والنجاة بنفسه من عذاب الجحيم في الآخرة. وهذا الإنشغال بالحياة بعد الموت أو بعبارة أخرى، هذه الدنيوية الأخرى Other Worldliness جعلت المسيحيين وكافة أتباع عقائد الخلاص الأخرى لا يكترثون بأمور هذه الدنيا، سواء أكانت هذه الأمور سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية، ولم تكن لهم غاية يسعون إليها سوى إنقاذ أرواحهم، وهكذا أضحوا مواطنين سلبيين لا يبالون شيئاً في شئون دولتهم. ثم أن المسيحيين الأوائل كانوا من محبي السلام، فرفضوا حمل السلاح أو الإشتراك في القتال. غير أنه لما انتشرت المسيحية، وضمت أفواجاً من الناس أقل صرامة في الزهد والتعبد ويميلون إلى الناحية العملية في تفكيرهم، أخذ المسيحيون يستأنفون الإضطلاع بالتزاماتهم العادية نحو الدولة ونحو المجتمع، كما أخذوا في الكفاح من أجل تحسين أحوالهم في الحياة الدنيا ومن أجل الخلاص في الآخرة. وفي أوائل القرن الرابع كانت هناك فرق كاملة في الجيش معظم جنودها من المسيحيين، هذا إلى جانب دخولهم في سلك الأعمال الإدارية، ومزاولتهم لشتى المهن كبيرها وصغيرها.

وحتى ذلك الحين، ظل المسيحيون متكتلين ضد العالم الخارجي، وإذا ما نشب خلاف بينهم، آثروا عرض خلافاتهم على أسقفهم دون الإلتجاء إلى المحاكم المدنية. ومن ثم اضطلع الأساقفة بسلطة قضائية اعترف بها قسطنطين، وأقر اختصاصات محاكمهم، فواصلت عملها جنباً إلى جنب مع المحاكم المدنية. وفي تلك الأثناء، لم تغفل الكنيسة عن تكوين جهاز محكم الحلقات، والأصل في ذلك النظام أن كل جماعة مسيحية كانت تنظم نفسها مستقلة عن الجماعات الأخرى، ويقوم على رعاية شئونها قس أو أسقف، والصلة التي كانت تربط بين الجماعات المختلفة هي الزيارات التى كان يقوم بها رجال

الدين لنشر الدعوة، ولما ازدادت، أعباء الأسقف بزيادة عدد الجماعة، أنشئت وظائف مساعدي الأساقفة وهم القساوسة ويساعدون الأسقف في الشئون الروحية، والشمامسة وقد وكل إليهم المعاونة في الشئون الإدارية للكنيسة والشئون الإجتماعية والقضائية للجماعة المسيحية.

وكان لكل مدينة أسقفها، ولما انتشرت المسيحية بين سكان الريف كان على الأسقف أن يوسع نطاق أعماله، فقسم الأسقفية Diocese إلى وحدات أصغر كل منها تسمى أبرشية Parish، وندب قساوسة لرعاية شئون الكنائس في تلك الأبرشيات. ولما كانت الولاية Province تشمل عدداً من المدن، فقد اتبعت الكنيسة نفس التقسيم الإداري، فضمت كنائس الولاية تحت إدارة يرأسها رئيس الأساقفة Metropolitan , أو Archbishop، وعلى رأس هذا الجهاز المحكم يأتي البطريرك Patriarch الذي يشرف على سائر رؤساء الأساقفة في الإقليم كله.

وفي بداية الإعتراف الرسمي بالكنيسة كانت هناك ثلاثة مراكز، يرأس كل منها بطريرك، وهذه المراكز هي روما، وأنطاكية، والإسكندرية، وكان بهذه المراكز أكبر الجاليات المسيحية في العالم، وقد أسس كنائسها قديسون في أيام المسيحية الأولى. وفيما بعد صارت كنيستا بيت المقدس والقسطنطينية بطريركيتين، ولكنهما لم تستطيعا المفاخرة بأن مؤسسيهما من القديسين. على أية حال، لم يكن لكنيستي بيت المقدس والقسطنطينية في باديء الأمر نفس الأهمية التي كانت للثلاث الأول. وإذا كان يبدو من الغريب أن كنيسة بيت المقدس لم يؤسسها أحد القديسين، ويجب أن نذكر أن المدينة كانت قد دمرت وتفرق شمل أهلها في ٨ سبتمبر سنة ٧٠ م على يد تيتوس Titus الذي عرف فيما بعد بالأمبراطور فسباسيان Vespasian ولم تنج كنيستها الرسولية من نفس المصير. ولما أعيد بناء المدينة بعد ذلك، رفعت الكنيسة هناك إلى بطريركية.

والبطريرك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ له سلطة إدارية فوق رؤساء الأساقفة، والأساقفة. وقبل الإعتراف بالمسيحية لم يكن نظام الكنيسة يسير في يسر

وسهولة لأنه لم يكن في استطاعة المسيحيين عقد أي نوع من أنواع المجالس الدينية. أما بعد الإعتراف بالمسيحية، فقد قام البطريرك ومساعدوه من رؤساء الأساقفة والأساقفة بالإشراف الديني والإدراي على الجهاز الكنسي المحكم. وبينما كانت كنائس روما وأنطاكية والإسكندرية تعتبر في منزلة واحدة، إلا أن سلطان روما في الواقع كان يفوق سلطان الأخيرتين، وذلك لأن منطقة نفوذ البطريرك الروماني كانت تشمل كل الامبراطورية الغربية، فكان أساقفة غالة وإسبانيا وشمال أفريقيا وبقية مناطق شبه الجزيرة الإيطالية تابعين لبطريركية روما، بينما كانت مناطق نفوذ بطاركة الأمبراطورية الشرقية محدودة، ولا تقاس في اتساعها بمنطقة نفوذ بطريركية روما.

تزعم كنيسة روما:

بنت روما زعامتها على أساس النظرية البطرسية Petrine Theory وهذه لنظرية تقول أن بطرس باعتباره أمير الرسل قد عهد إليه بالسلطة العليا على الكنيسة. ولقد سلم بطرس مكان الصدارة هذا لخلفائه أساقفة روما الذين بحكم مركزهم يجب أن تكون لهم الزعامة على الكنيسة وعلى سائر الأساقفة، كما كان بطرس أميراً للرسل الآخرين. والفقرة التي بنيت عليها هذه النظرية توجد في إنجيل متى (الإصحاح ١٦، فقرة ١٨) التي تقول: «أنت بطرس وعلى الصخرة ابني كنيستي».

وإلى جانب هذا السند من الإنجيل، هناك عوامل أخرى دعمت مركز روما، منها أنها كانت العاصمة القديمة للامبراطورية، فينبغي إذن أن يكون لكنيستها، مركز الصدارة بين الكنائس الأخرى. ثم أن مناطق نفوذها ـ كما رأينا ـ كانت أكثر اتساعاً من مناطق نفوذ البطريركيات الأخرى. وقد نازع روما السيادة على الكنائس الواقعة ضمن منطقة نفوذها البطاركة الآخرون من ناحية وأساقفة تلك الكنائس أنفسهم الذين كرهوا الخضوع لروما من الناحية الأخرى، إلى أن استصدر ليو الأول Leo I بطريرك روما (٤٤٠ ـ ٤٦١ م) مرسوماً من الأمبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian III (٤٢٥ ـ ٤٥٤ م)، وكان صدور

المرسوم سنة ٤٤٥ م، وبمقتضاه خول لكنيسة القديس بطرس تبوأ المقام الأول بين كنائس العالم عامة والإشراف على جميع كنائس الغرب خاصة. وقد عزز هذا المرسوم بمرسوم آخر استصدره البابا بونيفاس الثالث سنة ٦٠٧ م من الأمبراطور فوكاس الأول Phocas I (٦٠٢ - ٦١٠ م). ولا شك أن هذين المرسومين كان لهما أعظم الأثر في تقوية مركز روما وجعل بطريركها يلقب «بأسقف العالم».

وقد ساعد روما أيضاً موقعها الجغرافي، إذ ظلت بمنأى عن النزاع العنيف الذي نشب بين البطريركيات الشرقية، كما أنها كانت بعيدة عن سيطرة الامبراطور بالقسطنطينية، ففي الواقع أن بطريرك القسطنطينية لم يستطع مطلقاً أن يمنع تدخل الأمبراطور في الشئون الدينية، وظلت سلطته لا تعدو سلطة قسيس البلاط، وبذلك هيمن الأمبراطور على الميدانين الروحي والسياسي. وما أن أشرف القرن السادس على نهايته حتى دانت الزعامة لكنيسة روما، أو بعبارة أخرى - للبابوية، وهذا الإسم هو الذي يجب أن نطلقه عليها من الآن فصاعداً.

جريجوري الأول (٥٩٠ - ٦٠٤ م) Gregory the Great:

أضفى الخلف بحق على جريجوري لقب «أبا البابوية» وأعماله التي استحق عليها هذا اللقب، وأوجه نشاطه العديدة، وقوة نفوذه أضحت مثالاً احتذاه بابوات العصور الوسطى. وكان جريجوري من أسرة رومانية نبيلة، ورث عنها ثروة طائلة ولكنه نبذها وآثر أن يصبح راهباً، فاعتزل العالم، وعاش في خلوة ست سنوات. وفي سنة ٥٧٨ م أرسله البابا بلاجيوس الثاني (٥٧٨ - ٥٩٠ م) إلى القسطنطينية لطلب المساعدة ضد اللومبارديين، غير أنه حدث أن بقي جريجوري هناك مدة تقرب من الستة أعوام كممثل للبابوية لدى البلاط الأمبراطوري. وبعد وفاة البابا بلاجيوس الثاني في سنة ٥٩٠ م، انتخب جريجوري بإجماع الآراء لاعتلاء عرش البابوية، وكانت الأحوال في أوروبا في ذلك الحين تسودها الفوضى والإضطراب، فقام بمحاولات لإصلاح الإدارة في كنائس كل من إيطاليا وسردينيا وأفريقيا. وتدلنا خطابات جريجوري، التي بلغ

عددها ٨٥٠ خطاباً، على مدى نشاطه الجم وحماسه للإصلاح ، تلك الحماسة التي أثارت إعجاب معاصريه، وقد أدخل جريجوري تحسينات على طريقة إقامة الشعائر الدينية بالكنائس، وأحكم الأشراف على الجهاز الكنسي في الغرب، فدان له بالطاعة أساقفة غالة، وتسكانيا، واليونان، وشمال إفريقيا، وإسبانيا، وهذه الأخيرة تحولت في عهده من المذهب الأريوسي إلى المذهب الكاثوليكي.

وفي سنة ٥٩٦ م أرسل جريجوري بعثة تبشيرية مكونة من أربعين راهباً برئاسة أغسطين إلى انجلترا لتحويلها إلى المسيحية. وقد استقبل الملك اثلبرت Ethelbert والملكة برتا Bertha هذه البعثة أحسن استقبال، فساعد ذلك على نجاحها في مهمتها نجاحاً منقطع النظير، وكان من نتائجها أن عيّن أغسطين رئيساً لأساقفة مدينة كانتربري.

سبق أن ذكرنا أن البابوية طلبت المساعدة ضد اللومبارديين، ولكن الامبراطورية لم تحرك ساكناً فأظهرت بذلك عجزها عن نجدة إيطالياً رغم وجود نائب لامبراطور القسطنطنية يقيم في رافنا على الساحل الأدرياتيكي. وإزاء ذلك لم ير جريجوري بداً من الإعتماد على نفسه والإضطلاع بمسئولية الدفاع عن الشعب وحمايته، فعقد معاهدات مع اللومبارديين واستطاع عن طريق الإتصال الشخصي أن يؤثر على الكثيرين منهم فتحولوا ـ كما نعلم ـ من الأريوسية إلى الكاثوليكية.

وقد توفي جريجوري العظيم سنة ٦٠٤ م وأعقب وفاته فترة انتقال في تاريخ البابوية، إذ أخذ نفوذ الامبراطورية الشرقية يخبو فيما عدا فترات متقطعة كان ينشط فيها حكام بيزنطة محاولين توطيد نفوذهم المتداعي. ولما رأى البابوات عدم جدوى طلب المساعدة من الشرق، لجأوا إلى الفرنجة الذين لبوا النداء ـ كما نعلم ـ وتدخلوا لنصرة البابوية عدة مرات، إلى حوالي منتصف القرن الثامن، عندما منح بيبز مقاطعة رافنا للبابوية، ثم جاء شارلمان من بعده، واتبع سياسة التعاون الكلي مع البابوية،وكانت النتيجة هي تتويجه امبراطوراً، واعتبار هذا التتويج إعادة لتأسيس الامبراطورية الرومانية فى الغرب.

وقد حدث في سنتي ٧٢٦، ٧٣٠ م أن أصدر الأمبراطور ليو الأيسوري (٧١٧ ـ ٧٤١ م) قرارين على التوالي حرم بهما عبادة الأيقونات. وقد قوبل هذان القراران بالثورة والإحتجاج في الشرق والغرب، وكانت النتيجة هي ضياع هيبة الامبراطورية الشرقية في إيطاليا، وحركة اللاإيقونات هذه لم تكن إلا أحد العوامل التي أدت إلى القطيعة السياسية والدينية بين الشرق والغرب.

الرهبانية والديرية:

أن التنسك أقدم من الرهبانية المسيحية، إذ كان منتشراً بالشرق قبل ظهور المسيحية بزمن طويل، وأشهر مثال للتنسك هو ذلك الأمير الهندي بوذا Buddha (حوالي ٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق م) الذي أسس الديانة المعروفة بالبوذية. وقد زاول التنسك إتباع كل مذاهب الخلاص التي انتقلت إلى روما من الشرق. وحتى المذاهب الفلسفية قد أنجبت رجالاً زهدوا في الدنيا، وانزووا في عزلة للتأمل والإستغراق في الحقائق الخالدة.

فإذا ما انتقلنا إلى الكلام عن المسيحية، نجد أنه بينما كانت المسيحية تسوي أمور العقيدة وبينما كان أساقفة روما يوطدون نفوذهم على سائر الكنائس في الغرب، قامت حركة داخل المسيحية كان لها أثر لا يقدر على تاريخ الكنيسة ونظمها. ففي الأيام الأولى قبل الإعتراف بالمسيحية، كان الإنتماء إلى الكنيسة تجعل المسيحيين بمعزل عن بقية العالم، وكان الإستشهاد يرتفع بهم إلى مصاف القديسين باعتبار أنهم رجال كافحوا من أجل المجد الأبدي لا من أجل أمور هذه الدنيا. وقد سبب الإعتراف الرسمي بالمسيحية وسرعة انتشارها اعتناق أفواج كثيرة من الناس أقل تفانياً في الدين من الشهداء الأولين، فنزلوا بالمستوى الخلقي والروحي للجماعات المسيحية. وبمجرد أن احتلت المسيحية مكانها في المجتمع، انضم فريق آخر من الناس إلى الكنيسة لأغراض دنيوية، وغذا المستوى الخلقي للمسيحيين لا يكاد يختلف عن مستوى المواطنين الوثنيين.

بعثت هذه الحالة اليأس إلى أرواح المتنكسين الصارمين الذين خيل

إليهم أن العالم يسير إلى حتفه، وأن الكنيسة لم تعد سداً منيعاً ضد ضروب الرجس في العالم، فقطعوا الأمل في الدنيا وما فيها، وانطووا على أنفسهم، وانسحبوا إلى الصحراء لعلهم بتعذيب الجسم وإذلال النفس بالمعيشة الإنفرادية يستطيعون إعداد أنفسهم للنعيم في الآخرة.

وهذه الرهبانية الإنعزالية التي كان موطنها الأول مصر، تطورت إلى ديرية اجتماعية، وعلى هذه الصورة انتقلت إلى غرب أوروبا، وبعد فترة طويلة من التجارب عدلت الديرية ونظمت بحيث تلائم حاجات الغرب، فقامت طريقة القديس بندكت النورسي St. Benedict of Nursia (٤٨٠ - ٥٤٣ م) وبعد ذلك انتقلت الديرية في أوائل القرن العاشر إلى مرحلة الإرتباط، وفي هذه المرحلة اتصلت الأديرة المختلفة وارتبطت ببعضها البعض تحت إشراف دير كلوني Cluny، ثم فقدت الديرية بعد ذلك كثيراً من قوتها ونفوذها عندما غدت أداة طيعة في يد البابوية.

ويمثل تاريخ الديرية المسيحية المحاولات للرجوع إلى الصرامة والبساطة الأولى، وتمثل مختلف الأسماء المشهورة في ذلك التاريخ جهوداً إنشائية لأحكام العمل بقواعد الديرية وعدم الحيدة عنها، حتى يتسنى للمسيحية أن تستعيد عنفوانها بعد التراخي المحتوم الذي يعقب النصر. ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الدور الذي قام به الرهبان في التعليم والزراعة وفن العمارة كان دوراً ثانوياً بالنسبة لهدفهم الأساسي وهو الدين.

ولنبدأ الآن الكلام عن الشخصيات الهامة في تاريخ الديرية، وأولى هذه الشخصيات هو القديس باخوميوس Pachomius (٢٩٢ - ٣٤٨ م). والقديس باخوميوس هو راهب مصري مشهور من رهبان المسيحية الأولى، وأول من وضع قواعد للرهبانية، ويعتبر مؤسس الديرية الإجتماعية Cenobitism. ولد باخوميوس من أبوين وثنيين في طيبة بالصعيد، ودخل في شبابه سلك الجندية الرومانية وعاد بعد حرب قصيرة ليعكف على دراسة المسيحية التي اعتنقها سنة ٣١٤ م. وبعد مرور عدة سنوات على اعتناقه المسيحية، اختار باخوميوس حياة العزلة، فأقام في جزيرة على النيل، حيث قيل أنه بعد فترة

طويلة من الصيام والتأمل أثناء الليل وأطراف النهار، ظهر له ملاك أسر إليه بتعليمات لبناء دير، ووضع قواعد يهتدي بها الرهبان في حياتهم. ولم يمض وقت طويل حتى انضمت إليه آلاف كثيرة من النساك. وعزا الناس إليه المعجزات واعتبروه قديساً. وقد ترجم القديس جيروم St. Jerome قواعد الديرية التي وضعها باخوميوس إلى اللغة اللاتينية.

عاصر باخوميوس القديس انطونيوس St. Anthony (٢٥١ - ٣٥٦ م)، ونحن لا نعرف على وجه التحقيق ما إذا كان هناك اتصال بين القديسين أم لا، وتاريخ حياة القديس انطونيوس كتبت في أواخر القرن الرابع، وكانت تباع في مكتبات روما وقرطاجنة والإسكندرية. وكان لها أعظم الأثر، إذ اعتبرت الديرية الملاذ الوحيد للخلاص من متاعب الحياة في ذلك العصر.

أما فيما يتعلق بالديرية في شرق أوروبا فيمكن القول أن الحياة الديرية بدأت تأخذ شكلها النظامي على يد القديس بازل St. Basil المتوفي عام ٣٧٩ م، وقد عاش القديس بازل في الأمبراطورية البيزنطية في القرن الرابع الميلادي، واعتزل الحياة الدنيوية تحت تأثير أخته ماكرينا Macrina، وأدرك أنه لكي يتفهم الرهبانية على حقيقتها ويتعرف على أسرارها ويغوص في أعماقها، يجب عليه أن يعيش في الأماكن التي ظهرت فيها الديانة المسيحية وترعرعت، لذلك قام برحلة زار فيها كل من مصر والشام وبلاد النهرين ثم عاد إلى بلاده بعد ما تزود بالإيمان والتقوى والورع ولديه خبرة واسعة عن المسيحية والديرية وأسرارها، هذا فضلاً عن فكرة واضحة عن الحياة الديرية والإنفرادية، والحياة الإجتماعية للرهبان. وقد فضل القديس بازل الحياة الجماعية بعدما أدخل عدة تعديلات على قوانين القديس باخوميوس، ومن هذه الإصلاحات تقليل عدد الرهبان بكل دير حتى يسهل على رئيس الدير التعرف على رهبانه فرداً فرداً، وتزويدهم بتوجيهاته وإرشاداته، ولكي يشجع حياة الرهبانية نظمها تنظيماً دقيقاً وذلك بتحديد ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم، كما حدد بالتفصيل نوع وشكل الملابس التي كان على الرهبان ارتدائها. ورغم ما قام به القديس بازل من جهود في الحياة الديرية ونظمها، إلا أنه لم يترك لنا قانوناً بالمعنى المفهوم مثلما

فعل غيره من مؤسسي الرهبانية، إلا أن التقاليد التي أرسى قواعدها والكتابات التي تنسب إليه هي قانون القديس بندكت St. Benedict (٤٨٠ - ٥٤٣ م).

وعن الديرية في غرب أوروبا فيرجع الفضل في إدخالها إلى الغرب إلى القديس اثناسيوس St. Athansius (٢٩٦ - ٣٧٣ م) أسقف الإسكندرية الذي كان قد اصطحب معه راهبين مصريين عندما ذهب إلى روما سنة ٣٣٩ م، أما انتشارها فيعزى إلى القديسين مارتن اف تور Martin Of Tours (٣١٦ - ٣٩٧ م) وهونراتوس اف أرلس Honoratus of Arles (حوالي ٣٥٠ - ٤٢٩ م). ومن الملاحظ أن المؤسسات الديرية الأولى قد اتبعت نظام القديس باخوميوس، ولكن النظام المصري لم يوافق الأحوال في غالة فوضع القديس سيزاريوس اف أرلس Cassarius of Arles (٤٧٠ - ٥٤٢ م) أول نظام للديرية في الغرب.

القديس بندكت:

كان القديس بندكت من نبلاء الرومان في بلدة نورسيا Nursia، وقد نال حظه من التعليم الذي كان سائداً في عصره، ولكنه ما لبث أن عزف عن العالم وغدا راهباً متوحداً متقشفاً متبتلاً في أحد الكهوف بمنطقة في وسط إيطاليا بالقرب من روما وهي سوبياكو Subiaco. وهناك جذبت صرامته أنظار جمهرة كبيرة من الناس فتتلمذوا عليه، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القديس بندكت على رأس جالية كبيرة أثارت حسد بعض الأديرة الأخرى، فانسحب بندكت إلى مرتفعات مونت كاسينو Monte Cassino على الطريق المؤدية إلى نابولي حيث التف حوله عدد من الرهبان وأسس ديراً قدر له أن يصبح أعظم أديرة الغرب شهرة. وفي عام ٥٢٩ م وضع قانونه المعروف باسمه، وهو قائمة طويلة من اللوائح العملية لتنظيم حياة جماعاته التي كرست نفسها للعبادة، فقامت دعوته على أساس التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء لا على أساس المغالاة في تعذيب الجسم وإذلال النفس، كما حرم على الرهبان الملكية الخاصة. ومن الملاحظ أن القديس بندكت وضع قواعده على أساس إنساني وروحي، فقد كان يرى أن الراهب مخلوق بشري يجب أن توفر له

أسباب الراحة الإنسانية والحاجات الضرورية، وإذا كان القديس بندكت قد جعل حياة أتباعه في أديرته حياة إجتماعية، فإنه بالإضافة إلى ذلك قد أدخل عليها نظام العمل اليدوي والذهني في النشاط اليومي للرهبان، كما اعتنى أيضاً بالناحية العلمية فأوجد في كل دير مكاناً للمكتبة ومكاناً لنسخ الكتب تشجيعاً لمن يجدون في أنفسهم ميلاً للكتابة والتأليف. لهذا كانت الأديرة البندكتية مناراً للعلم في المجتمع الغربي الوسيط في الوقت الذي كان عامة الناس يغطون في الجهل. وقد نتج عن المزايا التي تحلت بها الأديرة البندكتية أن سرعان ما انتشرت في أوروبا وحلت محل حياة الرهبنة الفردية والتقشف. ولقد كان لطريقة بندكت أثر عظيم على عدد كبير من شخصيات التاريخ البارزة وخاصة في فترة العصور الوسطى. وأهم ما يتعين علينا معرفته من طريقة القديس بندكت أنها كانت عملية وتلائم العقلية الغربية، والمناخ الغربي وظروف الحياة في أوروبا، وقد ظلت هذه الطريقة هي السائدة باعتبارها النموذج الذي يجب أن تكون عليه الحياة العامة في أوروبا. ورغم هذا كله فكانت كغيرها من الحركات العالمية ما لبثت أن تدهورت مع مرور الزمن نتيجة ازدياد الثروة الموقوفة على الأديرة التابعة لها، وأصبحت الحاجة ماسة إلى حركة إصلاح جديدة.

وقد أعقب عصر القديس بندكت فترة اضمحلال شعر الناس فيها بالحاجة الملحة لإصلاح الديرية، إذ أريد لها أن تظل بمنأى عن شرور المجتمع الإقطاعي. وكان القديس بندكت اف انيان St. Benedict of Aniane حوالي (٧٥٠ - ٨٢١ م) من الدعاة إلى إصلاح الأديرة، لذلك قام بمحاولة لم يكتب لها الإستمرار لأنها كانت محاولة صارمة وغير عملية.

الأديرة الكلونية وأنظمة ديرية أخرى:

وفي عام ٩١٠ - أسس وليم التقي William the Pious دوق أكويتين دير كلوني Cluniac بالقرب من مدينة ماكون Macon ببرجانديا، وقد بدأت الحركة الكلونية بداية محدودة في أول الأمر ثم أخذت في الإنتشار تدريجياً إلى أن أصبحت في القرن العاشر مثلاً يحتذي به في عملية الإصلاح. وكانت الأهداف

الرئيسية لهذه الحركة ترمي إلى فرض قسط واسع من الرقابة على الرهبان، ووضع حد للإنحلال الذي ساد الحياة داخل الأديرة حينذاك، وقد رؤى أن ذلك لا يتأتى إلا عن طريق إخضاع الأديرة التابعة لدير كلوني إلى إشراف موحد، هذا بالإضافة إلى تحديد واجبات الحياة الديرية تحديداً واضحاً. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية استطاع دير كلوني ـ الذي لم يكن يمتاز في أول الأمر عن غيره من الأديرة البندكتية العادية ـ أن يتزعم شبكة مترابطة من الأديرة ذات طابع خاص، وأول مميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الكلونية لم تكن هيئات منفصلة بعضها عن بعض، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم أو رئيس دير كلوني، ويخضعون له خضوعاً مباشراً. وبعبارة أخرى أصبح دير كلوني بمثابة الدير الأم لهذا التنظيم الجديد. كما تميز النظام الكلوني أيضاً بنجاحه في تحرير الأديرة الكلونية من سيطرة الأساقفة المحليين ووضع المنظمة الديرية الكلونية بأكملها تحت سيطرة البابا المباشرة.

والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماماً، فقد اعتمدوا على المبادىء الباخومية في مسألة الحياة الإجتماعية، كما اعتنى رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال اليدوية، ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا نفسها، ونادت وعملت على إصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت نعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شئونها. وقد نجحت الحركة الكلونية في بعث روح قوية في الحياة الديرية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة بفضل الشخصيات الممتازة التي تولت رئاسة دير كلوني مثل القديس أودو St. Odo (٦٩٦ ـ ٩٤٢ م) والقديس أوديلو St. Odilo (٩٩٤ ـ ١٠٤٩ م)، وأيضاً بفضل حماسة الرهبان الكلونيين الذين قاموا بدور واضح في تشجيع الحرب ضد المسلمين في إسبانيا، وفي تشجيع حركة الحج إلى الأراضي المقدسة أيضاً. وعلى أية حال فقد انتشرت الأديرة الكلونية في شمال غرب أوروبا وفي انجلترا نفسها بعد الغزو النورماني لها سنة ١٠٦٦ م، على يد وليم، دوق نورماندیا المعروف باسم وليم الفاتح، وبلغ عدد الأديرة عدداً كبيراً بحيث أصبح ما كان

يوجد منها لا يقل عن مائتي دير خضع رؤساؤها خضوعاً مباشراً لمقدم دير كلوني.

ولكن عوامل الإنحلال والفساد ما لبثت أن تطرقت إلى الحياة الديرية الكلونية عندما أخذ رهبان الأديرة الكلونية يحيون حياة مترفة ويسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس، هذا في الوقت الذي جنحوا فيه إلى البطالة والكسل، يضاف إلى ذلك أن إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة على كاهل رئيس دير كلوني يعتبر نقطة ضعف خطيرة في النظام الكلوني بأكمله، وعلى هذا التركيز أصبح صلاح الأديرة أو فسادها مرهون بشخص رئيس دير كلوني لأنه إذا حاد رئيس دير كلوني عن الصواب فإن ذلك يؤدي إلى سريان هذا الفساد في كافة الأديرة الكلونية، وقد اتضح ذلك في أوائل القرن الثاني عشر عندما بدأت سلسلة من الرؤساء الضعاف بعدما انتهت سلسلة مقدمي دير كلوني الصالحين، وعلى ذلك بدأ الإنحلال يدب في دير كلوني نفسه ثم ما لبث أن سرى هذا الإنحلال إلى بقية الأديرة الكلونية.

وقد أدى هذا الإنحلال إلى دفع بعض الراغبين في الإصلاح إلى البحث عن نظام أكثر بساطة من الأنظمة السائدة في الأديرة الكلونية، وقد أدت هذه الحركة إلى قيام أنظمة ديرية جديدة. ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولي Camaladoli نسبة إلى اسم الجبل المنعزل الذي يقع بالقرب من أرزو الواقعة في إقليم فلورنسا بإيطاليا. وقد اعترف البابا اسكندر الثاني (١٠٦١ ـ ١٠٧٣ م) بهذا النظام في عام ١٠٧٢ م. وكان النظام السائد في هذه المنظمة أن يعيش الرهبان حياة النساك في صوامع منفصلة يقضون وقتهم في التأمل ولا يجتمعون معاً إلا في أوقات الصلاة المشتركة.

وهناك نظام ديري آخر ظهر في القرن الحادي عشر إقامة جماعة الأخوان الكارثوسيان Carthusians نسبة إلى صحراء كارتريز. ويرجع تأسيس هذه الجماعة إلى قديس ألماني الأصل يدعى برونو Bruno من مدينة كلوني الذي أسس أول دير من هذا النوع في عام ١٠٨٤ م ويتميز هذا النظام الديري بالصرامة والتطرف إلى حد بعيد في حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة

الإنفرادية للرهبان داخل صوامعهم وإن كانوا يعيشون جميعاً في دير واحد.

كما أسس راهب فرنسي يدعى روبرت Robert جماعة الأخوان السسترشيان Cistercians حوالي عام ١٠٩٨ م، وقد قامت هذه الجماعة من أجل الرغبة الخالصة في إصلاح الأوضاع القائمة للأديرة، وهذه الرغبة قد انبعثت هذه المرة من دير سيتو Citeaux في برجنديا الذي أسس في نفس العالم على يد جماعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. ولم يلبث هذا الدير أن أخذ في الرقي والتقدم بسرعة بفضل القانون الذي وضعه ستيفن هاردنج Stephen Harding وهو إنجليزي وكان ثالث رؤساء دير سيتو. ويمكن القول بأن النظام الديري الجديد الذي عرف باسم السسترشيان كان محاولة من قبل بعض الرهبان لانتهاج طريق وسط بين النظام المركزي المطلق الذي اتبعه الدير الكلوني وبين نظام الإستقلال المحلي الذي تمثل في الدير البندكتي. ولتحقيق هذا الغرض كان رئيس دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة السسترشيان وكانت له سلطة زيارة الأديرة السسترشيانية التي تفرعت من دير سيتو لمراقبتها والتفتيش عليها، كما كان من حق رؤساء هذه الأديرة زيارة الدير الأم ـ دير/سيتو ـ وتفقد أحواله.

وعلى ذلك يتضح أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطاً إرتباطاً مباشراً بالدير الأم دون غيره من أديرة السسترشيان، ولكن ارتباط الأديرة ببعضها كان يتأتى عن طريق اجتماع عام يعقد في دير سيتو يحضره جميع رؤساء أديرة السسترشيان لمناقشة المسائل التي تهم المنظمة، وكان لهذا المجمع سلطة فعالة في المسائل التي تتم مناقشتها. وإذا كان ذلك هو التنظيم الإداري لهذه الجماعة فإن الغرض الذي قامت من أجله هو العودة إلى التعاليم البندكتية الأولى، مع إدخال نوع من التنسك فيها، وتجنب الملبس الفاخر والتمسك بالبساطة في كل شيء. وقد انقطع اتباع هذه الجماعة عن العالم في الجهات المقفرة واختصوا برعى الأغنام وتعمير الصحاري. وانتشرت أديرتهم بسرعة في الغرب، وأخرجت لنا عدداً من عباقرة ذلك العصر أمثال القديس برنارد. St

Bernard الذي أسس ديره المشهور في كليرفو Clairvaux بفرنسا عام ١١١٥ م وظل يتولى رئاسة هذا الدير حتى نهاية حياته في عام ١١٥٣ م.

والواقع أن القديس برنارد قدم جهوداً واضحة لإعلاء شأن هذه المنطقة، وساعد في ذلك مميزات هذه الجماعة الواضحة، ولعل مما ساعد على ذلك أيضاً أن القديس برنارد كان من أعظم شخصيات عصره، وأنه كان المستشار والصديق الشخصي للبابا يوجينوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣م)، هذا فضلاً عن صلاته الوثيقة بلويس السابع Louis VII ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠ م) وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا (١١٣٨ - ١١٥٢ م). كما أنه لعب دوراً بارزاً في الدعوة للحملة الصليبية الثانية ١١٤٨ - ١١٤٩ م، وأنه أقنع الملك كونراد الثالث بحمل الصليب والتوجه على رأس الجيش الألماني إلى الأراضي المقدسة

وعلى أية حال فإنه في عهد القديس برنارد اكتمل نظام أديرة السسترشيان وتقرر أن تكون الأديرة في مناطق نائية ومتباعدة عن بعضها، كما تقرر أيضاً أن يقوم رهبان الدير بفلاحة الأرض بأنفسهم وعدم الإعتماد على رقيق الأرض، فاستصلحوا الأراضي البور واعتنوا بتربية الأغنام والمواشي والخيل وكان لهم شهرة واسعة في يوركشير لعنايتهم بأصواف الأغنام حتى أضحت تربية الأغنام وتجارة الصوف عماد الحياة الإقتصادية في إقليم يوركشير. أما الدير الرئيسي للمنظمة وهو دير سيتو قد التفت حوله مزارع الكروم الشهيرة. وقد أدى هذا كله إلى ازدياد ثروة الأخوان السسترشيان مما أدى إلى تغلب الروح التجارية على الروح الديرية وبدأ الفساد يدب في المنظمة مثلما دب في المنظمات السابقة من قبل.

النظام البندكتي:

وبعد هذا العرض الموجز للديرية وبعض المنظمات التي انتمت إليها يمكن اتخاذ القانون البندكتي نموذجاً لكافة الجماعات الديرية القديمة. والواقع أن اتباع الجماعة البندكتية قد نذروا أنفسهم مدى الحياة لأداء أربع فرائض أساسية رئيسية، وهي أولاً: تجريد الراهب من أية ملكية شخصية، وثانياً:

الإمتناع التام عن تناول اللحوم إلا في حالة المرض، وثالثاً: العمل اليدوي المستمر، ورابعاً: الملازمة الدائمة للدير مع تخصيص ما لا يقل عن أربع ساعات يومياً لترتيل المزامير وأداء الصلاة بصفة علنية. أما التعبد الخاص فكان اختيارياً.

وتصاعدت هذه الواجبات الدينية تدريجياً بمرور الوقت وازدادت العناية بأمرها حتى أصبح من المشاهد أن يقضي الراهب ما يقرب من حوالي ست ساعات يومياً داخل الكنيسة، ولعل ذلك مرجعه أن القديس بندكت قد أوصى بالعكوف نحو ثلاث أو أربع ساعات يومياً على قراءة الكتب الدينية وإن كان قد أعفى الرهبان الأميين من هذا الإلتزام. والواقع أن قانون بندكت كان نموذج يجمع بين الحكمة العملية والروحية معاً، واعتبر هذا القانون من أعظم الوثائق التي خلفتها لنا العصور الوسطى في قوانين الأديرة وكان له أثر عظيم في تطوير الحياة الديرية المنظمة.

ولنتناول بالترتيب تلك القواعد الرئيسية الأربعة أو الإعتبارات الأربعة وما طرأ عليها من تغيير وهي:

أولاً: تجريد الراهب من أية ملكية شخصية:

لقد انتهى تماماً أمر تحريم الملكية الخاصة، فقبل عام ١٢٠٠ م، وبعده مباشرة أصدرت البابوية مراسيم تقضي بأن الراهب الذي يثبت أنه حائز على ملكية خاصة عند وفاته، تقضي بدفنه في القمامة رمزاً إلى حلول اللعنة عليه، ومع ذلك فقد كان القائمون على تصريف شئون الأديرة طيلة الأجيال الأخيرة من العصور يتقاضون دون حق مصاريف لحسابهم الخاص تحت ستار من الحجج المختلفة، ولم تلبث هذه الظاهرة أن أصبحت أمراً معروفاً، حتى أصبح رؤساء الأديرة الإيطاليين بحصولهم على هذه المصاريف أمراً شاذاً بين أقرانهم، وأن المفتشين على الأديرة لم يكن بوسعهم أن يصرحوا أن الحصول على مثل هذه المصروفات أمراً غير مشروع.

ثانياً: **الإمتناع عن تناول اللحوم إلا في حالة المرض:**

أصبح تحريم اللحوم شيئاً لا وجود له، فقد كان بوسع الرهبان الذهاب

إلى المستشفيات بدواعي المرض سواء أكان هذا الإدعاء حقيقياً أو باطلاً حيث كان تناول اللحم مباحاً في المستشفيات وكان الرهبان يأكلونه فعلاً، ولقد احتج البابوات ومحبو النظام وأبدوا سخطهم على هذه السنّة ولكن دون جدوى. وبدأ التحايل على القانون بشكل أو بآخر، ومن ذلك بناء حجرة في منتصف المسافة بين غرفة الطعام بالدير والمستشفى الملحقة به، حيث أصبح في مقدور الرهبان أكل اللحوم في هذه الغرفة بدلاً من غرفة الطعام الذي لم يكن يسمح فيها بتناول اللحوم. وقد أطلق اسم «حجرة الرحمة» على هذه الغرفة.

وقد حاول البابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٦ - ١٢٤١ م)، تحريم تلك العادة في عام ١٢٢٦م لما عرف عنه من الإهتمام الشديد بإصلاح الرهبانية، ولكن محاولاته باءت بالفشل وظل الحال على ما هو عليه بعد ذلك ما يزيد على قرن من الزمان. وعندما اعتلى البابا بندكت الثاني عشر كرسي البابوية (١٣٣٤ - ١٣٤٢ م)، فإنه حاول في عام ١٣٣٧ م إصلاح الفساد الذي استشرى في الأديرة بتناول اللحوم في حجرة الرحمة وأولى هذا الأمر اهتماماً يفوق ما أبداه جريجوري التاسع، والواضح أنه مشى في تحريم ذلك بصفة قاطعة وأخيراً وجد نفسه مضطراً للسماح بوجود حجرة الرحمة بشرط ألا يستعمل الحجرة أكثر من نصف عدد.رهبان الدير في وقت واحد، وهكذا أصبح من المشروع على الرهبان أن يتناولوا اللحوم في أيام محددة تباعاً. والمهم أنه بعدما أصبح ذلك مشروعاً بصفة دورية على الرهبان نجدهم يطالبون بالمزيد، ومن ذلك ما طالبت به جماعة القديس بندكت في انجلترا من أن التحريم في بعض الأيام أمر غير محتمل بالنسبة للرهبان الجدد الذين لم يتمرسوا على إنكار الذات من أسلافهم، وعلى ما يبدو أنهم طالبوا بإلغاء التحريم تماماً.

ثالثاً: العمل اليدوي المستمر:

وعلى ما يبدو أن ذلك لم يتبع إلا في أول الأمر، وأن الرهبان قد تخلوا تماماً عن العمل اليدوي منذ أمد بعيد، ويروى عن القديس مور Maur الذي كان تلميذاً للقديس بندكت أنه قال بأن الأديرة طالما وصلت بثرواتها إلى رفاهية ملحوظة، فإنه لا يوجد ما يدعو الرهبان إلى العمل كفلاحين، وساد هذا الرأي

وأصبح وجهة النظر العامة. وقد حاول بعض المطالبين بإصلاح الأديرة وذلك بعودتها إلى النظام القديم، فإن مثل هذه المحاولات والعودة إلى العمل اليدوي ما لبثت أن فترت مرة أخرى حتى أنه أصبح قيام الرهبان في الأديرة البندكتية بالأعمال اليدوية أمراً شاذاً وظاهرة تعتبر استثنائية. وقد بدأ ذلك يتخذ ملامحه في حوالي نهاية القرن الثالث عشر حتى أننا نجد أن الخدمات التي كان على الرهبان تقديمها للزراعة، كانت تصدر من هؤلاء الرهبان في معظم الأحيان لا بوصفهم فلاحين لهذه الأراضي بل كانت هذه الخدمات تصدر منهم باعتبارهم ملاكاً للأراضي. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فمن الملاحظ في أواخر القرون الوسطى عدم وجود فوارق تذكر بين الرهبان باعتبارهم ملاكاً وبين العلمانيين الإقطاعيين. وتروي لنا الوثائق أن الرهبان لم يكلفوا أنفسهم مشقة حلاقة لحاهم أو غسل ملابسهم أو طهي طعامهم أو مراعاة نظافة وترتيب منازلهم فقد قام بكل ذلك خدم من الجنسين حيث كان في الأديرة الكبيرة عادة ثلاثة من الخدم لكل راهبين.

رابعاً: الملازمة الدائمة للدير:

وقد أهمل أمر هذه القاعدة الرابعة كما أهمل أمر القواعد الأخرى، فقد طرح جانباً أمر العكوف داخل الأديرة وأصبح إلزام الراهب بالبقاء بالدير أمر ينظر إليه كنوع من العقوبة. ومن ذلك عندما أصدر المجمع الكنسي الإنجليزي في عام ١٤٤٤ م، قراراً يقضي بحبس الراهب ثلاثة أسابيع داخل الدير لمن ينعت راهباً بأنه كاذب، ولمدة سنة كاملة للراهب الذي يعتدي بالضرب على راهب آخر، والواقع أن عدم التزام الرهبان بالبقاء في الأديرة مرجعه إلى تعدد الملكيات للرهبان، فقد كان على هؤلاء الرهبان أن يصبحوا رجال أعمال نشيطين لمراعاة مصالحهم الدنيوية، وأنه أصبح من المألوف أن ترى الرهبان وهم منتشرون في المتاجر والأسواق والطرقات وأنه أصبح أيضاً بوسع أي راهب أن يترك الدير ويذهب إلى المدينة لزيارة أصدقائه.

وعلى هذا الأساس نرى أن القواعد الأربعة أو المثل العليا البندكتية قد اهتزت من جذورها، وبدأ الإنحلال أو الإنحراف في كل ناحية تمارس فيها

الحياة الدينية، ومن ذلك أن إيرادات الأديرة الكبيرة لم يكن يصرف عشرها على الأغراض الخيرية كما كان مفروضاً من قبل، وأن الجشع قد استبد بالرهبان لدرجة أنهم كانوا يضنون على الفقراء بالأموال التي خصصها لهم الواهبون رغم أن هذه الأموال لم تكن ملكاً للأدِيرة بل كانت مجرد حارس عليها.

وإلى جانب الرهبان وتنظيماتهم وجدت هيئات أخرى تميزت بطابع آخر ومن هذه التنظيمات، الفرسان الإسبتارية، والفرسان الداوية، والفرسان اليتوتون، وغير ذلك. ونكتفي هنا بإلقاء الضوء على الفرسان الإسبتارية والفرسان الداوية وجماعة الفرنشسكان وجماعة الدومنيكان.

١ ـ هيئة الفرسان الأسبتارية: Hospitallers

يروى بعض المؤرخين أن جذور هيئة الأسبتارية ترجع إلى عام ١٠٧٠ م . عندما أسس تجار مدينة أمالفي جمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس وذلك بغرض العناية بالحجاج الفقراء، ومن ثم أطلق عليهم فرسان المستشفى التي حرفت باللغة العربية إلى كلمة اسبتارية. وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم. ولم يلبث أولئك الإسبتارية أن دخلوا تحت لواء النظام الديري البندكتي، وصاروا يتبعون البابا تبعية مباشرة. وعند وصول الصليبينن إلى بيت المقدس عام ١٠٩٩ م وحصارهم لها، قامت هذه الهيئة ـ بحكم درايتهم بأحوال البلاد ـ بتقديم مساعدات قيمة للقوات الصليبية الأمر الذي سهل على الصليبيين دخول المدينة والإستيلاء عليها في نفس العام. هذا ويرى بعض آخر من المؤرخين أن هذه الجماعة قد تأسست في عام ١٠٩٩ م بعد استيلاء على بيت المقدس وذلك بهدف علاج المرضى وإيواء الحجاج المسيحيين الغربيين. وعلى أية حال فإن هذه الهيئة أخذت تتبلور بعد وقوع بيت المقدس في قبضة الصليبيين وأصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام خاص، ثم تطورت فأصبح أعضاؤها يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون من فوق ظهور الخيل في نفس الوقت، كما عرفت أيضاً هذه اليهئة باسم فرسان القديس يوحنا.

وقد لعبت الاستبارية دوراً كبيراً في تاريخ الحركة الصليبية عندما تحولت إلى القتال، هذا وقد تولى أمر رئاسة هذه الهيئة بعض الرؤساء المصلحين الذين عملوا دائماً على إكساب منظمتهم أهمية خاصة في النشاط الصليبي، وقد ساعدها على ذلك حصولهم على كثير من الأراضي والإعانات، فضلاً عن أن كثيراً من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الإسبتارية على النهوض برسالتها، وهكذا أصبح للاسبتارية دور فعال في محاربة المسلمين. وكان ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية لا يقومون ولا يقدمون على عمل عسكري إلا باستشارتهم في معظم الأحيان ومن ذلك ما نلاحظه قيام الملك عموري الأول ملك مملكة بيت الصليبيين (١١٦٢ - ١١٧٣ م) بمحاولة استرضائهم لسماعدته في فتح مصر وذلك عندما أصدر عموري مرسوماً بتاريخ الحادي عشر من أكتوبر عام ١١٦٨ م يقضي بمنح الاسبتارية جزءاً هاماً من إيراد مصر، ونصيباً كبيراً من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والإسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم، وذلك كله من أجل مساعدته في فتح مصر. ويضاف إلى ذلك أيضاً أن بعض الأمراء الصليبيين كانوا يمنحون هذه الهيئة بعض القلاع الصليبية في الشام مثلما فعل بوهمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ - ١٢٠١ م) وقدم للاسبتارية مجموعة من قلاع أنطاكية في عام ١١٦٥ م للدفاع عنها ضد المسلمين بعدما عجز هو نفسه (بوهمند) عن إيقاف زحف المسلمين.

٢ - الداوية أو فرسان المعبد Templars:

وإلى جانب الاسبتارية وجدت هيئة الداوية، وقد نشأت هذه الهيئة في أول الأمر على أساس حربي. ويرجع تأسيس هذه المنظمة إلى سنة ١١١٨ م عندما وضع أساسها هيودي باينز Hugue de Payens وجود فري اف سانت أومر Geodfrey of st. Omer. وقد اختارت هذه الهيئة جزءاً من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس ليكون مقراً لها، ومن هنا جاءت تسميتها باسم فرسان المعبد التي حرفت في اللغة العربية إلى كلمة الداوية. ولم تلبث هذه الهيئة أن تبلورت هي الأخرى واتخذت طابعها الخاص الذي اتصف بالطابع

العسكري الديني، وفي عام ١١٢٨ م وصعت أنظمتها ومواعدها في مؤتمر تروي Troyes في فرنسا. وبعدما عمل (هيو) على تنظيم هيئته في فرنسا اتجه إلى انجلترا لحث الفرسان على الإنضمام لهيئته حتى أصبحت تضم نخبة ممتازة من الفرسان والنبلاء الذين جمعوا في الأراضي المقدسة بين الحياة الدينية والحياة العسكرية. وكان أول عمل تعهد الداوية بالقيام به هو حماية الطريق بين بيت المقدس وشاطىء البحر، ثم لم يلبثوا أن أسهموا في أعمال أخرى. .

ومما نود أن نوضحه في هذا المقام أن تأسيس الداوية من جهة، وتحول الأسبتارية إلى هيئة عسكرية من جهة أخرى، قد هيأ لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها في تحقيق كثير من أغراضها، وقد حظيت تلك الهيئات بعطف الملك بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ ـ ١١٦٢ م) بصفة خاصة، ومقابل ذلك قدمت له المساعدات القيمة، مع أنهما كانا يتبعان للبابوية ولا يقدمان الولاء لغيرها. وقد نمت الداوية والأسبتارية نمواً سريعاً في القرن الثاني عشر وزادت أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب، حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثراء واتساع النفوذ.

والواقع أن هاتين المنظمتين سدتا فراغاً ضخماً في حياة الصليبيين بالشام، فمن الناحية الروحية، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن نحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب.

كما قام فرسان الأسبتارية والداوية بجهد ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والزود عنه وفي محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم، في وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة ا لمرض أو الوفاة أو العودة إلى الغرب الأوروبي. ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والأسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر

بمدة طويلة. على أننا نلاحظ أنه إذا كانت تلك الهيئات قد استطاعت أن تقوم بدور كامل في أول الأمر، فإنها لم تلبث أن تحولت عن مبادئها وأغراضها عندما ازدادت امتيازاتها وكثرت ثروتها وأخذت تتدخل فيما لا يعنيها، هذا إلى جانب أنها أصبحت دولة داخل دولة وكنيسة داخل الكنيسة، ولم يحجم رؤساؤها الكاثوليك عن الدخول في منازعات مع بطريق القسطنطينية الأرثوذكسي.

٣ ـ جماعة الفرنشسكان:

يرجع تأسيس هذه الجماعة إلى القديس فرنسيس Francis واسمه الأصلي جيوفاني فرانسسكو برناردو المولود في مدينة أسيس Assisi وهي بلدة صغيرة في إقليم أمبريا بوسط إيطاليا. وكان مولده في عام ١١٨١ - ١١٨٢ م وانتهت حياته في عام ١٢٢٦. وقد عرف باسم فرنسيس اف اسيس نسبة إلى مسقط رأسه. وكان أبوه تاجراً غنياً من تجار الأقمشة وغدا فرنسيس شاباً مرحاً عارماً معطاء، يهوي الفروسية والحياة العسكرية، ثم طرأ على حياته ما جعله يتغير تغيراً كلياً، فقد اشترك ذات يوم في معركة دارت بين بلدته وبين مدينة بيروجيا وانتهى الأمر بوقوعه أسيراً في أيدي أعدائه حيث مرض لبعض الوقت، وأثناء فترة المرض والمعاناة من الأسر تكشفت الصفات الدينية التي انطوت عليها نفسه من حب خالص وبساطة متناهية ولطف ومرح مع سرعة الإستجابة لآلام الآخرين، هذا بالإضافة إلى النجدة والدماثة والرمزية الرفيعة. وقد جعلت هذه الصفات من القديس فرنسيس تميمة ساحرة التف حولها المسيحيون على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم.

ويروى عن القديس فرنسيس أنه لقي ذات يوم رجلاً أبرص، فنزل عن بغلته وقبّل الرجل دون أن يتحرج، وأنه استمع مرة لصوت يهتف به أن يقوم بإصلاح كنيسة خربة قرب أسيس، فتنسك وانقطع عن أهله جميعاً وعاش على صدقات المتصدقين وعمل بيديه في ترميم الكنائس المهجورة بالجهات المجاورة لبلدته. ويروى أيضاً أن القديس فرنسيس استمع في الرابع والعشرين من فبراير عام ١٠٢٨ م إلى واعظ كنيسة بلدته يقرأ الإصحاح العاشر من إنجيل متى، ونصه «وفيما أنتم داهبون أكرزوا قائلين أنه قد اقترب ملكوت السموات، أشفوا المرضى، ابرئوا الأبرص، وأقيموا الموتى وأخرجوا الشياطين، مجاناً

أخذتم مجاناً أعطوا، لا تقتنوا في مناطقكم ذهباً ولا فضة ولا نحاساً، ولا تتخذوا مزوداً في الطريق، ولا ثوبين ولا خفين ولا عصا، لأن الأجير مستحق لأجرة» فأصابت هذه الكلمات هوى في قلب فرنسيس، فانطلق على وجهه في العالم عاري القدمين يدعو إلى التوبة.

وكان القديس فرنسيس يرى أن العالم بحاجة كبيرة إلى التوبة، فالأحوال الدينية على أشد ما تكون من القلق والإضطرابا، والمؤسسات الديرية العظيمة غدت ـ بعد حماستها الأولى ـ راضية بالإنغماس في إدارة ممتلكاتها وبيع أصواف الأغنام، والإضطلاع بمختلف المسئوليات التي تنجم عادة عن امتلاك الأراضي. وأدهى من ذلك أن أعظم البابوات نفوذاً وسلطة وهو البابا أنوسنت الثالث أخذ يجري وراء مشاريع دنيوية ضخمة، دون أن يأبه لما راح في سبيل تلك المشاريع من دماء، وحارت عقول كثيرة من هول الإختلاف بين ما كانت عليه المسيحية الأولى، وما أصبحت فيه الكنيسة من دعة وعافية وطموح، وذاعت النبوءات بين الناس باقتراب عصر جديد عماده المحبة وقوامه الروح النفس، لإزالة ما إنغمس فيه العالم من استهتار بالقانون والرحمة الإلهية،

وانتشرت الهرطقات بين الطبقة الفقيرة التي لم يمسها شيء من التربية أو التعليم، وكان انتشارها احتجاجاً على ما ناءت به تلك الطبقات من المطالب الدينية، وسخطاً من المادية التي ظنها الناس من عمل الشيطان، حتى قيل أنه كان في مدينة ميلان وحدها سبعة عشر مذهباً هرطقياً. وفي إيطاليا بالذات وهي البلد الذي خربته الحرب الأهلية والكراهية والأحقاد، أخذ الناس يتلمسون من البابوية شيئاً يستطيعون الركون إليه في حياتهم المضطربة القلقة دون أن تستطيع البابوية أن تمدهم بشيء لأنها ـ وهي مصدر الفطنة والدراية بالقانون والكنسي، ومصدر العدل الخالص والقسطاس المستقيم ـ عاشت بعيدة كل البعد عن الفقير والبائس والمحروم.

ولذا كان أنوسنت الثالث حكيماً كل الحكمة حين أقر بعد شيء من التردد طريقة القديس فرنسيس، وحين أجاز لهذا القديس أن يصبح قسيساً داخل الهيئة للكنيسة فاندمجت بذلك في سلك الكنيسة قوة دينية هائلة لو لم تندمج في

صفوفها لكانت خسارتها فادحة. وقد أطلق أيضاً على جماعة الفرنسيسكان اسم الأخوان الفقراء Fratres Minores أو الفقراء الرماديين Grey Friars إشارة إلى لون طيالسهم، أو الفقراء فقط Minorites من غير صفة ما، كما يسمى أيضاً الأخوان الفرنسسكان باسم الكورديليين Cordeliers إشارة إلى الحبل الذي يشدون به أوساطهم. والمهم أن أولئك الأخوان انتشروا في إيطاليا، يعظون بالإيطالية بين قومهم ويدعون إلى التقشف والتوبة حيثما وجدوا إلى الدعوة سبيلاً بمختلف القرى الصغيرة على بعد مزارها، وفي الأحياء الفقيرة بالمدن الكبيرة رغم هرطقتها.

وقد زاد في قوة تلك الحركة أن دعاتها الأولين لم يكونوا من رجال الدين أو من المدرسين المتمرسين بأساليب الجدل والحوار والإقناع، لأن الدعوة الخالية من المحسنات اللفظية أدخل إلى قلوب الطبقات الأمية وعقولها حين يلقيها إليهم - في لغتهم الدارجة - رجال ونساء اتخذوا من جمال التقشف والقناعة والمحبة والتواضع شعائر لأنفسهم، وجعلوا من تلك الشعائر أساساً لمواعظهم. وبفضل تلك القوة الدينية الدافقة انقلب الذين لم يكن لهم من الإيمان فيما مضى إلا الإسم فأصبحوا متمسكين بالدين، وأخذ الذين تهرطقوا في التخلص من هرطقاتهم. والخلاصة أنه ليس من المبالغة في القول أن تجنب إيطاليا ويلات حملة صليبية - على غرار الحملة التي أنزلت بالألبيجنسين عام ١٢١٣ م - إنما يرجع إلى القديس فرنسيس وتلاميذه الذين أشبعوا الإيطاليين من طعام رطيب سوغته الكنيسة، بعد أن بدا أن الإيطاليين لن يجدوا شبعاً إلا عن طريق الثورة الجامحة والعصيان.

وإذا كان القديس فرنسيس قد نجح في حقن الدماء في إيطاليا فإنه حاول أيضاً حقن الدماء بين الصليبيين وبين المصريين. ذلك أنه مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الغرب الأوروبي يعمل على الإستيلاء على مصر باعتبارها حصن الإسلام المنيع ومركز إمداده بالمال والسلاح والمؤن والرجال، ومنها تخرج دائماً صيحة الجهاد ضد المعتدي الأثيم، وعلى ذلك ألقت البابوية بكل ثقلها بفرض السيطرة على مصر وأعدت لذلك حملة صليبية ضخمة تعرف باسم الحملة الصليبية الخامسة أو حملة جان دي برين الصليبية على مصر

(١٢١٨ - ١٢٢١ م) وقد نجحت هذه الحُملة في الوصول إلى مصر والإستيلاء على مدينة دمياط في أواخر عام ١٢١٩ م ولكن صمود الشعب المصري ولأسبابٍ أخرى فشلت الحملة وخرجت من مصر تجر وراءها عار الهزيمة والخذلان.

وما نود أن نسجله في هذا المقام هو الدور الذي قام به القديس فرنسيس. فقد حضر فرنسيس إلى مدينة دمياط في سبتمبر عام ١٢١٩ م أي قبل سقوط دمياط حيث كانت هناك بعض العروض السلمية التي قدمها السلطان الكامل للصليبيين بغرض الجلاء عن مصر. وبينما تجري المفاوضات في مجراها الفاشل جاء إلى المعسكر الصليبي في دمياط رجل مشرف على الأربعين من العمر بالي الثياب وليس بمظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل. وكان هذا الرجل هو القديس فرنسيس، وقد وجد فرنسيس الزعامات الصليبية مختلفة حول قبول عرض السلطان بالصلح مع الصليبيين. واشترك فرنسيس في النقاش المضطرب ونصح بقبول عروض السلطان حقناً للدماء. غير أن نصيحته لم تلق مجيباً، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين في فارسكور، حيث قبض عليه الحراس المصريون دون أن يبدي أية مقاومة، وهو يتكلم كلاماً لم يفهم أحد منه شيئاً سوى لفظ. «صلدان» يريد بذلك أنه يرغب في المثول بين يدي السلطان الكامل. وأخيراً وجد القديس نفسه في حضرة السلطان الكامل، تحيط به حاشية قليلة من قادته وتراجمته. وشرح القديس للسلطان سبب قدومه إليه واستأذن أن يعظه ويصف له المسيحية، ويدعوه إليها. وأذن السلطان للقديس في الكلام واستمع له في دماثة المتمكن من عقيدته المحترم لعقيدة غيره.

ومما يدعو إلى الإلتفات هنا أن الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال، ولم يستدع أحد من علمائه لمجادلته، بل اكتفى بالمبالغة في إكرامه. وأكتفى القديس بدوره في الإمعان في إطراء السلطان، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين وطلب منه أيضاً سدانة كنيسة القيامة إلى الأخوان الفرنسسكان، ثم استأذن القديس السلطان في الإتصال بالجنود

الأيوبيين المسلمين، والحديث إليهم فإذن له، وظل القديس المسيحي يتقلب في معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل، فرده السلطان الكامل محروساً إلى أطراف معسكر الصليبيين. ورجع القديس إلى أصحابه ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال المسلمين وسلطانهم، ولينذرهم بما عساه يتطور إليه مشروع الهجوم على دمياط، وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان. لكنه وجد النية معقودة على الحرب، وهي عكس ما أراد أن يسهم به في خدمة المسيحية، فاقتنع بأن لا مصلحة في مقامه، ونفض تراب المعسكر الصليبي عن قدميه، ويمم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للأخوان الفرنسسكان نواة أعمالهم في سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس، حتى العصر الحاضر.

٤ ـ جماعة الدومنيكان:

يرجع تأسيس هذه الجماعة في عام ١٢١٥ م إلى القديس دومنيك Dominic (١١٧٠ ـ ١٢٢١ م) الأسباني الأصل. وكان القديس دومنيك قد تعلم في إحدى المدارس اللاهوتية التي تؤهل أبنائها لوظائف الكنيسة، ومن ثم صبح من كبار الموظفين الكنسيين في إحدى الكاتدرائيات الإسبانية، ثم طرأ على حياته ما غيرها تمام التغيير ذلك أن هرطقياً من هراطقة مدينة تولوز صادف القديس وهو يعمل في الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين، وجادله جدالاً جعل غايته الكبرى طوال حياته أن يحمي الإيمان الصحيح من دعاة الهرطقة الألبيجنسية[١] ـ أو الكاثرية ـ التي اجتاحت جميع ما خالفها من عقائد قديمة بجنوب فرنسا. وظل دومنيك خلال الإحدى عشر (١٢٠٥ ـ ١٢١٦ م) التي

(١) الالبيجنسية: حركة دينية ظهرت بجنوب فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وهي تنكر على الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين ما انغمسوا فيه من مباذل ومفاسد وقتذاك. واشتقت هذه التسمية من كلمة Albi، وهي مدينة بأقصى الجنوب من فرنسا الحالية لانتشار الحركة منها إلى غيرها من البلاد الفرنسية الجنوبية. ولهذه الحركة تسمية أخرى وهي الكاثريين Catharists أي المتطهرين لأن أتباعها دعوا إلى التطهير والتخلص من الشر والخطايا الناجمة عن التعلق بالدنيوية والاستسلام للماديات، وحرموا على أنفسهم التملك والزواج وأكل لحوم الحيوان وسفك الدماء.

ناضلت فيها البابوية ضد الألبيجنسية، يناضل هو تلك الحركة في ميدانها، بالقيام بين الألبيجنسيين بتفسير العقيدة، الصحيحة ودحض الهرطقات حتى جمع طائفة على شاكلته من الواعظين المتوقدين حماسة للدين.

واقتنع بذلك القديس الأسباني، منذ المرحلة الأولى من هذا النضال بأن السبيل إلى التغلب على الألبيجنسية لا يتأتى إلا عن طريق مقارعة الحجة بالحجة، ومقاومة القوة الخفية عند الألبيجنسيين بقوة مساوية. وتفصيل ذلك أن أولئك الألبيجنسيين اعتنقوا طريقة متطرفة في الزهد وراضوا عليها أنفسهم إلى حد كبير، وجعلوا من لزوميات الداخل في طريقهم أن يتخذ في حفل ترسيمه Consolamentum خيطاً مقدساً، كمايفعل براهمة الهند، وأن يتبرأ من أعمال الشيطان الرجيم والكنيسة الكاثوليكية ونزولاً على الإعتقاد بأن المادة في ذاتها شر وبلاء، حرّم الألبيجنسيين الزواج، وعاشوا على الخضروات وأنكروا سفك الدماء في السلم أو الحرب على السواء. غير أن بلوغ مرتبة الكمال في هذه المدرسة الصارمة ـ القائمة على مبدأ التصوف وتهذيب النفس بالتقشف، لم يكن منتظراً أو مستطاعاً لدى جميع الألبيجنسيين، بل اقتصر على الذين يطيقون بلوغ هذه المرتبة، وهم قليلون، وأولئك إذا ماتوا استحالوا ـ على حد قول الألبيجنسيين ـ إلى أجسام روحانية دون توقف أو حساب، وتعين على الكنيسة أن تجعل أرواحهم المصطفاة الطاهرة موضع التقديس والإجلال.

وتلفت دومنيك حوله، فأبصر أن الألبيجنسي بجنوب فرنسا، سوف يتغلب بتقشفه وروحه وروحانيته على المبعوثين البابويين والرؤساء الديريين الذين أفسدتهم نعومة الحياة، وسوف يعجز هؤلاء عن إرجاعه إلى حظيرة المسيحية. ومن أجل ذلك أخذ دومنيك على نفسه ـ وهو الأسباني الذكي ـ أن يعيش طوعاً عيشة المتقشف، ودعا إخوانه ومريديه أن يحذوا حذوه، لا حبا في التقشف والروحانية، بل ابتغاء لوسيلة من وسائل التأثير في الناس. ثم التقى دومنيك بالقديس فرنسيس في إيطاليا، حيث تحقق لديه في صورة واضحة أن الأعراض عن متاع الدنيا ليس أداة للنضال ضد الهرطقة الألبيجنسية المتطهرة بجنوب فرنسا فحسب، بل مصدراً فياضاً بالقوة الروحية لكل مكان وزمان. ولذا عقد

دومنيك النية على تأسيس هيئة للوعظ والإرشاد يكون الفقر عروتها الوثقي، وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابوية مطلقة. وبارك البابا أنوسنت الثالث ذلك المشروع سنة ١٢١٥ م كما بارك مشروع القديس فرنسيس من قبل. وقد أطلق على أتباع القديس دومنيك اسم الأخوان الواعظين Preaching Friars والأخوان السود Black Friars إشارة إلى لون طيالسهم، ويلاحظ أنه أطلق عليهم وعلى الفرنسسكان كذلك اسم الأخوان المتسولين Mendicant Friars إشارة إلى اتخاذهم الفقر والتسول وسيلة للعيش والإتصال بالناس. والمهم أنه أصبح للبابوية جيش كبير من المخلصين للدين.

ومن الواضح أن ذلك الجيش الذي صار في خدمة البابوية اختلف عن أي جيش سبق انضواؤه تحت لوائها، لأن الأخوان الفرنسسكانيين والدومنيكانيين كانوا على أهبة الإستعداد للذهاب إلى كل مكان، والقيام بجميع ما يطلب إليهم أن يقوموا به من أعمال بعيدة الأسفار، أو كبيرة الأخطار، لأن الأسفار والأخطار لم تكن شيئاً عند أولئك الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخدمة في سبيل الدين، وعاشوا خارجين عن سلطة الأسقفيات، مستقلين عن كل أسقف ما عدا أسقف روما، وهو البابا. وقل أن كان بأوروبا إقليم لم يتسرب إليه أخ من أولئك الأخوان، وفي قلبه نفحة من نفحات الخدمة في سبيل الدين، ولذا ندر أو قل كذلك أن قام من المبشرين في مختلف العصور بمثل ما قام به الفرنسسكانيون والدومنيكانيون في البلاد الخارجة عن دائرة المسيحية، إذ تنقلوا بين مراكش وتونس، وارتحلوا إلى فارس والهند وأقاصي أجزاء الصين، ووعظوا أخلاط العامة في موانىء الشام.

على أن جهودهم لم تقتصر على الخدمة الدينية والتبشير، لأن القديس دومنيك أراد أن تهتم طريقته وأهلها بالعلم، بعد أن وضح له أن الوقت حان للدفاع عن الإيمان ضد خصومه من العقليين، فاستعاض شرط التعليم - وهو شرط غير مألوف وقتذاك - عن شرط العمل اليدوي، الذي تطلبته الديرية البندكتية، في القرن السادس الميلادي. ومن ثم غدا فرضاً على الدومنيكانيين أن يعدوا أنفسهم للكفاح العقلي والعمل

المتواصل في ميادين الهرطقة والخطر على الدين. ثم لم يلبث الفرنسسكانيون كذلك حتى طرحوا كراهية زعيمهم القديس فرنسيس للتعليم من باب التقوى، وأقبلوا على العلم والمعرفة التي سبقهم إليها الدومنيكانيون، فملأوا الجامعات، وأسهموا في علوم اللاهوت. وإذا فخر الدومنيكانيون على الفرنسسكانيون بالعبقريين البرت العظيم وتوما الأكويني، فأعظم عباقرة العصور الوسطى كان فرنسسكانيا من أكسفورد وهو روجر بيكون الذي اتسمت نظرياته وتجاربه بالجرأة البالغة، وامتاز عقله بالعمق وسعة الأفق.

وهناك نقطة أخيرة حول جماعة الفرنسسكان والدومنيكان وهي موضوع التملك عند أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين، وخلاصته من الناحية النظرية أن الأخوان لا يتملكون شيئاً من متاع الدنيا، ولكن الفرنسسكان والدومنيكان في الواقع تملكوا الكثير من الأراضي والبيوت والأموال، ومما وقفه الواقفون باسمهم على البابوية، أو على مدينة من المدن، أو على فرد من الأفراد. غير أنه مهما أنكر الروحانيون من الفرنسسكان والدومنيكان على أنفسهم وحركتهم مبدأ التملك، فمن الواضح أن قيام الأخوان على أعباء واجباتهم الرسولية في صورة جدية أو متصلة ـ ولا سيما في المدن ـ أوجب شيئاً من الأوقاف للصرف من دخلها على حاجاتهم الضرورية.

لم يلبث الفرنسسكان والدومنيكان أن أصبحوا من أهل الثروة، فجر عليهم ذلك ما تجره الثروة على أصحابها من أخطار. ولم ينته القرن الثالث عشر الميلادي حتى أضحى الإخوان موضع الإتهام بالترف والبخل والجشع. ولم تكن هذه هي التهم الوحيدة، لأن وعظ الجماهير ـ مع اشتهار الواعظ وطائفته بالثروة ـ جعل الأخوان عرضة لاتهامات أخرى، والواقع أن بعض متأخري الواعظين من الأخوان الفرنسسكان والدومنيكان عمل ما لا يعمل من قلة الحشمة، وقلة الإدراك، وقلة العلم، في سبيل التأثير في جماهيره وتسليتها، حتى غدا الأخوان في نظر الناس من أهل القرى طائفة من المتشردين الفضوليين المهرجين، بالقياس إلى الرهبان مهما بلغوا من حب العافية والخمول، وإلى القساوسة مهما بلغوا من التزمت والجمود.

الفصل الخامس

تطور الحركة الدستورية في انجلترا

١٠٦٦ – ١٣٠٧ م

موقف وليم الفاتح من الإقطاع ورجال الدين

موقف وليم الثاني من رجال الدين

موقف هنري الأول من رجال الدين.

الصراع بين هنري الثاني ورجال الدين
(دستور كلاندون)

الصراع بين يوحنا والإقطاع
(العهد الأعظم)

هنري الثالث ونمو الحكم الديموقراطي.

إدوارد الأول والبرلمان النموذجي.

لكل مجتمع نظام قانوني يحكمه. ويأتي الدستور على قمة القواعد القانونية التي تنظم كل دولة، ويمكن تعريف الدستور بأنه مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة. ويبين الدستور نظام الحكم وتوزيع السلطات والهيئات التي تتولى هذه السلطات، وعلاقة كل من هذه السلطات بالأخرى، كما يبين الدستور حقوق الفرد في الدولة. فالدستور يمثل المصدر الرئيسي والأسمى للقواعد القانونية في الدول بما يتضمنه من مبادىء وأحكام أساسية تتعلق بتنظيم السلطات العامة في الدول وتحديد اختصاصاتها، وبحقوق الأفراد وبيان الإتجاهات السياسية والإجتماعية لنظام الحكم. وتأتي أهمية الدستور من خلال أسلوب التكوين، والمرتبة، والنطاق، والثبات والإستقرار.

أولاً: أسلوب التكوين:

إذا كان القانون (التشريع) يصدر عادة من طريق السلطة التشريعية (المجلس النيابي) فإن الدستور بالنظر إلى أهميته لا بد أن يصدر عن طريق الشعب. وهذا الأسلوب هو المتبع -غالباً بتكوين جمعية تأسيسية لوضع الدستور أو بالإستفتاء أو بالجمع بينهما. ولكن الحال كان مختلفاً في العصور الوسطى، فكان التشريع بأكمله يصدر من الملوك كمنحة منهم إلى الشعب. وربما كان الملوك محاطين ببعض المستشارين ولكن الكلمة الأخيرة كانت للملوك. وتطور الأمر ونازع الملوك رجال الدين في بعض سلطاتهم، كما نازع الملوك أيضاً في مرحلة أخرى القوى الإقطاعية. وخلال الصراع بين الملوك ورجال الدين

والإقطاع ظهرت بوادر الحركة الدستورية، في انجلترا بخاصة وأوروبا بعامة. ولكنها في انجلترا كانت واضحة المعالم إلى حد كبير حتى انعقد البرلمان النموذجي آنذاك في عام ١٢٩٥ م. وإذ ذكرنا كلمة نموذجي فهو نموذجي بالنسبة لما عاصره من أنظمة داخل أوروبا العصور الوسطى.

ثانياً: المرتبة:

يأتي الدستور على قمة النظام القانوني لكل دولة، فالدستور يعلو على كافة القوانين (التشريعات)، والقرارات واللوائح. ولا بد أن تصدر كافة القوانين والقرارات واللوائح متفقة مع نصوص الدستور، بحيث إذا صدرت أية قوانين أو قرارات أو لوائح مخالفة للمبادىء الدستورية فإنه يحكم بعدم دستوريتها.

ثالثاً: النطاق.

والدستور شامل، فهو ينظم ويتناول المبادىء العامة التي تحكم الدولة، واختصاصات السلطات العامة (التشريعية ـ القضائية ـ التنفيذية) والعلاقات فيما بينهما. يضاف إلى ذلك أن الدستور ينص على حقوق وحريات والتزامات الأفراد. وتختلف الدساتير فيما بينها حول هذه المسألة وفقاً للنظام السياسي المتبع (التحرري ـ الإشتراكي ـ الشيوعي . . . الخ).

رابعاً: الثبات والإستقرار.

يتطلب الأمر ثبات التشريعات واستقرارها، فإذا كانت التشريعات تتغير من وقت لآخر وفي أوقات متقاربة فإن هذا يؤدي إلى عدم الثبات والإستقرار. ولذلك لا يعاد النظر في الدستور إلا بإجراءات منصوص عليها في الدستور ذاته، ويكون ذلك بأغلبية أصوات المجلس النيابي واشتراط أغلبية الثلثين في المجلس النيابي، يضاف إليها استفتاء الشعب في بعض الأحيان. والمقصود بذلك تعقيد الإجراءات حتى لا تتلاعب أقلية في مصير الشعب.

بعد هذه المقدمة الإيضاحية حول الدستور وأهميته بالنسبة لكل دولة نقول أنه لا يمكن تطبيق هذه القواعد داخل دول أوروبا في العصور الوسطى،

ولا داخل الامبراطورية البيرىطية، وهي المحتمعات الكبيرة في العالم في هده المرحلة بالإضافة إلى المجتمع الإسلامي الدي كانت تحكمه الشرائع الإسلامية. ومن الصعب تتبع الحركة الدستورية داخل دول أوروبا في العصور الوسطى، لذلك نكتفي بإلقاء الضوء على انجلترا وتطور الحركة الدستورية فيها باعتبارها الدولة التي سارت بخطى سريعة نحو البرلمان

فمنذ بداية الحكم النورماني في انجلترا عام ١٠٦٦ م، مر تاريخ هذه البلاد حتى عام ١٢٩٥ م - أي خلال قرنين وربع قرن من الزمان بمرحلة هامة ودقيقة كان الصراع على أشده بين الملكية ورجال الدين في بعض المراحل، وبين الملكية والإقطاع في مراحل أخرى، أو بين رجال الدين والإقطاع، أو بالإثنين معاً ضد الملكية. وإن كان هذا الصراع قد اتخذ أشكالاً مختلفة فإنه في الواقع كان صراعاً على السلطة. وكانت الحكومة في انجلترا ترى خضوع الجميع سواء كانوا من رجال الدين أو الإقطاعيين أو العامة إلى قانون واحد. ومن هنا كان الصدام بين الملكية ورجال الدين تارة، وبالسادة الإقطاعيين تارة أخرى، أو بهما معاً.

وليس لنا في هذا المجال أن نستعرض تاريخ انجلترا السياسي في هذه المرحلة، ولكننا نكتفي بإلقاء على المواقف المتعلقة بالصراع قافزين عبر الأحداث الأخرى حتى نصل إلى البرلمان النموذجي الذي عقد في عام ١٢٩٥ م، ولذلك نكتفي بإبراء العناصر التي وردت، في صدر هذا الفصل.

ويلاحظ أن الصراع بين الملكية ورجال الدين قد تجلى في مواقف رؤساء أساقفة كنتربري وهي الكنيسة الأولى في انجلترا، وموقفهم من القوانين الذي أصدرها الملك الإنجليزي بغية خضوع رجال الدين للسلطات المدنية ومحاكمتهم أمام محاكمها إذا ما ارتكبوا مخالفات خارج نطاق عملهم مثلهم في ذلك مثل بقية المواطنين. ولكن رفض رجال الدين لهده القوانين وإصرارهم على محاكمتهم أمام محاكم دينية خاصة عقد الأمور وجعلها تتخذ أشكالاً عديدة

كما أن الصراع بين الملكية والإقطاع تجلى في إحساس السادة الإقطاعيين بأنهم أصحاب النقود الحقيقي داخل الدولة وعليهم يقوم عبء الزراعة وغير ذلك بالإضافة إلى عامل هام جداً وهو الدفاع عن الدولة. وقد وجدوا أن الملك كثيراً ما يدخل الحروب من أجل أسباب خاصة بالملك وأطماعه وهم الذين يدفعون الثمن من مواردهم ورجالهم. ومن هنا كان الصراع بين الملكية والإقطاع، وإن كان متأخراً عن الصراع بين الملكية ورجال الدين. ويلاحظ أن السادة الإقطاعيين كانوا يزكون الصراع بين الملكية ورجال الدين لأن في ذلك إضعاف للسلطات الملكية الأمر الذي قوى نفوذهم ووحدهم صفاً واحداً ضد الملكية حتى أصدر الملك يوحنا الوثيقة التاريخية الشهيرة. المعروفة باسم العهد الأعظم عام ١٢١٥ م، وهي الوثيقة التي خلدت اسم الملك بعد ذلك، وعلى أية حال فإن الصفحات التالية سوف توضح لنا بعض تفاصيل هذا الصراع بداية من الملك وليم الفاتح حتى الملك إدوار الأول.

وليم الفاتح والإقطاع ورجال الدين

عندما مات إدوارد ملك انجلترا في يونية عام ١٠٦٦ م، كان هارولد يشغل منصب إيرل وسسكس خلفاً لأبيه جودوين، واختار مجلس الويتان هارولد ليكون ملكاً على انجلترا، وتناسى هارولد القسم الذي قطعه على نفسه بمساعدة وليم دوق نورماندي ليصبح ملكاً على انجلترا بعد وفاة إدوارد المعترف، واعتلى العرش. ولم ييأس وليم وكتب إلى البابا يخبره أن هارولد قد حنث بقسمه. ولما كان من مصلحة البابوية مساندة وليم فقد بارك البابا ادعاء وليم في عرش انجلترا، فاستعد وليم لغزو إنجلترا.

ولم يكن الأمر سهلاً للملك هارولد في حكم البلاد الإنجليزية، فقد تحالف أخوه توستج Tostig مع ملك-النرويج بقصد غزو انجلترا، كما كان هناك بعض الأمراء الخارجين على سلطان الملك، ولم يكن أمام الملك الإنجليزي هارولد سوى الإستعداد لمواجهة القوات بقيادة وليم، ولكن هارولد اضطر للسير شمالاً عندما علم برسو قوات النرويج لمساندة أخيه في توليه عرش

البلاد، وقد نجح هارولد في هزيمة القوات النرويجية عند ستامفورد Stamford وعاد مسرعاً للجنوب لملاقاة قوات وليم النورماندي.

ولكن تحركات وليم كانت أسرع من عودة هارولد إلى الجنوب، ففي الرابع عشر من أكتوبر عام ١٠٦٦ رست قوات وليم النورماندي على الشواطىء الإنجليزية وتقابلت مع قوات هارولد بالقرب من مدينة هاستنج Hastings، وفي هذه المعركة قتل هارولد وإخوته وانتصر وليم انتصاراً ساحقاً، واكتسب لقب وليم الفاتح وأصبح ملكاً على البلاد بعد موافقة مجلس الويتان الإنجليزي.

لم تكن موافقة مجلس الويتان باعتلاء وليم عرش انجلترا نابعة عن قناعة ولكنها تحت تأثير الخوف، وأقسم وليم باحترام القوانين الإنجليزية المتبعة في تلك المرحلة لإرضاء الشعب الإنجليزي. ولكن حكم انجلترا لم يكن سهلاً في مثل تلك الظروف، فقد كان الكثير من الأعيان يتحينون الفرص لطرد وليم والنورمان من البلاد، واستمرت هذه المرحلة حوالي خمس سنوات. ومن هذه الأحداث أن الشعب الإنجليزي أشعل الثورة في البلاد ضد وليم في عام ١٠٦٧ م أي في العام التالي لغزو وليم انجلترا، وقد قامت هذه الثورة التي أشعلها بعض النبلاء عندما كان وليم غائباً عن انجلترا، فقد عاد إلى نوماندیا لتسوية بعض أمور أمارته هناك.

ولما علم وليم بأحداث الثورة عاد مسرعاً إلى انجلترا، ونجح في القضاء على الفتنة بالقوة العسكرية، ولكن القوة العسكرية لا تكفي لمنع حدوث ثورة أخرى. فقد لجأ وليم إلى القضاء على الأمراء بتجريدهم من أراضيهم التي هي مصدر قوتهم، ووزع هذه الأراضي على رجاله المخلصين من النورمان، ولما كان هؤلاء النورمان مضطرين للدفاع عن أنفسهم فقد بنوا القصور المحصنة للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد الأصليين، كما أحتفظ وليم بأراضي شاسعة أصبحت ملكاً للتاج.

ومن المهم هنا أنه على هذه الصورة نشأ نظام إقطاعي جديد، على رأسه وليم الذي ملك كل الأراضي. وهو الذي وزعها على الأمراء النورمان، وتحول

الشعب الإنجليزي إلى عبيد، وإن كان وليم قد سمح لبعض الإنجليز الذين أظهروا ولاءهم للملك بشراء بعض الأراضي، إلاّ أن الطابع الإقطاعي النورماني هو الذي ساد البلاد.

وأمر وليم بتسجيل أسماء الملاك وما يملكونه، وقام رجاله بعمل هذا الحصر الشامل الذي بدأ على ما يبدو في عام ١٠٨٣ م، واستمر العمل فيه حوالي ثلاث سنوات، وكان نتيجة هذا العمل ما يعرف باسم «الإحصاء الملكي» Domesday book وأصبح هذا السجل حكماً في جميع المنازعات العقارية بعد ذلك. وفي عام ١٠٨٦ م أي عقيب الإنتهاء من إعداد هذا السجل دعا وليم جميع الملاك وكان عددهم حوالي ستين ألفاً إلى إجتماع عقد في مدينة سالزبوري Salisbury حيث أقسم كل واحد منهم يمين الولاء والطاعة للملك.

ورغم أن وليم استمد شرعية فتح انجلترا من البابوية، إلا أن سلطته امتدت إلى رجال الدين، فلما فتح وليم انجلترا وجد رجال الدين الإنجليز يعيشون حياة أقرب إلى الحياة المدنية من الحياة الكنسية، ولم يكن بوسع وليم إصلاح كل رجال الدين فاستبدل بعضهم برجال دين من نوماندیا، فاستقدم القساوسة والأساقفة ورؤساء الأديرة، وكان على رأس هؤلاء لانفرانك Lanfranc الذي أصبح رئيس أساقفة كانتربوري. وتعاون لانفرانك مع وليم وتم وضع نظام جديد للأديرة، وفُصلت المحاكم الدينية عن المحاكم الكنسية والتزم وليم بتنفيذ كل الأحكام التي تصدر عن المحاكم الكنسية، وجمع العشور لمعونة الكنيسة. وإن كان وليم وضع كل هذه الإمتيازات للكنيسة إلا أنه تحفظ من جانب آخر واشترط على كنيسة انجلترا عدم دخول أي مبعوث بابوي الأراضي الإنجليزية إلا بإذن الملك، كما طلب عدم إعلان أو تنفيذ أي قرار بابوي إلا بعد الرجوع للملك. وفي خاتمة التنظيمات المتعلقة بالكنيسة تم فصل جمعية الأساقفة عن مجلس الويتان وأصبحت هيئة لها كيانها المستقل ولا تنفذ قراراتها إلا بعد موافقة الملك.

وفيما يتعلق بالتنظيمات المدنية فقد عامل وليم أهل البلاد معاملة الفاتحين. وحتى يثبت دعائم حكمه أقام حكومة زاد عددها مع مرور الوقت،

وتطلب هذا الكثير من الأموال للإنفاق على الحكومة، فأعاد جميع الضرائب التي ألغاها من قبل إدوارد المعترف، وفرض الضرائب أيضاً على الصادرات والواردات واستخدام الطرق والقناطر. كما أمر رجاله بتفتيش جميع الأماكن خاصة الأديرة للبحث عن الأموال عندما نما إلى عمله أن البعض خبأوا أموالهم في سراديب الأديرة.

وفي مجال العلاقات الخارجية فقد كان أهمها الصراع مع فرنسا، ويرجع ذلك إلى أن وليم كان يحمل لقب دوق نورماندي قبل فتح انجلترا، وقد احتفظ بنورماندي بعد الفتح أيضاً، ولما كانت فرنسا تعتبر نورماندي أرضاً تابعة لها وأن دوق نورماندي ليس إلا إقطاعياً يتبع ملك فرنسا، نجد أن الصراع بدأ بعدم اعتراف وليم بهذا الواقع، وأنه أصبح حاكماً لإنجلترا ونورماندي. وقعت الحرب بين وليم وفيليب الأول ملك فرنسا، وانتقل وليم من انجلترا إلى القارة الأوروبية ليحارب في مدينة رون Rouen الواقعة على نهر السين شمال غرب باريس، وتطورت الأحداث وأحرق وليم مدينة مانت Mantes الواقعة على مصب نهر اللوار Loire، ولم يكتف بذلك بل أحرق ما جاورها وفي غمرة هذا النصر سقط وليم من على فرسه وأصيب إصابة قاتلة مات بسببها بعد قليل عام ١٠٨٧ م.

ولما علم أولاد وليم بقرب نهاية أبيهم بدأ الصراع على العرش. وكان ابنه روبرت قد حارب أباه من أجل نورماندي، وانتهى الأمر بأن أوصى وليم بدوقية نورمانديا بعد وفاته لابنه روبرت، وانتهى الصراع بأن حصل روبرت وهو الإبن الأكبر على نورماندي، وأصبح الإبن الثاني وليم روفوس Rufus (الأحمر) والذي عرف باسم وليم الثاني ملكاً على انجلترا ١٠٨٧ ـ ١١٠٠ م. أما الإبن الثالث وهو هنري الأول فقد تولى حكم انجلترا بعد أخيه وليم (١١٠٠ - ١١٣٥ م)، وكانت ابنته أدلا Adela قد تزوجت من ستيفن كونت بلوا Stephen Count of Blois، وحكم ستيفن هذا انجلترا من ١١٣٥ ـ ١١٥٤ م.

وانتهت حياة وليم بعد أن أقام الحكم النورماني في انجلترا، وأوجد نظاماً جديداً للاقطاع، وعمل على تشجيع التجارة والصناعة وأوجد أفكاراً جديدة في

الأدب الانجليزي، ويلغ فن العمارة رقياً كبيراً، وأصلح الكنيسة وأصبح للدولة حكماً مركزياً قوياً، ونشر الأمن والسلام داخل البلاد. ولعل هذا مرجعه إلى النورمان الذين أتوا من نورماندیا وما حملوه معهم من حضارة وحيوية لم تعرفها بلاد انجلترا من قبل. ومن هذا كله نجد أن الانجلوسكسونين والدانيين والنورمانيين قد انصهروا في انجلترا - وإن كان ذلك بعد وقت ليس بقصير - ليكونوا الأمة الانجليزية التي أقبلت على عهد طويل من السلام الداخلي وصمدت أمام أية غزوة خارجية.

وليم الثاني ورجال الدين

استقل روبرت بإقليم نورماندیا وجعلها إمارة مستقلة، وتوج وليم الثاني ملكاً على إنجلترا، وأقسم وليم بمراعاة النظام الذي وضعه أبوه، ولكن وليم حكم البلاد حكماً استبدادياً واختلف مع لانفرانك رئيس أساقفة كانتربوري الذي توج وليم وأصبح مستشاره، وظل وليم على هذا الحال حتى عام ١٠٩٣ م، وفي خلال هذه المرحلة مات لانفرانك عام ١٠٨٩ م، وظل كرسي رئيس الأساقفة شاغراً حتى عام ١٠٩٣ م عندما عين أنسلم Anselm في هذا المنصب. وفي هذا العام أيضاً مرض وليم الثاني ووعد بأن يسلك سلوكاً معتدلاً إذا شفاه الله، ولكنه عاد إلى سيرته الأولى بعد شفائه، وقاوم أنسلم الملك قدر إستطاعته. وفي عام ١٠٩٧ م طلب أنسلم الإذن من وليم ليتوجه إلى روما لتسلم رداء رئاسة الأسقفية من البابا. إعترض وليم وأنذره بعدم العودة إذا سافر إلى روما، ولكن أنسلم غادر انجلترا إلى روما ولم يقم بأي محاولة للعودة إلى انجلترا طوال حكم وليم الثاني الذي انتهى باغتياله بيد مجهولة أثناء الصيد عام ١١٠٠ م.

هنري الأول ورجال الدين

وعندما اعتلى هنري عرش انجلترا أرسل لاستدعاء أنسلم، ولكن أنسلم قد تغير كثيراً في منفاه، وعندما وصل أنسلم إلى إنجلترا رفض الخضوع للملك ورفض أن يتولى الملك أمر تعيين رجال الدين، وناصر العامة

رئيس الأساقفة، وظل أنسلم في نزاع مع الملك منذ عودته عام ١١٠٠ م حتى غادر انجلترا عام ١١٠٣ م، وهبت انجلترا كلها لمناصرة أنسلم. وأخيراً وافق الملك على إجراء مصالحة مع رئيس الأساقفة، وعقد اجتماعاً لهذا الغرض في شهر يوليو عام ١١٠٥ م، وتم الإتفاق على أن تختار جمعيات رجال الكنيسة الرهبان والأساقفة ورؤساء الأديرة الإنجليز بحضور الملك، ثم يقدم هؤلاء الأساقفة ورؤساء الأديرة يمين الولاء للملك باعتباره مصدر أملاكهم وسلطاتهم الإقطاعية، وبارك البابا تلك التسوية وبقي أنسلم في انجلترا حتى مات عام ١١٠٩ م.

ورغم هذا كله فقد حافظ هنري على الأمن والسلم والنظام في انجلترا ودافع عنها عندما غزاها أخوه روبرت دوق نورماندي عام ١١٠١ م بعد عودته من الأراضي المقدسة ومشاركته في الحملة الصليبية الأولى، ونجح هنري في رد الغزاة، ولم يكتف بذلك بل تحين الفرصة وغزا نورماندي وانتصر في معركة تنشبريه Tienchebrai عام ١١٠٦ م وضم نورماندي للتاج الإنجليزي.

وبدا هنري في هذه المرحلة الرجل القوي الذي بدد أطماع فرنسا في نورماندي، ولكي يقوي من مركزه أراد أن يظهر بمظهر الملك الأنجلوسكسوني والنورماندي في آن واحد، فتزوج في عام ١١١٤ م من ماتيلدا Matilda سليلة الملوك الإسكتلنديين والإنجليز قبل الحكم النورماني، فطعم الأسرة الحاكمة بالدم الإنجليزي القديم. وراعى هنري العدالة في حكمه وتجنب الإسراف، ويؤخذ عليه أنه فرض الضرائب الفادحة على الأهالي.

وأنجب هنري الأول وليم الذي غرق مع السفينة البيضاء عام ١١٢٠ م، وابنة حملت اسم أمها ماتيلدا، وأنجبت الإبنة إبناً واحداً من زوجها جوفري أف أنجو geoffrey of Anjou، وهذا الإبن هو هنري الثاني فيما بعد. وأرغم هنري الأول رجال الدين والنبلاء على أن يقسموا يمين الولاء لابنته ماتيلدا وإبنها هنري من بعده، وعندما مات هنري الأول عام ١١٣٥ م إغتصب ستيفن كونت بلوا العرش، وستيفن هذا هو حفيد وليم الفاتح عن طريق ابنته آدل Adele.

وكان على ستيفن أن يحترم حقوق من ساندوه فاحترم حرية الكنيسة وحقوق البارونات، ورغم هذا فإن عصر ستيفن يعرف باسم عصر الفوضى Period of Anarchy وذلك بسبب الحرب الأهلية والفتن التي سادت معظم فترة حكمه تقريباً، التي استمرت حتى عام ١١٥٤ م.

ومال ميزان الحرب لصالح ماتيلدا في عام ١١٥٠ م، عندما كبر ابنها هنري وأصبح في السادسة عشر من عمره حمل لقب دوق نورماندي. ولما مات والده جوفري ورث إقليم أنجـو، وبزواج هنري من اليانور أف أكويتين في عام ١١٥٣ م، بعد طلاقها من لـويس السابع، حكم هنري أكـويتين أيضاً. وبقوات نورماندي وأنجوي وأكويتيـن غزا هنري انجلترا في الوقت الذي كان فيه ستيفن يحارب بعض البارونات في والينجفورد Wallingford التي تقع على بعد خمسين ميلاً غربي لندن، وفي هذه المرحلة مات يوستاخ Eustache الوريث الوحيد لستيفن. وقد بدل هذا الموقف بأكمله، ولما كان هنري صغير السن، فقد عقدت معاهدة تقضي بأن يظل ستيفن ملكاً على البلاد طوال حياته ويصبح هنري بعده ملكاً على عرش انجلترا، ومات ستيفن في العالم التالي ١١٥٤ م، وتوج هنري في ديسمبر من العام نفسه.

هنري الثاني وتوماس بكت:

باعتلاء هنري الثاني عرش انجلترا ينتهي حكم أسرة النورمان في انجلترا ويبدأ حكم أسرة البلانتاجنت Plantagenet، وترجع هذه التسمية إلى جوفري أف أنجـو- والد هنري - الذي كان يلبس عسلوجاً من نبات الرتم المسمى بالفرنسية Planta genêt في قبعته. ومن الواضح أن هنـري انتزع حقـه بحد السيف فبدأ قوياً يحكم مملكة تمتد من اسكتلندا إلى جبـال البرانس وتضم نصف فرنسا تقريباً، ولكن هذه المساحة الكبيرة قد مزقتها الحروب الأهلية أو الأطماع الإقطاعية التي انتهزت فرصة الحروب الأهلية ووطدت مراكزها.

والمعروف عن هنري أنه كان حاد الطبع كثير المطامع ذا ذاكرة قوية، وحتى يسيطر هنري على مملكته بدأ بضـرب الإقطاع ونجـح في إخضاعهم

واحداً بعد الآخر، ودمر العديد من الحصون الإقطاعية، وأقام دعائم الأمن والعدالة والنظام وانتشر السلم داخل أنحاء البلاد. واستطاع هنري إخضاع إيرلندا لحكمه، وبدا كأعظم حكام عصره، واستقبل في بلاطه سفراء الدول الذين يطلبون العون أو المشورة لبلادهم. ولكن هذا الملك القوي الذي يعتبر من أعظم حكام انجلترا، قد تحطم عندما تنازع مع توماس بكت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتربوري.

ويرجع تاريخ توماس بكت عندما ولد في لندن عام ١١١٨ م، من طبقة وسطى نورماندية، وظهر نبوغ توماس وهو صغير فاهتم به ثيوبالد Theobald رئيس أساقفة كانتربوري وأرسله ليدرس القانون المدني والكنسي في بولونيا وغيرها، ولما عاد إلى انجلترا تدرج في المناصب الدينية حتى أصبح رئيس شماسة كانتربوري في عام ١١٥٤ م، وفي عام ١١٥٥ م أصبح الوزير الأول في البلاط الإنجليزي وعمره سبعة وثلاثين عاماً، وأصبح الصديق الحميم للملك هنري ومستشاره وموضع ثقته. وعاش توماس بكت كرجل دنيا على أرفع مستوى، فقد شارك ألعاب الفروسية، وكانت مائدته أفخم الموائد، وقاد الجيوش في الحروب، وكان سفيراً للملك في جهات متعددة وله حاشية لا تقل عن مائتين من الرجال.

وفي عام ١١٦٢ م أصبح توماس بكت رئيس أساقفة كانتربوري، وبتوليه هذا المنصب تبدل حاله تماماً، فقد هجر الحياة الدنيا بكل زينتها وعاش على الخضر والبقول، وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة، وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية، ومن هنا كان الصدام مع الملك هنري.

وكان هنري يرى بسط سلطاته على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين، خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنيسة لا تعاقب رجال الدين على ما يرتكبونه من جرائم. ولهذا السبب استدعى هنري الأشراف ورجال الدين إلى اجتماع عقد في مدينة كلارندون Claredon ـ الواقعة إلى الجنوب الشرقي من سالزبوري ـ عام ١١٦٤ م. وأجبر هنري الحاضرين على توقيع دستور

كلارندون الذي يقضي على الكثير من المزايا التي يتمتع بها رجال الدين.

إعترض توماس بكت على هذا الإجراء، ورفض أن يضع خاتم الكنيسة على هذا الدستور، ولكن هنري أذاع قرارات كلارندون وقدم توماس بكت ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية. وكان لدى توماس بكت من الشجاعة ما جعلته يمثل أمام المحكمة ويعارض رجال الدين الذين ساندوا الملك، وأعلنوا أنه مذنب لخروجه على الملك باعتباره سيدهم الإقطاعي. وفي نهاية المحاكمة تقرر القبض عليه ولكنه اعترض وأعلن أنه سيتأنف الحكم أمام البابا، وخرج من المحكمة دون أن يجرؤ أحد ويقبض عليه.

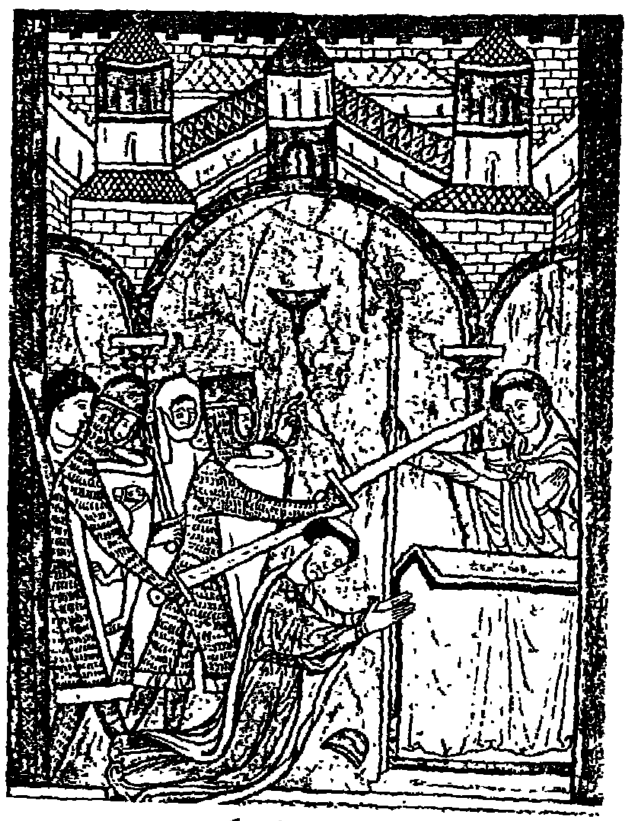
أحس توماس أنه يقف في وجه الملك بمفرده بعدما تخلى عنه رجال الدين، فهرب ليلاً إلى شمال فرنسا واستقر في دير سانت أومر St Omer الواقع في إقليم فلاندرز، ومن هذا الدير أرسل استقالته إلى البابا اسكندر الثالث ١١٥٩ - ١١٨١ م. ولكن البابا رفض قبول استقالته وأيده في موقفه وطلب منه التوجه إلى دير بونتني Pontigny حتى ينجلي الموقف.

وظل الحال على هذا الوضع سنتين نفي هنري خلالها جميع أقارب توماس بكت، وفي عام ١١٦٦ م سافر هنري إلى نورماندي فهاجمه توماس بكت من فرنسا وأصدر قرار الحرمان ضد رجال الدين الذين ساندوا الملك وأيدوا دستور كلارندون. ورد هنري على ذلك مهدداً بمصادرة أملاك جميع الأديرة الواقعة في بلاده وتخضع لدير بونتني إذا استمر توماس مقيماً في هذا الدير، وجال توماس بكت ليعيش على الصدقات طوال ثلاث سنوات.

وفي عام ١١٦٩ م تدخل لويس السابع ملك فرنسا والبابا اسكندر، الثالث وطلب البابا من هنري إعادة توماس إلى منصبه، وهدد بإنزال قرار القطع Interdict، على انجلترا، وهو قرار يقضي بتحريم الصلاة وجميع الخدمات الدينية في انجلترا. ولم يكن أمام هنري سوى الرضوخ لأوامر البابا، وحضر إلى افرانش Avranches، وقابل توماس بكت ووعده بالعمل على إعادة حقوق

الكنيسة، وعاد توماس بكت إلى انجلترا مكرماً في أول ديسمبر ١١٧٠ م، وما أن وطأت قدماه الأراضي الإنجليزية حتى أعلن قرار الحرمان على رجال الدين الذين ساندوا الملك.

وبلغت هذه الأخبار هنري وكان لا زال في نورماندي، وقد وصلت مسامعه بصورة محرفة ومبالغ فيها فغضب هنري، وفسر بعض رجال هنري أن الملك يريد التخلص من توماس بكت. فاتجه أربعة من الفرسان هم ريجنالد فتز أورس Reginald Fitz Urse، ووليم دي تراكي William de Traci وهيودي مورفي Hugh de Morville، وريتشارد بريتو Richard Brito، دون علم الملك واغتالوا توماس بكت عند مذبح كنيسة كانتربوري في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ م، وقطعوه أرباً بسيوفهم.



مصرع توماس بكت
ويرى أثناء إنهياره أمام مذبح الكنيسة على مشهد من أحد رجاله

إهتز العالم المسيحي لهذه الحادثة وأدان هنري بهذه الجريمة الشنعاء، ووجل هنري من هذا الإتهام، وحتى يبرأ ساحته أمر بالقبض على القتلة، وأرسل إلى البابا يعلن براءته من حادثة الإغتيال. ولعل هنري قد أحس بأنه مسؤول عن مصرع توماس بكت بطريقة غير مباشرة، فوعد بأنه سيكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرضى عنها البابا. وبدأ هنري بإلغاء دستور كلاندون وجميع الآثار التي ترتبت عليه، ومن ذلك إعادة جميع أملاك وأموال الكنيسة التي صادرها.

أصبح قبر توماس بكت مزاراً للمسيحيين، وأعلنت الكنيسة قداسته ومنحه البابا اسكندر الثالث لقب قديس في الثاني عشر من مارس عام ١١٧٢ م. كما أتى الملك هنري الثاني إلى قبر توماس بكت في كانتربوري نادماً، وعلى مسافة ثلاثة أميال من قبر توماس بكت ترجل هنري وسار حافي القدمين حتى وصل إلى قبر توماس ثم انحنى أمام القبر وطلب من الرهبان أن يجلدوه، وتزلزل كبرياء هنري أمام قبر صديقه وعدوه الميت، وهنا يمكن القول أن هنري الثاني استسلم وخضع لتوماس بكت الميت، بما لم يستسلم ويخضع به لتوماس بكت الحي.

والمهم أن إرادة هنري الحديدية قد تحطمت وزاد سخط العامة عليه فضلاً عن سخط الكنيسة رغم براءته. وزادت عليه المتاعب من أسرته عندما تآمرت زوجته وولديه ريتشارد ويوحنا لخلعه عن العرش. وتحالف المتآمرون مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا في حروبه ضد انجلترا، وظلت المتاعب تحيط بالملك هنري حتى مات في عام ١١٨٩ م.

وعلى هذه الصورة ربما يرى البعض أن هنري قد تحطم من جراء صراعه مع الكنيسة، ولكن الحقيقة أن هذا الفشل يعتبر فشلاً عابراً في تاريخ انجلترا، فالملك هنري كان يرى تحرير الدولة من القيود الكنسية والإقطاعية، وغايته أن تكون هناك حكومة قوية لها نظام وقانون واحد يخضع له الجميع. وربما كان التوقيت الذي بدأه هنري هو الذي كان غير مناسب، كما أن الطريقة التي عالج بها هنري مشاكل عصره هي التي جعلته يفشل في مشروعاته، فالملك هنري

كان يرى إخضاع الجميع لدستور واحد أمام حكومة مركزية قوية وهي سياسة حكيمة، ولكن المشكلة أن هنري كان يرى أن يقوم هذا النظام في ظل حكومة إستبدادية، وهذا هو لب المشكلة. وعلى أية حال قد أقام هنري حكومة قوية ووحد البلاد بعدما أخضع الأشراف المتمردين، ونجح في هذا الجانب نجاحاً كبيراً ورأس دولة في ظل حكومة مركزية غير مسؤولة إلى أقصى حد. وإذا كان هنري خاض صراعاً رهيباً مع الكنيسة فإن المراحل التالية ستشهد صراعاً أشد ضراوة بين الملكية والإقطاع. وقد خلف ريتشارد قلب الأسد Richard The lion - Heart (١١٨٩ - ١١٩٩ م) هنري الثاني في حكم انجلترا. وقد انشغل ريتشارد بمشاكله مع فرنسا وبالحملة الصليبية المعروفة بالثالثة التي أعدها بالإشتراك مع فرنسا وألمانيا لمحاربة صلاح الدين في بلاد الشام. وبعد أن قضى ريتشارد حوالي عامين خارج بلاده، عاد بعد الحملة دون أن يحقق أهدافاً كثيرة. وبعد ريتشارد تولى عرش انجلترا الملك يوحنا.

يوحنا العهد الأعظم ١١٩٩ - ١٢١٦ م.

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد، وعند تتويجه اضطره رئيس أساقفة كانتربوري هيوبرت والتر Hubert Walter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالإنتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراثه من أخيه. ويتضح من تاريخ يوحنا أنه لم يلتزم بهذا القسم، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه والباباوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وفرض الضرائب الفادحة من أجل الدفاع عن الممتلكات الإنجليزية في أوروبا. ورغم ذلك فإن سياسته لم تكن خاطئة على الدوام.

وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش انجلترا طلق زوجته ايزابيلا اف جلوسستر Isable of Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة وتزوج من إيزابيلا اف انجوليم Isabele of Angouleme. وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجنان Lusignan كونت لامارش La Marche في مدينة بواتو Poitou. وقد غضب الأشراف في انجلترا

وفي بواتو لهذا العمل، كما احتج البارونات النورمانديون في أنجو ومين. واشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس باعتبار أن نورماندي إقطاعية تابعة للتاج الفرنسي، وأن يوحنا باعتباره مالكاً لإقليم نورماندي يعتبر تابعاً لملك فرنسا.

تجدد العداد القديم بين انجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لإذلال يوحنا، وأرسل فيليب إلى يوحنا باعتباره تابعاً له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه، ومن الطبيعي ألا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعاً، وانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني ـ وهو حفيد هنري الثاني ـ نورماندي وأنجو وبواتو، وتشجع آرثر وطالب بعرش انجلترا، وساعده فيليب بالمال والرجال لتحقيق ذلك.

تقدم آرثر لمهاجمة نورماندي وحاصر اليانور والد يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau، وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق ابنها، وأسرع يوحنا إليها وهزم آرثر وقبض عليه وسجنه في فاليس Falaise، ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، ويبدو أن يوحنا أمر بقتله.

انتهز فيليب هذه الفرصة وتقدم لغزو نورماندي وكان الموقف في صالحه، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب يوحنا إلى انجلترا، وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندي، ومين، وأنجو، وتورين في عام ١٢٠٥ م وأقسم إقطاعيوها يمين الولاء للملك فيليب.

ولما كان البابا أنوسنت الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع، ولكن يوحنا لم يمنح البابا الفرصة لمساعدته، فقد اختلف الإثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعيين رئيس أساقفة كانتربوري. ويرجع هذا الخلاف إلى موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جراي Jhon de Gray، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتربوري اختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald

اتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منهما تأييد البابا أنوسنت الثالث، ولكن البابا اعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون Stephen Langton وهو كاردينال انجلترا وأستاذ سابق في اللاهوت في جامعة باريس. اعترض يوحنا على هذا الإجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون كرئيس لأساقفة كانتربوري عام ١٢٠٧ م. وتمسك يوحنا بموقفه وهدد وتوعدا وأنذر الرهبان، وأصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الأراضي الإنجليزية وأعلن تحديه للبابا. رد البابا على هذا الإجراء بإنزال قرار الحرمان على الملك وقرار القطع على انجلترا في عام ١٢٠٨ م وظل القراران حتى عام ١٢١٣ م.

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانده النبلاء لأن انشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء، ونجح يوحنا في هذه المرحلة في الانتصار عسكرياً في حروب مع إيرلندا، واسكتلندا، وويلز. وقد شجع كل هذا يوحنا على التمادي في سياسته المشتددة، فعندما احتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضاً، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالي.

ولما يئس البابا أنوسنت الثالث أصدر مرسوماً في عام ١٢١٢ م بخلع الملك يوحنا من العرش الإنجليزي وحل رجاله من القسم الذي أدوه له، وأعلن أن الأملاك الإنجليزية حقاً لكل من يتمكن من الإستيلاء عليها. وحانت الفرصة للملك الفرنسي فيليب أوغسطس فاستعد لغزو إنجلترا. وعلم يوحنا بهذا الإستعداد فدعا رجاله للحرب. ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفاً من عقوبات البابا.

أحس يوحنا بالخطر، وكان لا بد من التراجع حتى يفوت الفرصة على الجميع فعقد اتفاقاً مع المبعوث البابوي باندولف Pandulf، ويقضي هذا الإتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملاك الكنيسة وأن يضع انجلترا بأكملها تحت السيادة البابوية الإقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع. واتفق

الطرفان على ذلك وسلم يوحنا انجلترا إلى البابا عام ١٢١٣ م، ويعتبر هذا الإستسلام الأول للملك يوحنا ـ ثم استعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعاً، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للبابوية.

وبعد أن سوى يوحنا مشكلته مع البابوية استعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وتحالف مع أوتو الرابع إمبراطور ألمانيا، ولكن بارونات انجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب. ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الإنجليزية بما لديه من رجال. ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس، وفي يوليو عام ١٢١٤ م، هزم أوتو في موقعة بوفين Bouvines، في إقليم فلاندرز وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوروبا خاصة في ألمانيا وانجلترا. ففي ألمانيا اهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريدريك الثاني ليتولى عرش ألمانيا. أما في انجلترا فقد اضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة ألمانيا وتخلى باروناته عنه. وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا عن إقليم بواتو. أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوروبية.

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب الهدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى انجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشاً لمحاربة فيليب. ولكن الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الإنضمام إلى الجيش واعترضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لا فائدة منها، وذكروا الملك أيضاً بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم انجلترا للباباوية. ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض.

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغاً من المال بدلاً من الخدمة العسكرية، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبوا الملك الإلتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنري الأول التي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك. وما طل يوحنا في الرد فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الإمتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صليبية إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس.

ولم يغير هذا مجرى الأحداث فقد اجتمع في إبريل عام ١٢١٥ م في مدينة براكلي Brackley خمسة من الإيرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بمطالبهم للملك، وأرسل الملك إلى المجتمعين وليم لامارش بالإضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن بعدما استمالوا مواطنيها. وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربوري إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار.

تحرك يوحنا بقواته من أكسفورد إلى وندسور Windsor ، وتحرك البارونات من لندن وعقدوا اجتماعاً في رونيمد Runnymedeمن الثامن حتى الرابع عشر من يونية ١٢١٥ م. وتولى أمر الوساطة بين الملك والبارونات ستيفن لانجتون ووليم لامارش، وظلت المباحثات بين الطرفين وهي التي انتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونية عام ١٢١٥ م. ولعب ستيفن لانجتون ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها. ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي بأكمله وبه إستسلم يوحنا الإستسلام الثاني.

والعهد الأعظم يتكون من اثنين وستين مادة بخلاف الديباجة وقد ورد بها.

تحية من يوحنا المتوج ملكاً على انجلترا بعناية الله تعالى، وسيد إيرلندا، ودوق نورماندي وأكويتين وكونت أنجو، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والإيرلات والبارونات. . . وجميع رعاياه المخلصين. . . . وبإرادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا. . . وتلي ذلك البنود الخاصة بالعهد الخاصة بالعهد الأعظم. ونكتفي في هذا الموضع بإلقاء الضوء على بعض بنوده.

فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرة لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها.

وفي البند الثاني «إننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد».

مادة ١٢ : ألا يفرض بدل خدمة أو معونة... إلا المجلس العام في المملكة.

مادة ١٤ : وهي مرحلة انتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام، وقد ورد بها، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات.... نأمر باستدعاء كبار الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والإيرلات وكبار البارونات في البلاد... وغيرهم ممن هم تحت رئاستنا بعقد اجتماع يحدد له موعداً ثابتاً دورياً كل أربعين يوماً على الأقل، ويحدد مكانه أيضاً.

بند ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكائن من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء، أو تنصيب الإبن الأكبر فارساً، أو زواج ابنته الكبرى للمرة الأولى، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوي تعرض من قبل على محكمة الملك، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه: «لن تعرض الشكاوي العادية على محكمتنا، بل ينظر فيها في مكان محدد».

وفي المادة السادسة والثلاثين ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة، وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة.

وفي المادة التاسعة والثلاثين تقرر عدم القبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته، أو يخرج عن حماية القانون أو ينفي، أو يؤذي بأي نوع من الإيذاء، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة، أو بمقتضى قانون البلاد.

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة، فقد نصت على تمتع جميع التجار بحق الدخول إلى انجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة.

وورد في المادة الستين أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل انجلترا كلهم، سواء رجال الدين أم غيرهم.

وإذا اكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم، إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتعت بها انجلترا ولا زال كذلك، وواقع الأمر أن العهد الأعظم جدير بهذه الشهرة. والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم، ولكن علينا أن ننظر إليه في عصره وما كان هناك من أنظمة ولا نقارنه بما نحن فيه الآن، وإذا كان العهد الأعظم بدا وكأنه انتصاراً للإقطاع لا للديمقراطية، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك وهو الذي بدل الملكية المستبدة إلى ملكية دستورية مقيدة.

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم، دون أن يدري أنه خلد اسمه في التاريخ للنزول عن سلطاته الإستبدادية، وأنه الذي جعل من انجلترا دولة تفتخر بأنها أما للديمقراطية. وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفاً لا قوياً، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وسانده البابا في هذه المرحلة، فأعلن الملك والبابا أن العهد باطل. ورفض الأمراء إطاعة أوامر الملك والبابا فأصدر الأخير قرار الحرمان عليهم، ولكن ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربوري صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان.

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون، وقام مبعوثو البابا في انجلترا بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل، فاستنجد نبلاء انجلترا بالملك فيليب أوغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك انجلترا ليس إلا تابعاً له.

أرسل فيليب إبنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش

انجلترا، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر البابا أنوسنت الثالث على لسان مبعوثيه الأمير لويس من الإبحار إلى إنجلترا. وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقبتهم، ولكنه مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٢١٦ م.

هنري الثالث والحكم الديمقراطي:

تغير الموقف تماماً بعد وفاة يوحنا، فقد مال الأشراف إلى الملك المرتقب وانفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا، وتُوج هنري الثالث ابن الملك المتوفي ملكاً على انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ولما كان هنري الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش إيرل بمبروك Pembroke. وقد قام هذا الوصي بإعادة إصدار العهد الأعظم بإسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها والتف الشعب الإنجليزي حول مليكه الجديد وسانده أيضاً مبعوثو البابا وغالبية رجال الدين، وكما يقال لقد فضل الإنجليز ملكاً انجليزياً طفلاً عن ملك فرنسي غريب.

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩ بعد، أن حكم انجلترا حكماً فعلياً منذ تولية هنري الثالث وساعده في هذه الفترة المبعوث البابوي، وتولى الوصاية على هنري المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١ م، حيث عاد إلى روما. وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشيه Peter des Roches أمر الوصاية، وساعده في أمر القضاء هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh.

وفي عام ١٢٢٣ م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنري بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنري لم يتخل عن مساعدة بطرس حتى عام ١٢٢٧ م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني.

وعلى أية حال فقد كان هنري الثالث على شاكلة أسلافه، ففرض الضرائب التي أهرقت النبلاء وكادوا يثورون عليه، وسمح لرجال الدين بجمع

العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الأمبراطور فريدريك الثاني. ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنري الثالث هو أن فترة قصور هنري الثالث، أشعرت الوزراء بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، فتعاون الوزراء مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في انجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن.

إدوارد الأول والبرلمان

كان رجلاً طموحاً، قوي الإدارة، داهية في السياسة، صبوراً في الحرب، خبيراً بالفنون العسكرية، وقاد حملة صليبية وهو أمير في عام ١٢٧١ م ولكنه لم يوفق فقد عاد بسرعة لتولي أمر الدولة. ويعتبر عهد إدوارد من أكثر العهود نجاحاً في تاريخ انجلترا، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها أنه درب جميع الإنجليز على حمل السلاح، وأعاد تنظيم الجيش وبهذه القوة العسكرية فتح ويلز وكسب اسكتلندا عام ١٢٨٤ م. ورفض دفع الجزية التي تعهد بها الملك يوحنا عندما استسلم للباباوية، ولكن هذا كله لم يكن سبباً في تمجيد عهد إدوارد، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠ باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان المثالي الذي عقد في عام ١٢٩٥ م بحضور الإيرلات والبارونات، والفرسان ونواب عن الأساقفة ورؤساء الأساقفة والعامة، هو الذي خلد عهد إدوارد. فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً، كما قرر البرلمان في هذا العام أيضاً أن الأخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعامل بطرق يتفق عليها الناس جميعاً.

وبالإضافة إلى تحسن طرق الإجراءات القانونية والتحقيق القضائي، فإن ما قدمه إدوارد من التشريع التجاري، وصدور قانون التجار عام ١٢٨٣ م،

وعهد التجار في عام ١٣٠٢ م، يعتبر من الأعمال العظيمة التي خلفها إدوارد.

وعندما مات إدوارد في عام ١٣٠٧ م كانت انجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل. ونعمت انجلترا بحكم قوي وفق بين الحرية والقانون.

ومن هذا العرض السريع للصراع الذي قام بين الملك ورجال الدين ممثلين في رؤساء أساقفة كنتربوري، وبين الملك والإقطاع يتضح أن الملك وليم منح بعض الإمتيازات لرجال الدين وفصل المحاكم المدنية عن المحاكم الكنيسة، ولكن وليم وضع بعض الشروط على رجال الدين مثل عدم دخول ممثل البابا أو أي مبعوث له إلا بعد إذن الملك.

أما وليم الثاني فقد اختلف مع لافرانك رئيس أساقفة كنتربوري الذي مات والصراع قائم بين الملك والكنيسة وظل كرسي الأسقفية شاغراً حتى عين انسلم خلفاً له، ولكن وليم الثاني اختلف مع انسلم الذي غادر انجلترا ولم يعد حتى وفاة وليم الثاني.

وفيما يتعلق بالملك هنري الأول فقد أعاد أنسلم إلى كرسيه وقد رفض أنسلم قيام الملك بتعيين رجال الدين واشتد الخلاف حتى تم الإتفاق في النهاية على قيام جمعيات رجال الدين باختبار الاساقفة رؤساء الأديرة بحضور الملك ثم يقوم هؤلاء بتقديم يمين الولاء للملك.

واشتد الصراع كثيراً بين هنري الثاني وتوماس بكت رئيس أساقفة كونتربري. وكان هذا الصراع من أشد الصراعات في تاريخ انجلترا، فقد ألغى هنري الثاني كافة حقوق رجال الدين ومحاكمهم الكنيسة بموجب دستور كلارندون، وقد انتهت هذه الأحداث بمصرع توماس بكت وقيام هنري الثاني مضطراً بإلغاء دستور كلارندون.

وتحول الصراع في عهد يوحنا إلى الصراع مع الإقطاع، وقد انتهى هذا الصراع بانتصار الإقطاع وقيام الملك يوحنا بإصدار وثيقة العهد الأعظم ١٢١٦ م التي خلدت اسم هنري رغم هزيمته أمام الإقطاع.

أما في عهد هنري الثالث، فقد حدث تعاون بين الملكية والوزراء ونجح الجميع في النهوض بالدولة وساروا بها بطريقة أفضل من العهود السابقة وخلال هذه المرحلة وضع أساس الحكم الديمقراطي في انجلترا.

وفي الختام كان عهد أدوار الأول حيث نما البرلمان نمواً ملحوظاً عندما اجتمعت كافة طوائف الشعب في البرلمان الذي اعتبروه برلمانياً نموذجياً عام ١٢٩٥ م. وفي هذا العام وضعت الأسس الدستورية الرئيسة، وهي عدم فرض الضرائب إلا بموافقة البرلمان ووضع مبدأ في غاية الأهمية يعتبر الأساس العام للديمقراطية وهو ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً.

الفصل السادس

الاحوال الإقتصادية

التقدم الزراعي

الصناعة

التجارة

وسائل النقل

النقابات الطائفية

العملة والنظم المالية

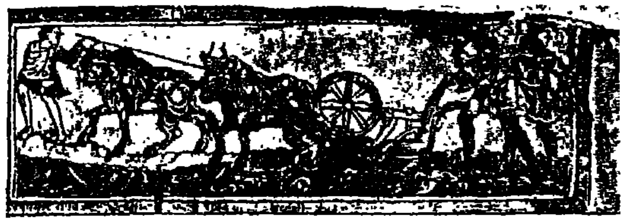
يعتبر الإقتصاد عصب الحياة في كافة مراحل العصور، والحقيقة أن الأعمال الإقتصادية تبدأ بالزراعة والتجارة وأخيراً الصناعة وقد يرتبط بذلك الكثير من الأعمال المكملة أو الميسرة أو المرتبطة بها. ومن ذلك تنظيم أصحاب الحرف في نقابات، وقيام وسائل سليمة وسهلة وآمنة للنقل، وأخيراً العملة التي تحرك كل هذه الأمور. والواقع أن العملة تعتبر بمثابة القلب في هذا الجسم الضخم فإذا انضبط القلب صح الجسد، وإذا اختل القلب وهن الجسم.

وليس لنا في هذا المجال أن نخوض كثيراً في الإقتصاد ونظرياته ولكننا نكتفي بإلقاء الضوء على بعض الأمور الهامة التي سادت في أوروبا العصور الوسطى والتي تعطي للقارىء قدراً معقولاً ومقبولاً عن هذه الأحوال في هذه المرحلة.

التقدم الزراعي:

في مطلع القرن الثاني كانت الصناعة والتجارة قد نمت نمواً ملحوظاً، وحل التعامل بالعملة النقدية محل المبادلة. وزاد الطلب على العمال الزراعيين والحرفيين. وقد أثر ذلك كله على الأحوال الزراعة داخل الريف وبدلها تبديلاً كبيراً وبدأت المدن في حاجة إلى العمال، لذلك أعلنت بلديات هذه المدن أن أي فرد يأتي من الريف أو من أي مكان ويقيم داخل المدينة سنة كاملة دون أن يطلبه سيده الإقطاعي، يعتبر حراً ويتمتع بكافة حقوق مواطن المدينة وبحماية المدينة وسلطانها.

وتطور الأمر إلى أبعد من ذلك في مراحل لاحقة، فقد دعت مدينة فلورنسا Florence في عام ١١٠٦م الفلاحين الذين يقطنون في القرى المجاورة لها للحضور إلى المدينة والإقامة فيها واعتبارهم أحراراً مع تمتعهم بحماية قانون المدينة. وسلكت بعض المدن الأخرى مسلكاً آخر لجذب العمال إلى مدنهم، ومن ذلك أن مدينة بولونيا Bologna التي دفعت للسادة الإقطاعيين الزراعيين بعض المال لترك عمالهم للإنتقال إلى المدينة للعمل بها. وفي الوقت نفسه هرب بعض الفلاحين من قرى الإقطاع واتجهوا إلى أراضي جديدة في شرق الألب وأصبحوا أحراراً في فلاحتها.



January—Ploughing



March—Breaking Clods



August—Reaping



December—Threshing and Winnowing

جانباً من أعمال الزراعة في فصول السنة

وبقي بعض الفلاحين في قراهم مع السادة الإقطاعيين، ولكن هؤلاء الفلاحين تمردوا على سادتهم ورفضوا دفع الضرائب الإقطاعية، وقد ترتب على هذا الرفض متاعب كثيرة. وتطور الأمر من رفض البعض إلى رفض كل الفلاحين أداء الرسوم الإقطاعية وأقسم الجميع على العمل ضد السادة الإقطاعيين وهاجموا مقر سادتهم وأتلفوا كل الوثائق خاصة المتعلقة بهم، كما سار البعض في بعض القرى إلى أبعد من ذلك بأن دمروا أو أحرقوا قصور السادة الإقطاعيين وهددوا بترك الأرض إذ لم تستجاب مطالبهم.

وفي وسط هذا التمرد أعلن أرقاء مدينة سانت ميشين ـ دي ـ نوفيه في مطلع القرن الثاني عشر بأنهم سوف يتزوجون بالمرأة التي يرغبون الزواج بها متحدين بذلك قوانين الإقطاع، كما أنهم أعلنوا أيضاً أن من حقهم أن يزوجوا بناتهم بما يشاؤون، وبعد مائة عام أعلن أرقاء الأرض في مدينة سانت أرفول ـ دي ـ كوربي رفض أداء ضريبة الأموات إلى رئيس دير المدينة.

وأمام هذا التمرد الذي ساد جانباً كبيراً في أوروبا وجد السادة الإقطاعيين أنه من الصعب التعامل مع هؤلاء الأرقاء بالوضع السائد وأن يقدم هؤلاء الأرقاء الإنتاج داخل القرية. كما أن مقاومة هذا التمرد كان يكلف الإقطاعي نفقة كثيرة. لذلك تحول الأمر ومنح السادة الإقطاعيين للأرقاء حريتهم مقابل بعض المال، وأجروا بعض الأراضي إلى الفلاحين الأحرار بأجر نقدي مثلما كان الحال في البلاد الإسلامية والامبراطورية البيزنطية.

ولعبت النقود دوراً كبيراً في هذه المرحلة، فقد اشتدت رغبة السادة الإقطاعيين في الحصول على المال لشراء المنتجات الصناعية، وعندما بدأت الحروب الصليبية اشتدت الحاجة أكثر إلى المال. وطالبت الحكومات بدفع الضرائب نقداً لا عيناً. ومع تطور التعامل بالنقد تضرر السادة الإقطاعيين من تطور سعر العملة لأنهم أجروا الأراضي بمبالغ بسيطة ولم يعد بوسعهم ملاحقة ارتفاع أسعار العملات، فاضطر بعض السادة الإقطاعيين إلى بيع أراضيهم، وأصبح كثير من الفلاحين ملاك أرض فزرعوها وعملوا فيها بإخلاص وعادت عليهم وعلى القارة الأوروبية بالخير الوفير.

وكما هي العادة كانت هناك مجتمعات تعيش على تربية الأغنام والماشية وصناعة منتجات الألبان بجوار المدن المزدحمة بالسكان، فقدمت هذه المجتمعات إنتاجها للمدن وعاد عليها ذلك بالربح الوفير. وفي هذه المرحلة أيضاً كان الإستقرار النسبي في أوروبا قد شجع على سير السفن داخل الأنهار فحملت الخمور والمنتجات الأخرى من منطقة إلى منطقة. كما سارت السفن في مياه البحار المحيطة بالقارة الأوروبية لصيد الأسماك خاصة الرنجة من البحر البلطي فزاد نمو المدن من هذه الأعمال خاصة مدينة لوبك Lubeck التي نقش أهلها رسوماً للرنجة على مقاعدهم في الكنائس، كما أقر الهولنديون بفضل الرنجة وقالوا أن مدينة امستردام بنيت على أشواك الرنجة.

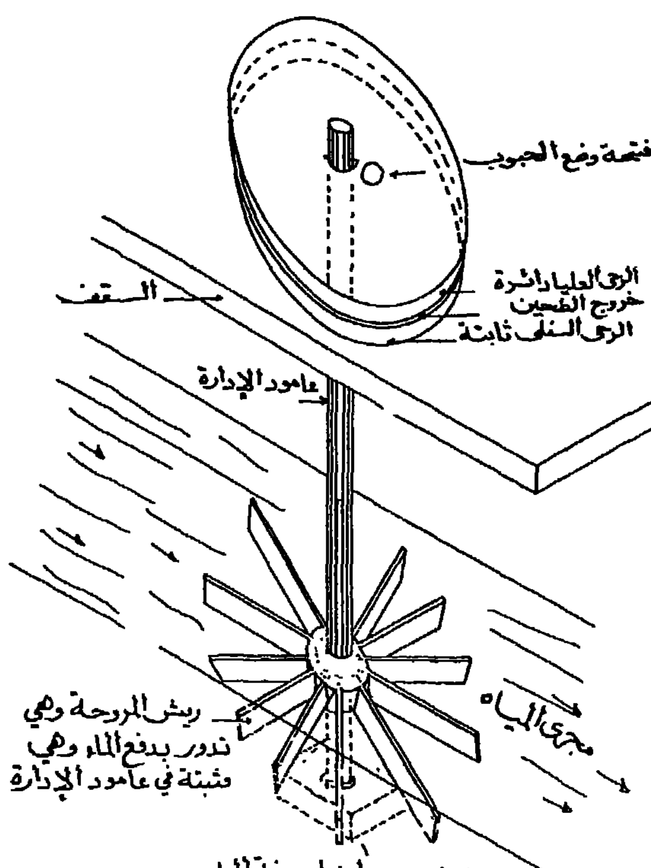
ومع الإتصال الذي تم بين أوروبا وبلاد المسلمين، والتحول الزراعي الذي ساد أوروبا تحسنت أساليب الزراعة رويداً رويداً، وابتكر المزارعون وغامروا كما يحلوا لهم دون تدخل من السلطات المحلية. وفي إقليم فلاندرز اتبع أهل الإقليم بعد ما استصلحوا بعض الأراضي الدورة الزراعية الثلاثية وذلك بزراعة جزء من الأرض وزراعة الجزء الباقي بالكلأ لمدة ثلاث سنوات ويتخذ الكلأ غذاء للحيوانات، وفي الوقت نفسه يعمل الكلأ على زيادة خصوبة الأرض.

واستخدم الفلاحون المحاريث ذات السهام الحديدية التي تجرها الثيران في حراثة الأرض، هذا بالإضافة إلى المحاريث ذات السهام الخشبية، وأقبل الفلاحون على تهجين سلالات الماشية منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وهكذا خاضوا المعارك ضد الطبيعة وتحملوا ذلك كله في شجاعة بالغة.

ويمكننا أن نتصور هذا القدر من الشجاعة إذا علمنا أن مياه البحر طغت على أراضي هولندا وبلجيكا العديد من المرات وأهلكت الآلاف من السكان، ولكن أهل البلاد لم يستكينوا بل جلبوا الصخور من ألمانيا واسكندنافيا وأقاموا بها الأسوار التي حمت أراضيهم وأضافوا إلى أراضيهم آلاف الأفدنة من أرض البحر. وبالإضافة إلى ذلك جفف الفلاحون المستنقعات وقطعوا أشجار الغابات الزائدة عن حاجاتهم وزرعوا هذه الأراضي أو بنوا عليها القرى التي أمدت المدن بحاجتها من الطعام.

الصناعة :

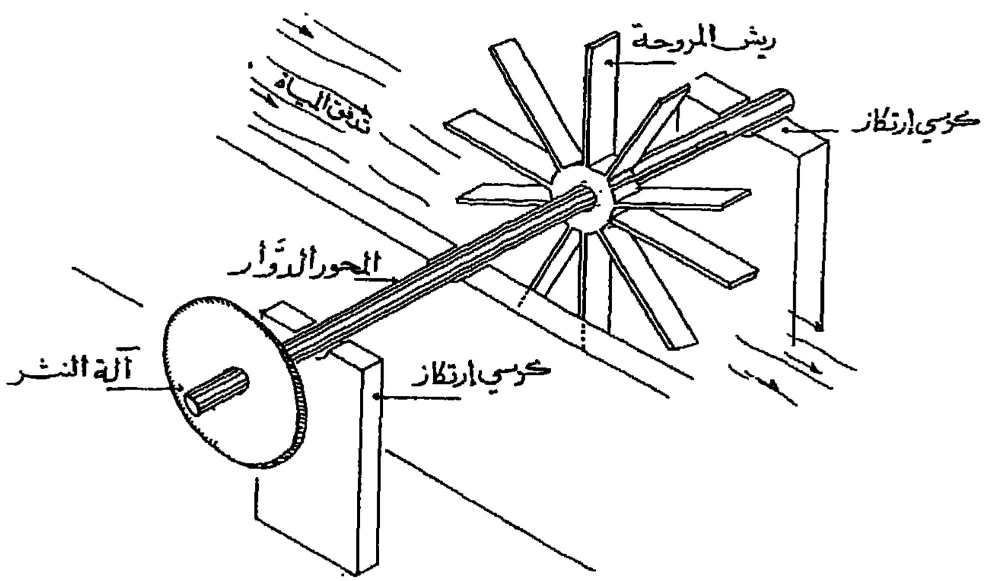
تقدم الناس في العصور الوسطى تقدماً ملحوظاً في تسخير القوى الطبيعية واستخدامها لمصلحتهم. والدليل على ذلك أن الملك وليم الفاتح عندما حصر الممتلكات الإنجليزية في «كتاب الإحصاء» عام ١٠٨٦ م، نرى أن ما سجل في هذا الكتاب حوالي خمسة آلاف طاحونة مائية في البلاد. والطاحونة المائية تتكون من عجلة خشبية أو معدنية يوضع حولها ريش من الخشب أو المعدن أيضاً، ونوضع هذه العجلة في مقابل سطح مائي يتدفق إلى السفل فتدور العجلة حول محور (عامود) يرفع إلى أعلى مخترقاً سقفاً ويمتد فوق السقف قليلاً، وحول المحور نفسه على السقف توضع الرحى. وبواسطة دفع الماء



رسم توضيحي لطاحونة الماء

تدور العجلة بسرعة تتوقف على قطرها وقوة دفع الماء فيدور أيضاً معها الجزء العلوي من الرحى. ويقوم الفلاح بوضع الحبوب بين شقي الرحى فيتم طحنها.

وتدل الآثار الباقية على وجود مثل هذه الطاحونة في مدينة حماه وفي مدينة الفيوم بمصر وهي لا تزال تعمل حتى الآن ، كما تدل الرسومات الباقية في أوروبا على رسم من عام ١١٦٩ م يصور عجلة مائية تتضاعف دوراتها بعدد من التروس المتدرجة في الصغر، كما يمكن تقليل السرعة بعدد من التروس المتدرجة في الكبر. وعلى أية حال أنه بفضل استخدام طواحين الماء والتحكم في سرعتها أصبحت هذه الآلة المائية أداة هامة في الأعمال الصناعية، وانتشرت في كافة



رسم توضيحي لآلة مائية لنشر الخشب

أنحاء أوروبا. وتشير حوليات العصور الوسطى إلى وجود آلة مائية لنشر الخشب في عام ١٢٤٥ م في ألمانيا، كما ظهرت في مدينة دوية Douai عام ١٣١٣ م آلة أخرى، استخدمت في صناعة الآلات الحادة. والحقيقة أن طواحين الماء انتشرت في أوروبا منذ عام ١١٠٥ بعد أن نقلها الأوروبيون عن بلاد المسلمين. ويلاحظ أن هذا التاريخ يبعد ست سنوات فقط عن دخول

الصليبيين إلى بيت المقدس عام ١٠٩٩م، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثالث عشر امتلأت مدن أوروبا بطواحين الماء وعلى سبيل المثال كان في مدينة إيبر Ypres حوالي مائة وعشرون طاحونة مائية.

وبعدما تحسنت أدوات العمل، وزادت حاجة الناس إلى بعض السلع والمشغولات خاصة عندما عرفوا بعضها عن طريق المسلمين في الشرق، نهضت أعمال التعدين نهضة واضحة. كما أنه عندما حل النقد المالي محل المقايضة زادت حاجة الناس إلى العملة الذهبية والفضية الموثوق فيها. كما أن ثراء البعض شجعهم على لبس الحلي. وقد ساعد كل هذا على استخراج الذهب من العروق المعدنية في بلاد أوروبا مثل انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا. وفي ألمانيا بالذات اشتهرت مدينة يواقيمتالر Joachimstbaler وهي مدينة صغيرة اشتهرت بصناعة النقود. ومن اسم هذه البلدة جاء تسمية تالر Thaler الألمانية، والكلمة الإنجليزية Dollar وكلاهما يعني «دولار» الذي استخدم عملة أمريكية منذ عام ١٧٩٢ م.

وكانت ألمانيا أكبر مصدراً للمعادن الثمينة في أوروبا، ومن هنا جاءت قوتها السياسية والعسكرية في العصور الوسطى بالإضافة إلى قوتها الإقتصادية. وبحث أهل أوروبا عن المعادن، فكان الحديد في جبال هارز Harz في وستفاليا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وانجلترا، ومن جزيرة ألبا. وظهرت معادن أخرى مثل الرصاص والقصدير والزئبق والكبريت والشب بالإضافة إلى الفضة.

واشتدت الحاجة إلى الفحم فبدأت إنجلترا في استخدام مناجمها القديمة، وكان لكثرة استخدام الفحم وكثرة الدخان المتصاعد من استخدامه سبباً في تلوث الهواء، حتى أن ملكة انجلترا غادرت مدينة توتنجهام عام ١٢٣٧ م بسبب هذا التلوث. وقد حرمت انجلترا استخدام الفحم عام ١٣٠١ م في أسفل المدينة لأن الهواء يدفع الدخان إلى المدينة نفسها.

وقد أدى ظهور المعادن في بعض الأماكن إلى التنافس على امتلاكها، وعندما كان الإقطاع قوياً إدعى السادة الإقطاعيون أن من حقهم فقط الإنتفاع بهذه

المعادن واستغلالها وسخروا عمـالهم ورقيق الأرض في الحصول على هـذه المعادن لمصلحتهم، كما ادعت الأديرة والكنائس أيضاً هذا الحق في الأراضي التي تقع تحت ملكيتها.

وبعـد ظهور الملكيـة القويـة في أوروبا أصـدر الأمبراطـور فريـدريك باربارو سا Frederick Barbarossa (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) قانوناً في ألمانيا ينص على أن الملك فقط هو صاحب الحق في استغلال المعادن التي في بلاده، وأن يتم استخراج هذه لمعادن تحت إشراف الدولة. وأصـدر ملوك انجلترا هـذا القانون أيضاً فيما يتعلق بالذهب والفضة، ولكن الملوك تركـوا الحق لملاك الأراضي، في استخراج المعادن الدنيئة لصاحب الأرض بشرط دفع ضريبة عنها للدولة.



الحداد

ومع توافر المعادن انتج الصناع مشغولات جميلة، كما أنتج الصناع أيضاً أدوات حديديـة ممتازة بـالإضافـة إلى صناعـة الأسلحة واستخـدموا الحـديد المطاوع والحديد الزهـر في مشغولاتهـم. وكـان الصناع يستخـدمون الـطرق Smiting ومنه جاء اسم الحداد Smith، واستخدم الحديد المـطاوع أيضاً في

صنع تشكيلات للنوافذ وأماكن المرتلين كما استخدم في المفصلات الضخمة لتقوية الأبواب والنوافذ.

وكانت صناعة صب الأجراس من الصناعات الهامة لاحتياج الكنائس وأبراج المدن إليها. لذلك تنافس الصناع على إنتاجها وعملوا على صب أشكال عديدة وبأحجام مختلفة ذات أصوات مرتفعة أو منخفضة حسب دواعي الحاجة إليها وذات نغمات متعددة أحسن الأعداد لها.

وتطورت صناعة الأقمشة، وكان تجار الجملة ينظمون مصانع إنتاجها ويقدمون الخامات الأولية ويجمعون العمال ويمدونهم بالمال اللازم، وكان هؤلاء التجار هم الذين يوزعونها ويحددون أسعارها ويتحملون خسارتها وربحها، ولجأ البعض إلى طرق غير ذلك. وقد أدى هذا كله إلى انضمام الآلاف من الرجال والنساء في بلاد أوروبا إلى هذه المهن وغيرها. واشتهرت مراكز عديدة في أوروبا بالذوق الرفيع، وجنت من وراء ذلك أرباحاً طائلة. ومن المراكز الشهيرة في إنتاج شاش البطانات مدينة ليون Lown الذي عرف باسمها، كما اشتهر بصناعة التيل الرفيع مدينة كمبرية Cambrai وعرف هذا النوع من القماش باسم كمبريك Cambric.

وفي مدينة فلورسنا تخصصت نقابة الصوف في إنتاج الأقمشة الصوفية، وكان في هذه المدينة حوالي ثلاثمائة مصنع للنسيج، يعمل فيها حوالي ثلاثون ألف نساج في عام ١٣٣٦ م. ونظمت نقابة الأقمشة أعمالاً واسعة لإستيراد الصوف وتصدير منسوجاته. وأنتجت مدينة جنوة الحرير بخيوطه الذهبية بالإضافة إلى المخمل (القطيفة)، وهكذا كانت مدينة فينا. أما انجلترا فكانت محتكرة لصناعة الصوف في شمال أوروبا وصدرت إنتاجها إلى أوروبا خاصة إقليم فلاندرز، وكانت أصواف أغنام المرينو Merino المصدر الرئيسي للدخل القومي في إسبانيا.

وأدخل المسلمون في إسبانيا فن صناعة الحرير، وكانت مدن بلنسية، وقرطاجنة، وإشبيلية ولشبونة، من مراكز هذه الصناعة، وعندما انتقلت هذه

المدن إلى المسيحيين احتفظت بصناعتها. كما نقلت ألمانيا هذه الصناعة في القرن الثامن، وحذت إيطاليا حذو ألمانيا في القرن التاسع. كما استطاع روجر الثاني ملك صقلية (١١٢٩ - ١١٥٤ م) نقل صناع جزيرة كورفو Corfu إلى إيطاليا عندما غزا الجزيرة عام ١١٤٧ م. ونزل هؤلاء الصناع في مدينة بالرمو Palermo وأسكنهم روجر في أحد قصورها وأصبحت المدينة مركزاً هاماً في صناعة الحرير.

وفي العصور الوسطى كذلك ظهرت العديد من الصناعات نذكر منها صناعة القرميد Tiles التي حلت محل الأسقف المصنوعة من القش أو الخشب لتجنب الحرائق، ولمزايا صناعة السقوف من القرميد فرضت مدينة لندن، استخدام القرميد في صناعة الأسقف عام ١٢١٢ م، في عهد الملك يوحنا. كما ظهرت حرفة طلاء الآنية الخزفية بطبقة زجاجية وذلك برش سطحها وهي رطبة بمادة الرصاص ثم حرقها بالنار.



صناعة الزجاج

ومن الزجاج صنعت المرايا والنوافذ وبعض الأواني وإن كانت على نطاق ضيق. وكانت صناعة الزجاج فتم بالنفخ كما هو الحال الآن في المصانع الصغيرة.

وكانت أوروبا تستورد الورق من بلاد الشرق الإسلامية أو من إسبانيا، ولكن مدينة رافنزبرج Ravensburg أدخلت صناعة الورق إليها في نهاية القرن الثاني عشر. وقد بدأت صناعة الورق في أوروبا من القماش التيل، لذلك كان الورق متيناً قوياً وإن كان أكثر تكلفة.

ومن أهم السلع التي سادت كافة أنحاء أوروبا في الريف والمدينة صناعة الجلود، ومنها كانت صناعة السروج والقفازات وأكياس النقود والأحذية، وغير ذلك من المصنوعات الجلدية. وقد تفنن الصناع في تشكيلها واتقان صنعها. أما الفراء فكان نادراً يستورد من الخارج لملابس الملوك والأشراف.

وانتشرت صناعة الخمرو وجنى أصحابها أرباحاً طائلة، واحتكرت بعض بلديات المدن صناعتها، وكانت ألمانيا على قمة الدول المنتجة للخمور، واشتهرت مدينة هامبرج بمعاصرها الخمسمائة وإلى منتجاتها من الخمور.

وكان الصناع الذين يعملون في معظم هذه الصناعات أحراراً من الناحية الفردية، وهم المالكين لأدواتهم وثمار أعمالهم. وكانت معظم الأعمال تتم في بيوت العمال أو الحوانيت الملاصقة لمنازلهم وكانت الصناعة بطيئة، ولكن المنافسة هي التي دفعت الناس إلى الإنتاج مستخدمين عضلاتهم وقوتهم البشرية، راضين قانعين، وكان العمال معجبون بمهارتهم وثقتهم في أنفسهم، وكان العامل هو الصانع والفنان الذي يزداد سعادة وهو يشكل المشغولات بين يديه.

التجارة

مما لا شك فيه أن التجارة تزدهر بسبب اتساع نطاق الزراعة والصناعة، وكان لسيطرة المسلمين على ثغور البلاد الواقعة في شرق البحر المتوسط

وجنوبه، وعلى تجارة هذه البلاد، بالإضافة إلى ذلك غارات المسلمين وأهل الشمال والمجر على بلاد أوروبا وما حل بها من الإضطراب أيام خلفاء شارلمان (٨٠٠ ـ ٨١٤ م)، كان هذا كله سبباً في سوء الأحوال الإقتصادية في القرنين التاسع والعاشر. وعندما استطاع النظام الإقطاعي حماية الزراعة وإعادة تنظيمها، وروض قراصنة الشمال الذين أصبحوا زراعاً وتجاراً، وعندما نجح الإيطاليون في السيطرة على بعض ثغور البحر المتوسط، وسيطر الصليبيون على سواحل الشام، نجد أن الغرب الأوروبي وجد نفسه يتصل بحضاوتين أرقى من حضارته هما الحضارة الإسلامية والحضارة البيزنطية. وبذلك أتيحت الفرصة في القرن الثاني عشر لانتعاش الإقتصاد الأوروبي.

وكانت الخطوة الأولى في الإنتعاش الإقتصادي هي إزالة القيود التي كانت تعطل التجارة الداخلية، فقد كانت الحكومات القصيرة النظر تفرض ضرائب كثير على نقل البضائع وبيعها ـ تفرضها على دخول الثغور وعبور القناطر واستخدام الطرق أو الأنهار أو القنوات وأثناء عرض البضائع على المشترين في الأسواق والموالد. وكان السادة الإقطاعيون يرون أن من حقهم أن يحصلوا الضرائب على البضائع المارة بأملاكهم كما تفعل الدول في هذه الأيام، وكان من بين السادة الإقطاعيين من يبسط حماية فعلية وخدمات صادقة للتجار فأمدوهم بالحراسة المسلحة وكرم االضيافة التي تيسر لهم القيام بأعمالهم. ولكن تدخل الدول وسادة الإقطاع في شئون التجارة أدى إلى وجود ما يقرب من ستين مركزاً لجمع الضرائب على طول نهر الألب وحوالي سبعين على نهر الدانوب.

وكان التجار يؤدون أكثر من خمسين في المائة من بضاعتهم نظير نقلها في نهر الراين أو على شاطئيه، هذا فضلاً عن تعرض التجار والمسافرين لأشد الأخطار في الطرق البرية والمسالك المائية التي تندلع فيها الحروب الإقطاعية، فضلاً عن أخطار الجنود المرتزقة واللصوص والقراصنة المنتشرين في الأنهار والبحار، غير أن «هدنة الله» Truce Of God و «سلم الله» Peace Of God وفرتا للتجارة البرية فترات للسفر آمنة أماناً نسبياً. كما أن ازدياد قوة الملوك خفف

بعض الشيء من السرقات وأوجد إلى جانب ذلك نظاماً موحداً للمقاييس والموازين، وحدد الضرائب ونظمها ومنع بعضها من بعض الطرق والأسواق في أيام الموالد الكبرى.

وفي الحقيقة لقد كان البائعون الجوالين يتجولون ببضائعهم الصغيرة على الأبواب داخل الشوارع والأزقة، كما كان الصناع يبيعون مصنوعاتهم في حوانيتهم، والبائعين والمشترين يجتمعون في المدن أيام الأسواق، والأشراف يقيمون الأسواق قريبة من قصورهم، والكنائس تسمح بإقامتها في أفنيتها والملوك يديرونها في المخازن الواقعة في عاصمة ملكهم. ولكن تجارة الجملة والتجارة الدولية كانتا تتركزان في المواسم الإقليمية والموالد الدينية التي كانت تقام في أوقات معينة في المدن. وكان كل موسم من هذه المواسم يدوم حوالي ستة أسابيع أو سبعة، وكان تعاقبها على هذا النحو بمثابة سوق أوروبية تدوم معظم أيام السنة، يلتقي فيه التجار القادمون من كل أنحاء أوروبا والشرق. كما كانت هذه المواسم مصدراً كثيراً للثراء والجاه كما حدث لفرنسا في القرن الثاني عشر.

وقد ساعد على انتشار التجارة إلى حد كبير ما طرأ من تحسن في بناء السفن فضلاً عن إقامة المنارات في المدن الساحلية لإرشاد السفن، كما كان لكثير من هذه المدن أحواض واسعة لإيواء السفن. وكانت هذه السفن في العادة ذات سطح واحد أو لا سطح لها على الإطلاق، وتبلغ حمولة بعض هذه السفن حوالي ثلاثين طناً. وكان في مقدورها لصغر حجمها وقلة حمولتها أن تسير لمسافات بعيدة في الأنهار. هذا فضلاً عن السفن التي اجتازت البحار متنقلة بين ميناء وآخر، ولهذا أضحت المدن الساحلية ثغوراً مزدهرة. وكانت بعض السفن التي تجوب البحر المتوسط أكبر حجماً من السفن الأخرى، فقد كانت تحمل حوالي ستمائة طن وتتسع لألف وخمسمائة راكب، وكان بعضها يبلغ طولها حوالي مائة قدم. وعدد بحارتها حوالي مائة وعشرة.

وكان طراز السفن السائد لا يزال هو الطراز القديم ذا السارية أو الساريتين

والشراع أو الشراعين والهيكل المنخفض ذا الصفين أو الثلاثة صفوف من المجاذيف، وقد يصل عددها إلى ما يقرب من مائتين مجداف. وكان غالبية المجدفين رجالاً أحراراً متطوعين لأن البحارة العبيد كانوا قليلي العدد في هذه المرحلة من العصور الوسطى. وكان تقدم فن إدارة الشراع إلى الريح الذي كان معروفاً في القرن السادس تقدماً بطيئاً حتى القرن الثاني عشر حين أضيف إلى الشراع المربع القديم أشرعة أمامية وخلفية، هذا فضلاً عن ظهور البوصلة البحرية التي لا يعرف بدايتها على وجه التحديد ونجاح الملاحون الصقليون حوالي عام ١٢٠٠م في إمكان استعمالها في عرض البحر بتثبيت الإبرة الممغنطة فوق قطب متحرك. ومع هذا فقد مرت حوالي مائة عام بعد هذا الإختراع قبل أن يجرؤ الملاحون ـ عدا أهل الشمال ـ على الإبتعاد عن السواحل والإبحار بالسفن وسط البحار الواسعة.

وظلت الرحلات البحرية بطيئة كما كانت في الأزمان القديمة، فكان اجتياز المسافة بين مرسيليا إلى عكا يتطلب خمسة عشر يوماً، كما كانت السفن معرضة لأخطار القراصنة فضلاً عن تعرض بعضها للهلاك عندما تتحطم أثناء سيرها. وكان يعوض المسافرين عن هذه المتاعب بعض التعويض أن أجور السفر كانت قليلة، وكانت أجور نقل البضائع والأسفار البعيدة تتناسب مع هذا الأجر القليل، ولهذا امتاز النقل البحري على البري امتيازاً تبدلت بسببه خريطة أوروبا الاقتصادية في القرن الثالث عشر.

وعندما استولى النورمان على جزيرة سردينية عام ١٠٢٢م. وجزيرة كورسيكا عام ١٠٩١م من المسلمين فتح مضيق مسينا والبحر المتوسط للملاحة الأوروبية، يضاف إلى ذلك فإنه عندما استولى الصليبيون على سواحل الشام في بداية القرن الثاني عشر الميلادي انطلقت التجارة الأوروبية وتحررت من قيودها وقامت شبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على اتصال الأوروبيين بسواحل الشام، بل شملت كذلك اتصالها ببلاد المسلمين في إفريقيا وآسيا ثم امتدت إلى أبعد من هذا إلى بلاد الهند والشرق الأقصى.

وقد كانت التجارة قديماً تحمل من الصين أو الهند وتجتاز التركستان والعراق إلى موانىء الشام، أو تخترق أواسط آسيا إلى بحر قزوين أو تنقلها السفن إلى الخليج العربي ثم تسير شمالاً في نهر الفرات أو دجلة، ثم تجتاز الجبال والصحراء حتى البحر الأسود أو بحر قزوين أو البحر المتوسط أو تسير السفن في البحر الأحمر ثم تنقل بالقوافل أو القنوات إلى القاهرة أو الإسكندرية.

كما كانت التجارة تنتشر من ثغور إفريقية الإسلامية إلى آسيا الصغرى وبيزنطة أو إلى جزائر قبرص ورودس وكريت أو إلى ثغور بلاد اليونان أو إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وكانت الأمبراطورية البيزنطية تضيف بضائعها إلى هذا التيار الجارف وتغذي التجارة الصاعدة في نهر الدانوب والدنيبر إلى وسط أوروبا وروسيا ودول البحر البطلي، وعندما استولى البنادقة على مدن بيزا وجنوة سيطروا على التجارة الغربية البيزنطية وحارب البنادقة من أجل ذلك لكي تكون لهم السيادة على البحار.

وقد يسر مركز إيطاليا بين الشرق والغرب لها الإستفادة أكثر من سائر الدول بتجارة مع أوروبا وبيزنطة والشام وسائر بلاد المسلمين. فقد كان لها على البحر الأدرياتيكي مدائن البندقية ورافنا وأنكونا وباري وبرنديزي وتارنتو وكان لها في الجنوب مدينة كروتون Croton وعلى الساحل الغربي مدن سالرنو وأمالفي ونابلي وبيزا، هذا بالإضافة إلى مدينة فلورنسا التي كانت مركزاً مصرفياً لهذه التجارة، وكانت أنهار إيطاليا تنقل بعض هذه التجارة إلى داخل القارة الأوروبية، لذلك ازدهرت المدن الإيطالية خاصة جنوة وبيزا والبندقية.

وعلى سبيل المثال كان أسطول جنوة التجاري يتألف من حوالي مائتي سفينة، وكانت تتاجر بكامل حريتها مع بلاد المسلمين في إفريقيا وإسبانيا، كما تاجرت البندقية مع مصر وبيزا مع تونس، كما كان كثير من هذه المدن الإيطاليا تبيع الأسلحة للمسلمين في أيام الحروب الصليبية رغم تنديد البابوات الأقوياء أمثال أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) بالتجارة مع

المسلمين، ولكن الذهب كان أقوى أثراً من الدين، ولهذا ظلت التجارة المحرمة من وجهة نظر البابوات تجري في مجراها الطبيعي فقد قال البنادقة «نحن أولاً تجار وثانياً مسيحيون».

وتطلعت ثغور فرنسا الجنوبية وإسبانيا الغربية إلى نصيب من تجارة البحر المتوسط، وعندما اضمحلت جنوة من جراء حروبها مع البندقية استعادت مرسيليا إلى حين ما كان لها في سابق أيامها من تفوق بعد أن كسدت تجارتها أيام سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، ولكن مدينة منبلييه Montpellier أخذت خلال القرن الثاني عشر تنافسها في أن تكون باب فرنسا الجنوبي مدفوعة في هذه المنافسة بسكانها المختلفي الأجناس وثقافتها المتعددة الأصول.

كما استفادت برشلونة أيضاً من أهلها الذين ينتمي بعضهم إلى الأسر التجارية اليهودية القديمة التي بقيت فيها بعد خروج المسلمين. وإذا كانت جبال البرانس تفصل إسبانيا المسيحية عن سائر أوروبا فقد وجدت في برشلونة وفي مدينة بلنسية وسيلة للإتصال بعالم البحر المتوسط، فقد كانت ثغورها الغربية قادس Gadiz وبوردو Bordeaux ونانت Nantes ترسل سفنها لتسير بإزاء ساحل المحيط الأطلنطي حتى مدينة لندن.

كما كانت جنوة في القرن الثالث عشر والبندقية في القرن الرابع عشر ترسلان سفنهما إلى هذه الثغور الأطلنطية كلها مخترقة مضيق جبل طارق، وعلى ذلك فإنه قبل أن يحل عام ١٣٠٠ م كانت التجارة التي تعبر جبال الألب قد نقصت وأخذت تجارة المحيط الأطلنطي تسمو بثغور هذا المحيط.

وساعدت الأنهار الفرنسية على نمو التجارة في الأقاليم الواقعة على شطآنها، ولم يكن بوسع انجلترا وقتئذٍ أن تنافسها، ولكن الثغور الواقعة على القناة الإنجليزية كانت ترحب بالسفن والبضائع الأجنبية، وكان نهر التايمز محاطاً منذ ذلك العهد البعيد بأحواض السفن المتجاورة الممتدة على شاطئيه وصدرت منها المنسوجات والصوف والقصدير لتستورد بقيمتها التوابل من بلاد

المسلمين، والحرير من الصين، والفراء من روسيا، والخمور من فرنسا.

وكان أنشط من هذه كلها وأنشط من أي ثغر في أوروبا الشمالية مدينة بروج Bruges العاصمة التجارية والمنفذ الخارجي لاقليم فلاندرز Flanders بغلاتها الزراعية والصناعية، فعند هذه المدينة كان يتقاطع محور التجارة الأوروبية المحور الشرقي الغربي والمحور الشمالي الجنوبي. وكان موقع مدينة بروج القريب من شاطيء بحر الشمال والمقابل لانجلترا قد يسر لها استيراد الصوف الإنجليزي لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية. وإلى جانب ذلك فقد كانت المدينة بعيدة إلى حد ما عن الساحل بعداً جعل ثغرها مأوى أميناً للسفن، ولهذا اجتذبت إليها أساطيل جنوه والبندقية وفرنسا الغربية، وسمحت لهذه المدن بأن توزع بضائعها بطرق متعددة على الثغور الأصغر منها. ومن الملاحظ أنه عندما ازداد النقل البحري أمناً ورخصاً، اضمحلت التجارة البرية وحلت مدينة بروج محل المدن ذات المواسم التجارية، وأضحت المدينة هي السوق الذي تلتقي فيه التجارة الأوروبية، وكانت حركة النقل التجاري على أنهار ألمانيا الغربية وفرنسا الشرقية تحمل إلى مدينة بروج لتصدر منها إلى روسيا واسكندناوة وانجلترا وإسبانيا وانتعشت بلدان أخرى في أوروبا بفضل هذه التجارة النهرية.

وكانت بروج أشهر مدن القسم الغربي من العصبة الهانسية Hansentic League وكان منشأ هذه العصبة وأمثالها أن المدن التجارية في أوروبا الشمالية كونت فيما بينها في القرن الثاني عشر أحلافاً مختلفة سماها الألمان هانس Hanses أي اتحادات أو نقابات، تهدف إلى تشجيع التعاون الدولي ضد المنافسة الخارجية وحماية أنفسهم من القراصنة وقطاع الطرق وتقلب العملة وجباة الضرائب والمكوس الإقطاعية.

وظلت العصبة الهانسية قرناً من الزمان عاملاً من عوامل الحضارة، فقد طهرت البحر البلطي وبحر الشمال من القراصنة ونظمت المجاري المائية وعدلتها فجعلتها مستقيمة ورسمت خرائط للتيارات البحرية والمد والجزر

وأبانت عليها موضع القنوات وأنشأت المنارات البحرية والثغور والقنوات وسنت القوانين البحرية وجمعتها. وجملة القول أنها أحلت النظام مكان الفوضى في تجارة أوروبا الشمالية.

ولقد ضمت هذه العصبة طبقة التجار وجعلت منهم هيئة قوية، فحمت بذلك الطبقة الوسطى من الأشراف، وعملت على تحرير المدن من سادة الإقطاع، وليس أدل على قوتها من أنها قاضت ملك لأن جنوده أتلفوا بضائع العصبة، وأرغمت ملك انجلترا على أن يؤدي ما يلزم من النفقات لإقامة الصلوات طلباً لنجاة أرواح تجار العصبة الهانسية الذين أغرقهم الإنجليز.

وبفضل هذه العصبة انتشرت تجارة الألمان ولغتهم وثقافتهم نحو الشرق إلى بروسيا وأستونيا ورفعت بعض البلدان الصغيرة إلى مصاف المدن الكبرى.
وكانت العصبة تتحكم في أوصاف وأثمان البضائع التي يتجر فيها أعضاؤها، وبلغ من اشتهار أعضائها بالإستقامة أن استخدم الإنجليز لفظ Easterlings أي (رجال الشرق) بمعنى «نقي أو صاف» وإذا أضيف هذا المعنى إلى لفظي فضة أو ذهب يعنى موثوق به أو صادق، ومن هذه الكلمة جاءت كلمة العملة الانجليزية الإسترليني.

وأضحت العصبة الهانسية على مر الزمن عاملاً من عوامل الإستبداد والحماية معاً، فقد أسرفت في فرض القيود الإستبدادية على استغلال أعضائها، وأرغمت المدن المنافسة لها بجميع الوسائل على قبول شروطها ولم تتورع عن استئجار القراصنة للاضرار بتجارة أولئك المنافسين، وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول، وبذلت كل ما في وسعها للضغط على طبقة الصناع التي تستمد منها بضائعها، وترتب على ذلك أن أصبح الكثيرون من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الإحتكار قيدت بها التجارة في أي وقت من الأوقات، ولذلك ثار العمال في انجلترا عام ١٣٨١ م وطاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانسية، واقتفوا آثارهم حتى داخل الكنائس وقتلوا العديد منهم.

على أية حال فقد نجحت العصبة في عام ١١٦٠ م في الإستيلاء على جزيرة جوتلاند Gotland التابعة للسويد واتخذت مدينة فزبى قاعدة وحصناً لتجارة البحر البلطي وأخذت بعدئذٍ تبسط نفوذها على المنطقة، ولم تقتنع العصبة بهذا بل وجهت احتكارها نحو السيطرة على تجارة نهر الراين وأرغمت مدينة كلوني على الخضوع لها مع أنها كانت صاحبة عصبة مستقلة. أما في جنوب كلوني فقد وقفت في وجه العصبة الهانسية عصبة أخرى وهي عصبة الراين التي تكونت عام ١٢٥٤ م. وفي جنوب هذا كله تولت كل من مدينة اجزبرج Augsburg ومدينة ألم Ulm ومدينة نورمبرج Nuremberg أمر التجارة الآتية من إيطاليا. كما قامت رجنزبرج Regensburg وفينا على الطرف الغربي لنهر الدانوب وهو الشريان العظيم الذي كان يحمل غلات الأجزاء الداخلية من ألمانيا إلى بحر إيجه عن طريق سالونيك أو إلى القسطنطينية والروسيا والبلاد الإسلامية وبلاد الشرق عن طريق البحر الأسود، وهكذا دارت التجارة الأوروبية دورة كاملة وعمت التجارة الخارجية كافة الأنحاء.

وكان أولئك التجار الذين يرسلون بضائعهم في هذه الطرق مجتازة أراضي كثيرة متباينة يسكنها أقوام ذو وجوه مرتابة ولغات غريبة وعقائد مختلفة. لقد كان أولئك التجار ينتمون إلى شعوب مختلفة ويأتون من جهات متباينة، وكان معظمهم من الشوام واليهود والأرمن واليونان. وكانوا في العادة ينتقلون في البلدان مع بضائعهم، وكثيراً ما كانوا يقطعون مسافات طويلة ليبتاعوا بأرخص الأثمان ما يحتاجونه من البضائع من الأماكن التي تكثر فيها، ثم يعودون ليبيعونها بأثمان مرتفعة في البلدان التي يندر فيها وجودها. وكانوا في العادة يشترون ويبيعون بالجملة. وكان التجار رجالاً مغامرين، وفرسان القوافل مسلحين بالخناجر وغيرها متأهبين للقاء قطاع الطرق والقراصنة ومشاكل الطريق.

وكان أشد ما يضايق هؤلاء التجار اختلاف الشرائع وتعدد جهات التقاضي، وكان عليهم وضع قانون دولي للتجارة والملاحة. لقد كان التاجر إذا سافر براً يخضع إلى قضاء محاكم مختلفة وربما خضع إلى قوانين مختلفة في

أملاك كل سيد إقطاعي، وكان من حق هذا السيد الإقطاعي، أن يستولي على بضائعه التي سقطت على الأرض في الطريق، وإذا جنحت سفينة أصبحت بمقتضى «قانون التحطيم» من حق الملك أو السيد الإقطاعي الذي جنحت عند ساحل أرضه، وكان مما يفتخر به أحد السادة البريطانيين أن صخرة خطرة في ساحل بلاده أثمن من درة في تاجه.

ولقد ظل التجار يقاومون هذا الظلم الصارخ سنين طويلة حتى بدأوا يلغونه تدريجياً في القرن الثاني عشر. وكان التجار الدوليون قد جمعوا في هذه الأثناء طائفة من القوانين التجارية يسيرون على هديها، وأصبحت هذه النظم فيما بعد أساس القانون التجاري في القانون الحادي عشر. وأخذ هذا القانون التجاري ينمو عاماً بعد عام بما يضاف إليه من الأوامر التي يصدرها النبلاء أو الملوك لحماية التجار أو الزوار القادمين من الدول الأجنبية، وأنشئت محاكم خاصة لتنفيذ القانون التجاري.

وكان التجار الأجانب قد حصلوا منذ القرن السادس الميلادي بمقتضى قوانين القوط الغربيين على حقهم في أن يحاكموا في المنازعات الخاصة بهم وحدهم أمام مندوبين من بلادهم، وهكذا بدأ النظام القنصلي الذي أقامت الدول التجارية حسب نصوصه «قناصل» لها في خارج بلادها أي مستشارين لحماية مواطنيها ومساعدتهم. ولقد أنشأت جنوة قنصلية لها من هذا النوع في مدينة عكا عام ١١٨٠ م وكان ما عقد من الإتفاقيات لتبادل هذه الحقوق القنصلية من خير المصادر التي استمد منها القانون الدولي في العصور الوسطى، واكتظت مدينة الإسكندرية بالعديد من القناصل الأوروبيين الذين راعوا مصالح دولهم.

وكان قدر من القانون البحري قد ظل قائماً من العهود القديمة، فلم يمح هذا القانون قط بين تجار جزيرة رودس المستنيرين، وكان من أقدم الشرائع البحرية «قانون أهل رودس» الصادر في عام ١١٦٧ م، هذا بالإضافة إلى قوانين أوليرون Lois d'Oleron التي صدرت في نهاية القرن الثاني عشر لتنظيم تجارة الخمور وانتقال هذه القوانين إلى فرنسا وفلاندرز وانجلترا. كما نشرت العصبة

الهانسية قانوناً مفصلاً في القواعد والنظم البحرية يسير عليه أعضاؤها. وقد نص فيه على ما يجب مراعاته لضمان سلامة الركاب والبضائع، وعلى الحقوق التي يتمتع بها الناجون وما ينجو معهم من بضائعهم وواجبات ربابنة السفن وملاحيها وأجورهم والشروط التي يصح للسفينة التجارية أن تتحول بموجبها إلى سفينة حربية. وكانت العقوبات المقررة في هذه القوانين صارمة، ويبدو أن هذه الصرامة كانت واجبة لتثبيت التقاليد والعادات الخاصة بالأنظمة البحرية، وبث الثقة بها والإعتماد عليها.

وسائل النقل:

تقدمت الصناعة بنفس الخطى التي اتسع بها نطاق التجارة، ذلك أن اتساع الأسواق زاد الإنتاج، وزيادة الإنتاج أنعشت التجارة.

ولكن وسائل النقل كانت أقل العوامل تقدماً ولم تتقدم بنفس التقدم التجاري فقد كانت معظم الطرق الرئيسية في العصور الوسطى مليئة بالأتربة، والأوحال، ولم تكن هناك قنوات صرف صحي تنقل الماء من الطرق، ولهذا كثرت فيها الحفر والبرك، وكانت المخاضات كثيرة في الأنهار والقناطر قليلة، وكانت الأحمال تنقل على ظهور الدواب ولا تنقل في العربات لأن العربات يصعب عليها تجنب الحفر كما تتجنبها دواب الحمل. وكانت عربات الركوب كبيرة جافة وعجلاتها ذات إطار من حديد بغير يايات، ولهذا كانت هذه العربات غير مريحة مهما تكن زينتها، ومن أجل ذلك فإن الناس رجالاً كانوا أو نساء يفضلون ركوب الخيل.

وكان الإهتمام بالطرق حتى القرن الثاني عشر موكول إلى أصحاب الأراضي المجاورة لها، ولم يكن هؤلاء الملاك يدركون كيف يطلب إليهم أن ينفقوا المال على إصلاح الطرق التي ينتفع المارون بها أكثر مما ينتفع بها سواهم، وحذا فردريك الثاني في القرن الثالث عشر حذو المسلمين والبيزنطيين فأمر بإصلاح طرق صقلية وجنوبي إيطاليا، وأنشئت في هذا الوقت

نفســه أولى «الطرق الكبـرى الملكية» بتثبيت مكعبـات حجريـة في الثرى المفكك أو الرمال، وشرعت المدن في هذا القرن ترصف شوارعها الرئيسية.

وأنشأت بعض المدن قناطر غاية في الجودة ونظمت الكنيسة في القرن الثاني عشر هيئات أخوية دينية لإصلاح القناطر وتشييدها، وعرضت على من يشتركون في هذا العمل الغفران من الذنوب. وكان إخـوان الجسور Freres Pontifs هم الذين أنشأوا جسر أفنيون الذي لا يزال محتفظاً بأربع عقود من صنع أيديهم. وبذلت بعض طوائف الرهبان لا سيما الرهبان البندكتيين جهوداً كبيرة للمحافظة على الطرق والجسور، وظل ملك انجلترا ورجال الدين فيها وغيرهم فيما بين عامي ١١٧٦ و ١٢٠٩ م يقدمون الأموال والجهود لإنشاء جسر لندن، وقامت فوق هذا الجسر بيوت وكنيسة صغيرة، وكان الجسر يقوم فوق عشرين عقداً من الحجر يعبر عليها فوق نهر التايمز، وأقيمت في بداية القرن الثالث عشر أولى القناطر المعلقة المعروفة فوق خانق في ممر سان جوثار St. Gothard بجبال الألب.

وكانت المسالك المائية أكثر ما يتسخدمه الناس في النقـل، فأصبحت لذلك ذات شأن عظيم في نقل البضائع لأن الطرق البرية كانت كثيرة المتاعب، فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ما تحمله خمسمائة دابة، وكانت إلى هذا أقل نفقة من الدواب، ومن أجل ذلك كانت أنهار أوروبا المنتشرة من نهر التاجه Tagus في الغرب إلى الفولجا Volga في الشرق من أهم مسالكها العامة، وكان مسار هذه الأنهار ومصابها العامل الرئيسي في انتشار السكان، ونمو المدن.

وكان السفر بالبر والبحر على السواء شاقاً بطيئاً، فكان انتقال الأسقف من كانتربوري إلى روما يتطلب شهـراً تقريبـاً. وكان في وسـع حملة الرسـائل إذا استبدلوا الخيل في مراحل الطريق أن يجتازوا مائة ميل في اليوم الواحد، ولكن الرسل الخصوصيين كانوا يكلفون كثيراً، ولهذا كان البريد مقصوراً في العادة على الأعمال الحكومية، وكانت عربات عامة كثيـرة تسير بـانتظام في أمـاكن متفرقة في أوروبا كالعربات التي كانت تسير بين لندن وونشستر.

وكانت الأخبار بطيئة الإنتقال شأنها في هذا شأن الرجال، مثال ذلك أن نبأ موت الأمبراطور فردريك برباروسا عام ١١٩٠ م في قليقية لم يصل إلى ألمانيا إلا بعد أربعة أشهر.

النقابات الطائفية:

كان في روما وحدها عدد كبير من الطوائف والهيئات، والإتحادات، والنقابات. وكان فيها أيضاً جماعات للصناع، والتجار، والمقاولين، والأندية السياسية، والأخوة السرية ، والأخوة الدينية، ومن هذه الجماعات نشأت النقابات الطائفية التي كانت قائمة في العصور الوسطى.

ولدينا رسالتان في مطلع العصور الوسطى من رسائل البابا جريجوري الأول (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) تشيران إلى وجود هيئة من صانعي الصابون في نابلي، وأخرى من الخبازين في أترانتو. وقد ورد ذكر جماعات لعمال النقل كانت قائمة في روما في القرن السابع وفي ورمز في القرن العاشر. وظلت النقابات القديمة قائمة في الأمبراطورية البيزنطية. ونجد في سجلات مدينة رافنا إشارات إلى كثير من الجماعات الإقتصادية، وجماعة الخبازين في القرن السادس، وهيئات الموثقين والتجار في القرن التاسع، والسماكين في القرن العاشر، وإلى موردي الأطعمة في القرن الحادي عشر. ونسمع عن جماعات الصناع في البندقية في القرن التاسع، وبجماعة البستانيين بروما في القرن الحادي عشر. وما من شك في أن الكثرة الغالبة من النقابات والإتحادات في الغرب قد قضت عليها غارات القبائل الجرمانية، وما أعقبها من انحلال ومن عودة العمال إلى الأعمال الزراعية. ولكن يبدو أن بعضها قد بقي في إقليم لمباردي بإيطاليا، ولما عادت التجارة والصناعة إلى الإنتعاش في القرن الحادي عشر، وكانت الظروف التي أوجدت الجماعات القديمة هي التي بعثت النقابات الطائفية بعثاً جديداً يتلاءم مع ظروف العصور الوسطى.

وكانت النقابات الطائفية في إيطاليا أقوى من غيرها، حيث بقيت الهيئات

والأنظمة الرومانية القديمة حافظة لكيانها. ففي فلورنسا مثلاً نجد في القرن الثاني عشر اتحادات للحرف ـ كالموثقين، وصناع الملابس، وتجار الصدف، وأصحاب المصارف، والأطباء، والصيادلة، وتجار الفراء، والدابغين، وصانعي الأسلحة، وأصحاب المنازل، وغير ذلك. ويبدو أن هذه النقابات الطائفية قد أنشئت على غرار نظائرها في القسطنطينية.

وعادت النقابات الطائفية إلى الظهور في فرنسا وفلاندرز في القرن الحادي عشر، وسرعان ما تضاعف عددها وأطلق عليها اسم «الشركات». وتفرعت النقابات الطائفية في ألمانيا من الجماعات القديمة التي كانت هيئات محلية لتبادل المعونة وأداء الشعائر الدينية، والإحتفال بالأعياد. وقد تحول العديد من هذه الجماعات قبل القرن الثاني عشر إلى اتحادات للصناعات والحرف، وقبل القرن الثالث عشر بلغت هذه الاتحادات من القوة درجة أمكنها بها أن تنازع المجالس البلدية سلطتها السياسية والاقتصادية، ولم تكن العصبة الهانسية إلا واحدة من هذه الاتحادات.

وورد ذكر النقابات الطائفية الإنجليزية لأول مرة في قوانين الملك إين Ine (٦٨٨ ـ ٧٢٦)، فقد ذكر فيها لفظ «ججلدان» Gegildan وهي جماعات كان يساعد بعضها بعضاً فيما يفرض عليهم من مال «الفداء» وكانت كلمة جلد Gild الأنجليسكسونية التي اشتقت منها كلمة Guild أي النقابة الطائفية في العصور الوسطى وهي قريبة في أصلها من كلمة Geld الألمانية ولكمة Gold الإنجليزية التي كانت تعني في أول الأمر الإشتراك في الجماعة التي تشرف على هذا المال. ووردت أقدم إشارة إلى النقابات الطائفية الإنجليزية في عام (١٠٩٣ م)، ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان لكل مدينة كبيرة في انجلترا تقريباً نقابة طائفية أو أكثر من نقابة.

وكانت نقابات القرن الحادي عشر الطائفية جميعها تقريباً نقابات للتجار، ولم تكن تضم إلا التجار المستقلين ورؤساء العمال، وكان لا ينضم إليها جميع من يعتمدون على غيرهم، وكانت هيئات تعمل صراحة لفرض قيود على

التجارة، فكانت عادة تجبر المدن التي توجد فيها على أن تمنع بالضرائب الجمركية المرتفعة أو بغيرها من الوسائل، دخول السلع التي تنافس إنتاجها. وإذا ما سمح لهذه البضائع الأجنبية بدخول المدينة بيعت بأثمان تحددها النقابة المختصة. وكثيراً ما كانت إحدى نقابات التجار الطائفية تحصل من المقاطعة أو الملك على ترخيص باحتكار سلعة أو بعض السلع في الإقليم الذي تعمل فيه أو الدولة كلها. مثال ذلك أن الشركة الباريسية للنقل التجاري المائي كادت تمتلك نهر السين كله. كما كانت النقابة الطائفية ترغم الصناع عادة بأوامر تصدرها المدينة أو بالضغط الإقتصادي على أن تحمل وتبيع ما تنتجه النقابة وعن طريقها.

وعلى مر الزمن أصبحت هذه النقابات هيئات متحدة قوية، تتجر في أنواع مختلفة من البضائع، وتشتري المواد الخام بالجملة، وتؤمن التجارة من الخسائر وتنظم توريد الطعام لمدنها، ونقل فضلاتها، وترصف الشوارع، وتنشىء الطرق والأحواض وتعمق المرافىء، وتؤمن الطرق الرئيسية بتعيين الشرطة فيها، وتشرف على الأسواق وتنظم الأجور، وساعات العمل وظروفه، وشروط التمرن على الصناعات، وطرق الإنتاج والبيع، وأثمان المواد الخام، والمصنوعات. . وكانت تحدد للسلع ثمناً عادلاً أربع مرات أو خمس مرات في كل عام تراه حافزاً قوياً للإنتاج ومجزياً لجميع المهتمين بها.

وكانت النقابات تزن وتختبر وتعد جميع ما يشتري ويباع من الحاصلات المتصلة بحرفتها وفي الدائرة التي تعمل فيها، وتبذل كل ما في وسعها لتمنع البضائع المغشوشة أو السيئة من دخول السوق. وكانت النقابات تتدخل لمقاومة اللصوص، وسادة الإقطاع، والضرائب والعمال المشاكسين، والحكومات التي تفرض الضرائب الفادحة. وكان لها شأن كبير في السياسة، وكانت تسيطر على كثير من المجالس البلدية، وكثيراً ما أمدت الأقاليم بتأييد قوي في كفاحها ضد الأشراف والأساقفة والملوك.

وكان لكل نقابة طائفية في العادة غرفتها الخاصة، وكان بعض هذه الغرف

في العصور الوسطى أبنية مزخرفة أحسن زخرف. وكان لها جماعة من الموظفين الكبار، مسجلين، وخزنة للأموال، ومأمورين، وشرطة، كما كان لها محاكمها الخاصة يحاكم فيها أعضاؤها، وكانت تحتم على أعضائها أن يعرضوا منازعاتهم على محكمة النقابة الطائفية قبل أن يلجأوا إلى قانون الدولة. وكانت تفرض على أعضائها أن يمدوا زملاءهم النقابيين بالمعونة في حالات المرض والكوارث، وأن تنقذهم أو تفتديهم إذا هوجموا أو سجنوا. وكانت النقابة تشرف على أخلاق أعضائها وآدابهم وثيابهم، وتفرض عقوبة على كل من يحضر اجتماعاتها بغير جورب.

وكان لكل نقابة طائفية عيد سنوي تمجد فيه شفيعها القديس، ويبدأ هذا العيد بصلاة قصيرة يقضون بعدها اليوم كله في الشراب. وكانت النقابة تشترك في تمويل كنائس المدينة صغيرها وكبيرها وتزيينها، وفي إعداد التمثيليات الدينية وفي تمثيلها. وكان كبار رجالها يمشون في الإستعراضات البلدية بأثوابهم الزاهية، رافعين أعلام حرفهم في مواكب فخمة. وكانت تؤمن أعضاءها ضد الحريق، والفيضان، والسرقة، والسجن والعجز والشيخوخة. وكانت تنشىء المستشفيات، وبيوت الصدقات، وملاجىء الأيتام والمدارس، وتتحمل نفقات جنازات الموتى والصلوات التي تنجي أرواحهم من العذاب في المطهر، وكثيراً ما كان الأغنياء من أعضائها يذكرونها في وصاياهم.

وكان أصحاب الحرف الصناعية ممنوعين عادة من الإنضمام إلى نقابات التجار الطائفية، وإن كانوا خاضعين لنظمها الإقتصادية وسلطانها السياسي، ولهذا أخذوا في القرن الثاني عشر يؤلفون في كل بلدة نقابات طائفية خاصة بهم، فنجد في ١٠٩٩ م، نقابات لطوائف النساجين في لندن وأكسفورد وحذا حذوهم بعد قليل من ذلك الوقت القصارون ودابغو الجلود، والقصابون والصياغ، وقد انتشرت هذه النقابات الطائفية في القرن الثالث عشر، في جميع أنحاء أوروبا وسميت فيها بأسماء مختلفة كأرباب الحرف، والجماعات، فكان في مدينة البندقية منها حوالي ستين، وفي جنوة حوالي ثلاثين، وفي فلورنسا حوالي عشرين.

وفي عام ١٢٥٤ م أصدر أتين بوالو Etienne Boileau. «شهبندر التجار» في باريس «كتاباً للحرف» أثبت فيه القواعد والنظم الخاصة بمائة نقابة طائفية ونقابة قائمة في باريس، ويلاحظ أنه كان لصناعة الجلد مثلاً اتحادات خاصة بعمال السلخ والدباغة، والأساكفة، وصناع عدد الخيل، وصناع السروج، وصناع الأدوات الجلدية الدقيقة. وكان في النجارة اتحادات خاصة بكل من عمال الصناديق، والأثاث وبناء السفن، وصناع العجلات، والبراميل، وفاتلي الحبال. وكانت كل نقابة طائفية تحرص على أسرار حرفتها، وتعمل على فض كثير من المنازعات القضائية الخاصة بهذه الحرفة.

وكانت نقابات الحرف الطائفية تتخذ لها قديساً شفيعاً، وتنزع إلى الإحتكار، وكانت في هذا كله تساير روح العصر الذي تعيش فيه. ولم يكن في وسع أحد عادة أن يشتغل بحرفة إلا إذا كان عضواً في النقابة الخاصة بها. وكان جميع المنتمين إلى الحرفة هم الذين يختارون زعماءها مرة في كل عام. ولكنهم كانوا كثيراً ما يختارون لأقدميتهم في النقابة أو لثروتهم. وكانت أنظمة النقابة تعين الأحوال التي يعمل فيها أعضاؤها والأجور التي يتقاضونها والأثمان التي يحددونها.

وكانت قواعد النقابات تحدد عدد الرؤساء في كل منطقة، وعدد الصبيان الذين يدربون عند كل رئيس، وتحرم استخدام النساء في الصناعات عدا زوجة الرئيس، كما كانت تحرم استخدام الرجال بعد الساعة السادسة مساء، وتعاقب الأعضاء لما يطلبونه من أثمان عالية، وما عساهم يقدمون عليه من معاملات غير شريفة أو يصنعونه من سلع يستخدمون فيها مواد تالفه. وكانت النقابة في كثير من الأحيان تدمغ منتجاتها بطابعها أو علامتها التجارية فيكون ذلك شهادة منها بجودة نوعها، وكان هذا العمل موضع فخر لها واعتزاز.

وقد أخرجت نقابة النساجين في مدينة بروج من المدينة عضواً من أعضاء النقابة زور طابع مدينة بروج على بضاعة رديئة. وكانت النقابة تعارض في قيام المناقشة بين الرؤساء في زيادة مقدار الإنتاج أو خفض ثمنه، خشية أن يتمكن

أعظم الرؤساء مهارة أو أكثرهم إقناعاً من أن يزيدوا ثروتهم على حساب غيرهم من الرؤساء، ولكنها كانت تشجع المنافسة التي تقوم بين الرؤساء أو بين المدن لتحسين نوع من المنتجات. وكانت نقابات الحرف تقوم بما تقوم به نقابات التجار من بناء المستشفيات والمدارس، وتقوم بالتأمين المختلف الأنواع، وتقدم المعونة إلى الفقراء من أعضائها والبائنات إلى بناتهم، وتدفن موتاهم، وتعنى بأراملهم، وتتبرع بالجهد والمال لبناء الكنائس الصغيرة والكبيرة.

ولم تمنع النزعة الأخوية بين رؤساء نقابات الحرف أن يكون فيها درجات متفاوتة في العضوية والسلطان، فكان في الدرجة السفلى منها صبي التمرين الذي يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، يرسله والداه ليعيش مع صانع متمرن مدة من الزمن تتراوح بين ثلاث سنين وإحدى عشرة سنة، ويقوم بخدمته في حانوته ومنزله. وكان يمنح في نظير هذه الخدمة الطعام، والكساء، والمأوى، وتعلم الحرفة، ويعطي في السنين الأخيرة من الخدمة أجراً وأدوات، فإذا ما قضى مدة التمرين أعطى منحة من المال يبدأ بها عمله مستقلاً، فإذا هرب من معلمه أعيد إليه وعوقب على هربه، فإذا داوم على الهرب حرم عليه الإشتغال بالحرفة. وإذا أتم خدمته عين عاملاً بالمياومة، ينتقل من رئيس إلى رئيس ويعمل بأجر يومي فإذا مر عليه وهو بهذه الحال عامان أو ثلاثة أعوام، وكان لديه من المال ما يستطيع به فتح حانوت مستقل امتحن لمعرفة كفايته الفنية أمام لجنة من أعضاء نقابته الطائفية، فإذا اجتاز الإمتحان أصبح معلماً. وكان يطلب منه أحياناً - ولم يكن هذا إلا في أواخر العصور الوسطى - أن يعرض على رؤساء النقابة عينة من صنعه تخظى برضاء الأعضاء.

وكان الصانع الذي تخرج على هذا النحو - أو المعلم كما كانوا يسمونه - يمتلك أدواته، وكان في العادة ينتج سلع الإستهلاك التي يطلبها المستهلك مباشرة، وكان هذا المستهلك في بعض الأحيان يقدم له المادة الغفل، وكان يحق له أن يأتي في أي وقت ليراقب سير العمل. ولم يكن الوسيط في هذا النظام هو الذي يسيطر على الطرق القائمة بين صانع السلعة والمنتفع بها. وكانت السوق التي ينتج لها الصانع هي التي تحدد ما ينتجه، وكانت هذه

السوق عادة هي البلدة التي يقيم فيها، ولكنه لم يكن خاضعاً لتقلبات السوق أو لإغواء المستثمرين أو المشترين البعيدين عنه، ولم يكن يعرف ما يطرأ على السوق من تقلبات اقتصادية جنونية بين رخاء تارة وكساد تارة أخرى. وكانت ساعات عمله كثيرة تختلف من ثمان ساعات إلى ثلاث عشرة ساعة ولكنه كان يختارها بنفسه، ويعمل على مهل، ويستمتع بوقته في الأعياد الدينية والمناسبات الأخرى.

وزاد عدد النقابات الطائفية طوال القرن الثالث عشر وكبر سلطانها، وكانت قيداً ديمقراطياً يحد من سلطان نقابات التجار. غير أن نقابات الصناع الطائفية أصبحت على مر الزمن أرستقراطية عمال، تنزع إلى قصر رؤساء الصناع على أبناء الصناع أنفسهم، وخفض أجور عمال المياومة الذين ثاروا عليها في القرن الرابع عشر ثورات كثيرة أضعفت سلطانها، وتضع العقبات في سبيل من يريدون الإنضمام إليها، أو الدخول في البلدان التي تقوم فيها. وباعتبارها منظمات ممتازة لعصر صناعي، كثيراً ما ضيقت صعاب النقل فيه الأسواق التي تصرف فيها السلع وجعلتها مقصورة على المشترين المحليين، ولم تكن رؤوس الأموال المتجمعة من الكثرة والسيولة بحيث تكفي لتمويل الأعمال التجارية والصناعية الواسعة النطاق. فعندما ظهرت الأموال المتجمعة فقدت النقابات، سواء كانت النقابات تجار أو أرباب حرف، ما كان لها من أشراف على السوق، ومن ثم فقدت ما كان لها من إشراف على ظروف العمل.

العملة والنظم المالية:

أحدث التوسع الكبير في التجارة والصناعة والزراعة انقلاباً كبيراً في الأعمال المالية، فأما التجارة فلم يكن في مقدورها أن تتقدم ما دامت قائمة على المبادلة، بل أضحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم، ولحريته سهلة للتعامل، ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار أموالها.

وكان من حق السادة الإقطاعيين، وكبار رجال الدين في أوروبا في العهد

الإقطاعي أن يسكوا النقود، ولهذا عانى الإقتصاد الأوروبي الأمرين من جراء الفوضى النقدية، وزادت هذه الفوضى بفعل مزيفي العملة وقارضيها، وكان الملوك يأمرون أن تقطع أطراف من يرتكبون هذه الأعمال أو أن تقلى أجسامهم وهم أحياء، ولكن الملوك أنفسهم كثيراً ما كانوا يخفضون قيمة نقدهم. وقل وجود الذهب بعد غارات القبائل الهمجية، واختفى اختفاء تاماً من أوروبا الغربية بعد أن فتح المسلمون بلاد الشرق، فكان النقد بأجمعه بين القرنين الثامن والثالث عشر يصنع من الفضة أو المعادن الخسيسة.

وظلت العملة الذهبية تسك في الأمبراطورية البيزنطية طوال العصور الوسطى تقريباً، ولما كثر الإتصال بين الغرب والشرق دخلت النقود البيزنطية الذهبية المعروفة بالبيزانط Bezants في بلاد الغرب، وتعامل الأوروبيون بها في كافة أنحاء أوروبا، وكان لها من الإحترام في العالم المسيحي أكثر ما لسائر النقود. ولما رأى فردريك الثاني ما للعملة الذهبية المستقرة في بلاد الشرق الأدنى الإسلامية من أثر طيب في تلك البلاد سك في إيطاليا أولى العملات الذهبية في أوروبا الغربية. وسمى هذه العملة أوغسطالس Augustales مقلداً بهذا نقد أغسطس ومكانته. والحق أنها كانت جديرة بهذه التسمية، لأنها وإن كانت تقليداً للعملة الشرقية، كانت ذات طابع عظيم، وسمت إلى أعلى مستوى في فن المسكوكات في العصور الوسطى، كما أصدرت جنوة وفلورنسا في عام ١٢٥٣ م مسكوكات ذهبية، وكان الفلورين الفلورنسي، أجمل وأنقى هذه المسكوكات وكان يقبل في جميع أنحاء أوروبا، ولم يحل عام ١٢٨٤ م حتى كان لجميع دول أوروبا الكبرى، ما عدا إنجلترا، عملة ذهبية موثوق فيها.

وقبل نهاية القرن الثالث عشر كان ملوك فرنسا قد ابتاعوا أو صادروا كل ما لسادة الإقطاع من حقوق تخول لهم سك العملة إلا القليل الذي لا يكاد يستحق الذكر من هذه الحقوق، وظل نظام النقد الفرنسي حتى عام ١٧٨٩ م محتفظاً بالمصطلحات التي وضعها له شارلمان، وإن لم يحافظ على قيمتها، فكان فيه الليرا Livra أو الجنيه الفضي، والصلدي (Sou) وهو ١/٢٠ من الجنيه،

والدينار Denier. وأدخل النورمان هذا النظام النقدي في انجلترا، وفيها أيضاً كان الجنيه الإنجليزي يقسم عشرين قسماً يسمى واحدها شلناً، ويقسم كل منها إلى اثني عشر قسماً ـ هي البنسات وأخذ الإنجليز ألفاظ Penny Shilling Pound من الأسماء الألمانية، ولم يكن لانجلترا عملة ذهبية إلا في عام ١٣٤٣ م، غير أن عملتها الفضية التي قررها هنري الثاني (١١٥٤ ـ ١١٨٩ م)، ظلت أكثر العملات استقراراً في أوروبا. وضرب المارك الفضي في ألمانيا في القرن العاشر، وكانت قيمته نصف قيمة الجنيه الفرنسي أو البريطاني.

وقد لاقى النقد في العصور الوسطى رغم هذا التطور كله، الأمرين من جراء تقلب قيمته، وعدم ثبات نسبة الفضة إلى الذهب، وحق الملوك والمدن ـ والأشراف ورجال الدين في بعض الأحيان ـ في جمع النقود كلها في أي وقت، وتقاضي أجراً على إعادة سكها، وإصدار عملة جديدة مخفضة تزداد فيها نسبة المعدن الخسيس. وتأثر النقد الأوروبي كله لما أصابه من انحطاط في فترات غير منتظمة لعدم أمانة دور الضرب، وازدياد مقدار الذهب أكثر من ازدياد مقدار السلع وسهولة أداء الديون الوطنية بالعملة المخفضة، وفي وسعنا أن نحكم على مقدار انخفاض قيمة النقد من ذكر أثمان بعض السلع ومن ذلك أن الإثنتي عشرة بيضة كان ثمنها في رافنا عام ١٢٦٨ م «بنساً» واحداً، وكان ثمن الخنزير في لندن عام ١٣٢٨ م أربعة شلنات، وثمن الثور خمسة عشر شلناً، وكان رأس الضأن في فرنسا في القرن الثالث عشر يشتري بثلاثة فرنكات.

وكان أهم مصدر للنقود اللازمة لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها هو الكنيسة، وذلك بفضل ما كان لها في جمع المال من نظام لا يدانيه نظام سواه، وكان لديها على الدوام رأس مال سائل تستطيع توجيهه في جميع الأوقات لأي غرض تشاء. وكانت الكنيسة أعظم قوة مالية في العالم المسيحي، ويضاف إلى هذا أن كثيرين من الأفراد كانوا يودعون أموالهم أمانات في الكنائس والأديرة. وكانت الكنيسة تقرض من أموالها الأفراد والهيئات في أوقات الشدة، وكان أكثر من يقترضون المال هم الفلاحون الذين يرغبون في إصلاح

ضياعهم، وأحوالهم، وكانت الكنائس والأديرة بمثابة مصارف عقارية وكان لها فضل في تكوين طبقة الزراع الأحرار، وكانت منذ عام ١٠٧٠ م، تقرض المال للملاك المجاورين لها نظير حصة من ريع أملاكهم، وقد أصبحت الأديرة بهذه القروض المضمونة برهون أولى هيئات الأقراض في العصور الوسطى، وكان دير سانت أندريه St. Andre. في فرنسا يقوم بعمل مصرفي بلغ من اتساع نطاقه أنه كان يستأجر المرابين اليهود ليؤدوا له عملياته المالية. وكان فرسان المعبد Knights of Templars يقرضون المال بفوائد للملوك والأمراء، والأشراف، والفرسان، والكنائس.

ولكن هذه القروض التي قدمتها الهيئات الكنيسة كانت في العادة تستخدم في الإستهلاك أو في الأغراض السياسية، وقلما كانت تستخدم في تمويل الصناعة أو التجارة. وبدأ الإئتمان التجاري حينما كان الفرد أو الأسرة يستودع التاجر مالاً أو يعهد إليه به يستخدمه في رحلة بحرية معينة أو مشروع معين على أن ينال في نظير هذا نسبة من الأرباح، وكان هذا العمل يسمى في العالم المسيحي إيداعاً Commenda. وكان هذا النظام ـ نظام الشريك «الموصي» طريقة رومانية قديمة أكبر الظن أن العالم المسيحي الغربي عاد فتعلمها من الشرق البيزنطي. وكان من شأن هذه الطريقة النافعة، طريقة الإشتراك في الأرباح دون مخالفة أوامر الكنيسة التي تحرم الربا، أن تنتشر انتشاراً واسعاً، وبذلك استحالت الكمبانية (Com - Panis) أي الإشتراك في الخبز، أو الإستثمار في داخل نطاق الأسرة شركة Soietas تضم عدة أشخاص لا يتحتم أن يكونوا كلهم من ذوي القربى، ويمولون طائفة أو سلسلة من الأعمال بدل أن يمولوا عملاً واحداً.

وظهر هذا النوع من المنظمات المالية في جنوة والبندقية في أواخر القرن العاشر، وكثيراً ما كانت هيئات الإستثمار هذه توزع ما تتعرض له من الأخطار بأن تشتري أسهماً في عدد من السفن أو المشروعات في وقت واحد. وكان أعظم مصدر فردي لرأس المال ـ أي المال الذي تؤخذ منه نفقات مشروع ما قبل أن يدر دخلاً ـ هو المال المحترف. وقد بدأ هذا النظام عمله في الزمن القديم بأن

كان صرافاً يبدل النقود، ثم استحال مس زمن بعيد إلى مراب يستثمر ماله ومال غيره في المشروعات التجارية أو في إقراضها إلى الكنائس. أو الأديرة، أو الأشراف أو الملوك.

وكان أهل إيطاليا هم الذين ارتقوا بالأعمال المصرفية في القرن الثالث عشر. فقد نشأت أسر مصرفية عظيمة أمدت التجارة الإيطالية الواسعة النطاق بالمال، وقد مدت هذه الأسر أعمالها المالية إلى ما وراء جبال الألب، وكانوا يقرضون ملوك انجلترا وفرنسا الذين لا تنقطع حاجتهم إلى المال مبالغ طائلة، كما كانوا يقرضون الأشراف، والأساقفة ورؤساء الأديرة، والمدن. وكان البابوات والملوك يستخدمون أولئك المرابين لتحصيل إيراداتهم، والإشراف على دور سك النقود والشئون المالية، والإستعانة بآرائهم في السياسة. وكانوا يشترون الصوف، والتوابل، والحلي، والحرير جملة ويمتلكون السفن والمنازل من أقصى أوروبا إلى أدناها.

وقبل منتصف القرن الثالث عشر كان هؤلاء «الإيطاليون» كما كان أهل الشمال يسمون جميع رجال المصارف الإيطاليين أعظم رجال المال في العالم قوة ونشاطاً. وكانوا قوماً مكروهين في داخل بلادهم وخارجها لشدتهم في تحصيل المال، يحسدهم الناس من أجل ثرائهم. وكان قيام هذه الطائفة ضربة قاصمة وجهت إلى رجال المصارف الدوليين اليهود، ولم يتورع أفرادها عن أن يشيروا بنفي منافسيهم ذوي الصبر والجلد، وكان أقوى أهل إيطاليا جميعاً هم شركات المصارف الفلورنسية، وفي وسعنا أن نعد منها ثمانين شركة بين عامي ١٢٦٠ و١٣٤٧ م.

وكانت هذه الشركات تمول الحملات السياسية والحربية التي يقوم بها البابوات وتجني من وراء عملها هذا أرباحاً طائلة، وكانت من حيث هي المصارف التي تمد البابوات بالمال ستاراً نافعاً لتلك العمليات التي قلما كانت تتفق مع آراء الكنيسة عن الربا، وكانت تجني من الأرباح ما لا يكاد يقل عن أرباح المصارف في هذه الأيام.

ولكن هذه الشركات الإيطالية كادت تكفر عن تهمها بما كانت تؤديه من الخدمات الحيوية الاقتصادية. ولما أخذ نجمها في الأفول خلفت وراءها في جميع اللغات الأوروبية تقريباً بعض مصطلحاتها وهي ألفاظ المصرف Banco والدائن Credito، والمدين Debito، وصندوق النقد أي الخزانة Cassa، والحساب Conto والخصم Disconto، والحساب الجاري Conto Corrente، والرصيد Netto، والميزان الحسابي Bilanza والإفلاس Banco Rotta.

وقامت الشركات المصرفية الكبرى في إيطاليا خاصة في البندقية وفلورنسا، وجنوة أثناء القرن الثالث عشر أو قبله بجميع الأعمال التي تقوم بها المصارف في هذه الأيام، والدليل على ذلك الألفاظ السالفة الذكر. فكانت تقبل الودائع، وتفتح الحسابات الجارية بين الجماعات التي تقوم بسلسلة من الأعمال المالية، وكان مصرف البندقية منذ عام ١١٧١ م ينظم تبادل الحسابات بين عملائه بعمليات مقصورة على عمليات إمساك الدفاتر. وكانت تقرض المال، وتقبل ضماناً له الحلى والدروع الغالية الثمن، والقراطيس المالية الحكومية، أو حق جباية الضرائب أو تدبير شئون الإيرادات العامة. وكانت تخزن البضائع المعدة للنقل إلى خارج البلاد.

وكان في مقدورها بفضل علاقاتها الدولية أن تصدر خطابات الإعتماد التي يستطاع بها تسليم المال المودع في بلد ما إلى مودعه أو من ينيبه عنه في بلد آخر. فكان التاجر إذا أخذ بضاعة أو قرضاً يكتب على نفسه صكاً بأن يسدد ما عليه إلى الدائن قبل وقت معين في إحدى الأسواق الموسمية الكبرى أو في أحد المصارف الدولية. وكانت هذه الصكوك تسوى بعضها مع بعض في السوق الموسمية أو المصرف بحيث لا يؤدي نقداً إلا صافي الحساب بعد التسوية .وبهذه الطريقة «المقاصة» أصبحت مئات العمليات المالية والتجارية تسوى دون غير أن تكلف المتعاملون أنفسهم مشقة حمل مبالغ طائلة وأثقال كبيرة من النقد أو تبادلها. ولما أصبحت المراكز المصرفية بيوت مقاصة، أراح رجال المال أنفسهم من عناء الذهاب إلى الأسواق الموسمية، فكان في وسع التجار

لمقيمون في سائر أنحاء أوروبا أن يسحبوا الأموال من حساباتهم بعمليات إمساك الدفاتر بين المصارف المختلفة، وبهذه الطريقة زادت فائدة النقود وزاد تداولها كثيراً عما كانت عليه من قبل. ولم يكن «نظام الإئتمان» الذي قام على أساس الثقة المتبادلة أقل مظاهر الثورة الإقتصادية شأناً أو أقلها دلالة على الشرف والأمانة والثقة.

وكانت بداية نظام التأمين في القرن الثالث عشر، حين بدأت نقابات التجار تؤمن أعضاءها من حوادث الطريق، وغرق السفن، وغيرهما من الكوارث والإضرار بل تعدت هذا النوع إلى تأمينهم ضد القضايا التي تقام عليهم لجرائم ارتكبوها ـ سواء كان هؤلاء الأعضاء مذنبين أو أبرياء. وكانت أديرة كثيرة تعطي المؤمن مرتباً سنوياً طوال حياته. فإذا قدم لها الشخص مبلغاً معيناً من المال تعهدت بأن تمده بالطعام، والشراب، والثياب، والمسكن أحياناً، طوال حياته الباقية. وقام أحد مصارف مدينة بروج منذ القرن الثاني عشر بالتأمين على البضائع، ويبدو أن شركة قانونية للتأمين قد أسست في هذا البلد عام ١٣١٠ م. وكان آل باردي Bardi في فلورنسا يؤمنون على الأقمشة التي تنقل بطريق البر من الأخطار التي تتعرض لها أثناء الطريق.

وفي عام ١١٥٧ م أصدرت مدينة البندقية أولى السندات الحكومية، وكان سبب إصدارها أن مطالب الحرب كانت تعطي من يقدمونها شهادات تكون بمثابة ضمان من الحكومة بسداد هذه القروض مضافاً إليها فائدة. وأصبحت هذه السندات الحكومية بعد عام ١٢٠٦ م قابلة للتحويل والإنتقال من يد إلى أخرى، وكان من المستطاع بيعها أو شراؤها أو اتخاذها ضمانات للديون. وكانت شهادات مثلها منصوص فيها على مديونية البلدية تقبل في مدينة كومو Como عام ١٢٥٠ م على أنها مساوية لقدر معين من النقود المعدنية . ولما كانت أوراق النقد وعداً من الحكومة بالدفع ، فإن هذه الشهادات القابلة للتحويل تعد بداية للعملة الورقية.

وتطلبت العمليات المعقدة الخاصة بأصحاب المصارف، والبابوات والملوك نظاماً دقيقاً لإمساك الدفاتر. ولذلك امتلأت المحفوظات، ودفاتر

الحسابات بسجلات الإيجار، والضرائب، والأموال الواردة والمنصرفة، والديون التي لأصحابها أو عليهم. وقد بقيت طرق المحاسبة، التي كانت متبعة في روما في عهد الأمبراطورية، متبعة في القسطنطينية بعد أن ضاعت منذ القرن السابع في أوروبا الغربية، ومن هذه المدينة أخذها العرب، ثم عادت إلى الوجود في إيطاليا أثناء الحروب الصليبية، وقد نجد في الحسابات العامة لمدينة جنوه في عام ١٣٤٠ م نظاماً كاملاً لطريقة الدوبيا (القيد المزدوج)، وأن ضياع سجلات جنوه الخاصة بالأعوام المحصورة بين ١٢٧٨ م و ١٣٤٠ م ليترك لدينا مجالاً للترجيح على أن هذا التقدم كان أيضاً من الأعمال البارزة التي ظهرت في القرن الثالث عشر في أوروبا العصور الوسطى.

الفصل السابع

الفنون الزخرفية والصناعية

فن الصياغة

النحت

الحفر على العاج

صناعة الأثاث

التصوير الحائطي

التطريز

الستائر المصورة

الزجاج الملون

الفنون الزخرفية والصناعية

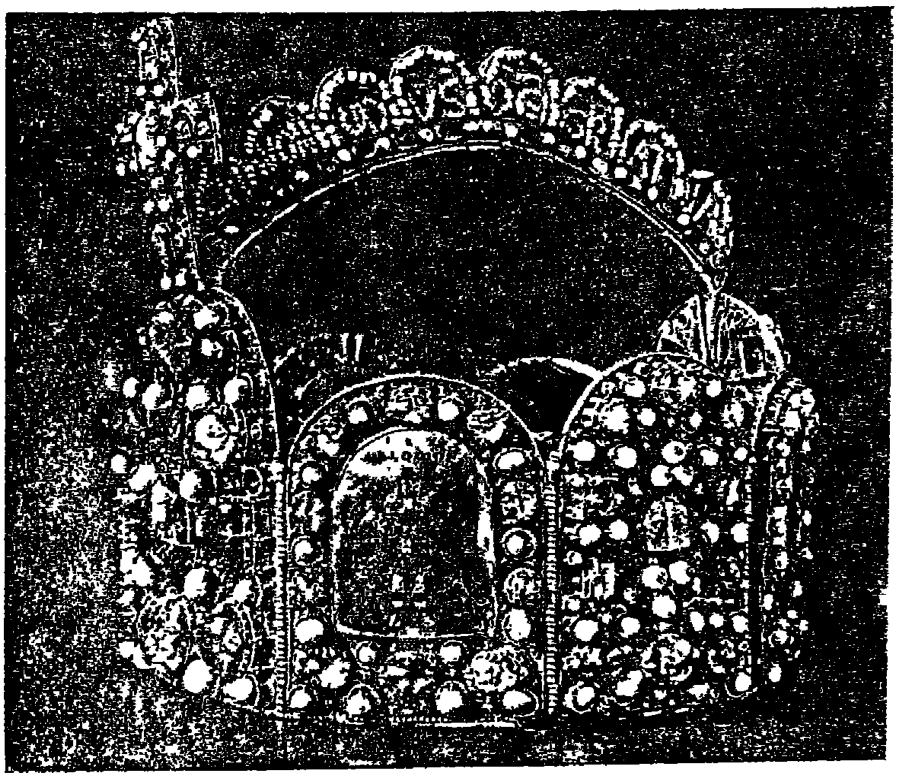
لم تحتل الفنون الزخرفية والصناعية المكانة اللائقة بها في تاريخ الفنون، ويرجع ذلك إلى أنها صنعت من المعادن الثمينة والنحاس والزجاج والفخار والأقمشة الكتابية، والصوفية والحريرية، وبذلك كانت عرضة للسرقة أو التلف. ولذلك نقرأ في كتب تراث العصور الوسطى الكثير عن هذه الفنون ونجد وصفاً رائعاً للإنتاج الزخرفي والصناعي، وكانت معظم هذه المصنوعات مكدسة في الكنائس، أو توضع على مواد الأمراء. ومن الملاحظ أن المصنوعات الذهبية قد آلت إلى أصحاب المصارف في عصر النهضة، أو صهرت وحولت إلى عملة أو سرقت وذهبت إلى المجهول.

وتقدم لنا الحولبات في هذه المرحلة وصفاً رائعاً عن الأقمشة الحريرية البيزنطية منها والشامية، والأقمشة الإنجليزية والفرنسية. والواقع لم يبق من هذه المصنوعات كلها سوى القليل الذي نراه في بعض المتاحف. أما الزجاج الملون فقد بقي منه البعض في الكاتدرائيات والكنائس، والحقيقة أن دراسة هذه الفنون، في غاية الأهمية للفنان والمؤرخ وعالم الآثار.

فن الصياغة Goldsmith

كان للفنون الجرمانية تأثيراً كبيراً على صياغة الذهب في بدايات العصور الوسطى، وكانت الحلى التي وجدت في عصور الدولة الميروفنجية من المعادن المسبوكة ذات الزخارف المتشابكة والخطوط المنحنية، كما وجد عليها صوراً للإنسان والحيوان . وقد زخرف الفنانون أعمالهم بطريقة الترصيع

وهي طريقة جاءت من مصر وبلاد الشام وإيران وسواحل البحر الأسود، أي أنها فنون شرقية نقلها البيزنطيون إلى أوروبا. وقد أبدع الفنان في تشكيل العقيق وغيره من الأحجار الكريمة وتثبيته في إطارات معدنية على صفائح مسبوكة. ومن الآثار الباقية، في هذا الفن غمد سيف الملك شلدريك الذي عثر عليه عام ١٦٥٣ م. والحقيقة أن الفرنجة أظهروا مهارة ممتازة في هذا الجانب.



تاج الملك أوتو الأول (٩٦٢ - ٩٧٣ م)

ومما لا شك فيه أن هذه الصناعة اكتسبت إلهامها من الحضارة الرومانية التي أضيفت إليها المؤثرات البيزنطية والشرقية، لذلك نجد الرسوم الهندسية والزخارف مأخوذة من سعف النخيل ومناظر الصيد، وقد برهنت بعض اللوحات على مهارة عظيمة مثل اللوحة المشهورة، في سان أمبروز بمدينة ميلان وهي اللوحة التي صنعها الفنان الميروفنجي فولفينوس Volvinus عام ٨٣٥ م.

أشغال المينا. Enamel

أشغال المينا هي مليء التجاويف، في المشغولات المعدنية مثل الذهب أو الفضة، أو النحاس، بعجينة من الزجاج الملون بالأكاسيد ثم تصقل هذه العجينة بعد صبها. ويلاحظ أن سطح المينا يكون غبشاً إذا صب على الترس أو الحديد، وشفاف إذا صب على سطح من الذهب أو الفضة. ويلاحظ أن أشغال المينا بدأت تحل بالتدريج محل الأحجار الكريمة وذلك بفعل المؤثرات البيزنطية. ومن الأمثلة على أشغال المينا بعض خزائن الذخيرة المقدسة، وإبريق شارلمان. ومن أشغال المينا أيضاً حفر شقوقاً أو ثقوباً على السطح المعدني ثم ملأ هذه الفراغات بالمينا حتى لا تظهر في النهاية غير الخيوط التي تملأ الشقوق أو النقاط التي تملأ الثقوب. ومن الطريقة الأخيرة توصل الفنانون إلى صنع لوحات مطعمة بالمينا.

ولقد بقي هذا الفن مزدهراً حتى العصر الرومانسكي، في إقليم أكويتين وإقليم وادي الراين، وفي هذين الإقليمين صنعت خزائن مرصعة ومطعمة بالمينا مثل النماذج المحفوظة على خزائن كونك Conques ورفارف ذهبية للمذابح المقدسة. ولا شك أن هذه النماذج وغيرها تدل على مهارة الفنان. وبالإضافة إلى هذه الشواهد أو النماذج التي لا زالت باقية حتى الآن فإنه يمكننا التعرف على أسرار هذا الفن من الحوليات التي ترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر.

وازدهر فن أشغال المينا في ألمانيا وخاصة في مدينة ليموج لمدة قرنين من الزمان من منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر، ومن نماذج إنتاج مدينة ليموج المزارات والصلبان وأواني المذبح والعلب الصغيرة والتماثيل النصفية المجوفة والتماثيل الجنائزية. ومن الملاحظ أن أشغال المينا، استخدمت في الأغراض الدينية والمدنية

وتطورت صناعة المينا حتى كانت في البداية تصاغ على أرض معدنية، وفي القرن الثالث صنع الفنانون المينا على حدة ثم ثبتوها على أرضية معدنية

مـزينة بشـرائط أو زهور أو رسـوم جميلة. وفي القرن الـرابـع عشـر حفـرت الرسومات في أرضية المعادن ثم ملأت بالمينا فجاء شكل المينا طبق الأصل للرسومات.

ومع زيادة الثراء وسهولة الحصول على المعادن النفيسة بـدأ الفنانـون يثبتون المينا على أرضية من الذهب، وقد انتشر هذا الفن من إيطاليا إلى كافة أنحاء أوروبا. وبـذلك تـراجع إنتـاج مدينـة ليموج في أعمـال المينا. ولكن الفنانون في المدينة اكتشفوا سراً جـديداً في صنـاعة المينـا وهذا السـر كان التصوير بالمينـا على النحاس، وصنعت لوحات عظيمة لكنيسة سانت شابل، في فرنسا، والصورة التي تمثل الملك فرانسوا الأول والملكة اليانور وغيرهما. وقد استخدمت ألواناً براقة على أطقم الموائد والصحون واللوحات.

فن النحت Carving

عندما انتشرت العمارة القوطية في منتصف القرن الثالث عشر وأصبح هذا الفن واضحـاً في كافة أنحاء أوروبا، تأثرت جميع الفنون بالفن القوطي، وبدأ الفنانون يصنعون نماذج للكاتدرائيات الكبيرة التي بنيت على النظم المعمارية القوطية. وتلى ذلك مرحلة صار فيها فن النحت أكثر تأثيراً على الصياغة من فن العمارة، ولذلك صنعت خزائن الذخيرة، المقدسة من أشكال تحملها تمـاثيل للملائكة والقديسين. كما صنع الفنانون تماثيل منفصلة للسيدة العذراء والسيد المسيح، والقديسين. وكانت هذه التماثيل في بدايتها تميل إلى البساطة، ثم تـطورت في القرن الخامس عشر وحلت المغـالاة محل البسـاطة والـرشاقـة، وأصبحت الرسوم المعقدة ظاهرة واضحة في فن النحت.

الحفر على العاج: Carving in Ivory

وسار فن الحفر على العاج موازياً لفن النحت، وقد تأثرت صناعة الحفر على العاج بالأعمال البيزنطية بعامة وبمدرسة الصناعة في الإسكندرية بخاصة. وقد تأسست مراكز لفن الحفر على العاج قرب الأديرة الكبيرة في ألمانيا في أول

الأمر خاصة في مدن كولوني وأكس لاشابل، وقد استطاع الفنانـون في هذه المرحلة التعرف على فنون النحت عند الرومان والبيزنطيين والسكندريين ، وقد اقتبسوا منها رصانة الموضوع وجمال النسب وجلال الهدوء. وفي مدينة ريمس تأثر الفنانون بالفنان السكنـدري وأنتجوا المناظر الحية الصادقة.

وفي مراحل لاحقة تفوق فن الحفر على العاج على فن النحت خاصة في المرحلة الرومانسية، ويرجع ذلك إلى بلاد الأندلس، التي ظلت تنتج أشكالاً بديعة وخاصة موضوعات تصوير الإنسان والحيوان. وكان هذا التفوق قد ظهر في أوروبا في القرن الثالث عشر حتى أن هذا القرن يعتبر نهضة الحفر على العاج. وقد تأثر الفنانون بنماذج الحفر على الحجـر وقلدوها خـاصة نمـاذج الكاتدرائيات الكبيرة. كما صنعت موضوعات الحفر من العذارى الرشيقات. ولعل أجمل نماذج هذا الفن هو نموذج عذراء سانت شابل المحفوظ في متحف اللوفر.

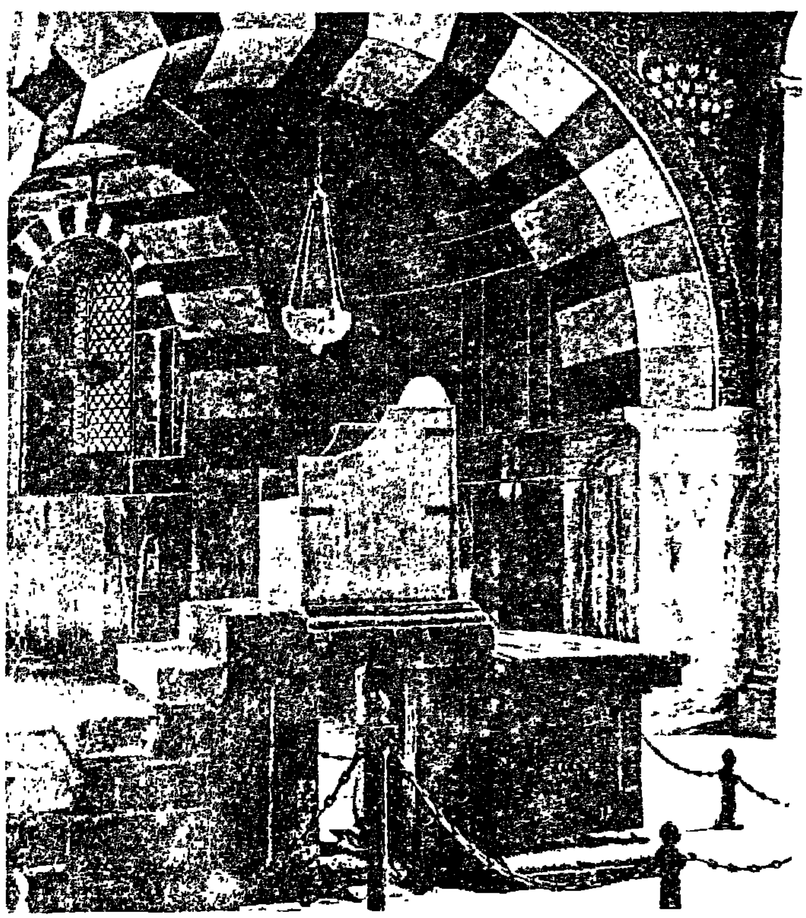
ومن هذه النماذج أيضاً نماذج عروش بعض الملوك عليها العذراء وهي تقف بين الملائكة، أو نماذج لطفولة السيد المسيح. ولم تلبث أشغـال الحفر على العـاج أن أصبحت مكتظة بـالمشغولات وأصبحت أكثر مغـالاة. كمـا أصبحت موضوعات الحفر متأثرة بالروح الواقعية الصارمة التي سيطرت على عقول الناس في نهاية القرن الرابع عشر. أما أشغال الحفر على العاج التي خصصت للموضوعات الدينيـة فقد ظلت محتفـظة برشـاقتها وجمـالها. كمـا صنعت العلب وأدوات الزينة من العاج وعليها مناظر الفرسان في أشكال مختلفة، أو بعض صور القصص التي شاعت في العصور الوسطى.

صناعة الأثاث:

يتجلى فن صناعة الأثاث في نوعين النـوع الأول وهي صناعـة الأثاث داخـل الكنائس، والأخـرى الصناعـات المنزليـة. ويعتبـر النمـوذج الخـاص بـالكنـائس كـرسي المرتلين ، وهـذا النـوع ظـل الشكـل العـام لكـرسي

المرتلين ثابتاً على نظام واحد تقريباً عدا تطور في بعض الزخارف التي كانت بسيطة، فأصبحت أكثر عن ذي قبل.

أما صناعة الأثاث المنزلي مثل الأسرة، والكراسي وصناديق وخزائن الملابس، فقد تبقى لنا من هذه الصناعة بعض النماذج مثل صناديق وخزائن الملابس التي صنعت في الفترة من القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر. وقد صنعت هذه الصناديق والخزائن وهي مرفوعة على قوائم تقوم مقام الأرجل. ويلاحظ أن هذه الصناديق والخزائن قد بطنت من الداخل بالأقمشة الكتانية أو الجلود. وقد اتبع النجارون طريقة التعشيق في ربط الألواح، أو العوارض ببعضها، وظلت هذه الطريقة حتى القرن السادس عشر.



كرسي العرش لملوك الدولة الكارولنجية في مدينة آخن

وقد وضع أو صنع النجارون زخارف على مشغولاتهم، وقد تغيرت هذه الزخارف تبعاً لظروف الحياة وتطوراتها، واختلف فن صناعه الأثاث في إيطاليا عن فرنسا ، ففي إيطاليا كان الأثاث يطلى أو يكسى بالصور، ثم ما لبث أن تحول النجارون إلى فنانين.

التصوير الحائطي:

يعتبر فن التصوير على الحائط أو على القماش وكذلك التطريز وأعمال السجاد والزجاج الملون من الفنون الزخرفية ذات الصفة الزخرفية البحتة. ويرجع فن التصوير على الحوائط إلى ضيق النوافذ في الكنائس خاصة في الطراز الرومانسكي، وقد أدى ذلك إلى قلة الضوء الذي يتسلل إلى الكنيسة، ومن هنا ومع زيادة مساحة الحوائط داخل الكنيسة ، بدأ العمل على تجميل هذه المساحة الواسعة من الحوائط بالفسيفساء أحياناً وبالتصوير أحياناً أخرى.

ولجأ الفنان أيضاً إلى تجميل أرضية الكنائس وسقفها بالفسيفساء والتصوير. وكانت صناعة الفسيفساء تطلب من الفنان وقتاً وصبراً. وكانت أعمال الفسيفساء بطبيعتها أكثر إحتمالاً للبقاء ولذلك ظل بعضها حتى أيامنا هذه.

ويختلف فن التصوير الحائطي عن الفسيفساء باعتبار الأول سواء بالماء أو الجير أو الأصباغ يعتمد على مهارة الفنان، كما أنها كانت أكثر عرضة للتلف والتلاشي لذلك زال معظمها. وفي العصور الوسطى قام الفنان بتصوير قصص من التوراة والإنجيل، وقصص الشهداء والقديسيين والمناظر الطبيعة المزروعة، والبحرية، ومناظر الصيد ومواكب النصر. وقد ساعد على ذلك ما أصدرته المجامع الدينية التي اعتبرت ما يرد في هذه الصور يتصف بالوعظ أكثر من الفن.

وزاد من أهمية التصوير ما أصدره شارلمان من مراسم في عام ٨٠٧ م التي أوجبت تصوير جميع حوائط الكنيسة الداخلية لأن هذه الصور تعمل

على تثقيف المترددين على الكنيسة، ويروي المؤرخون أن أساقفة غالة اهتموا بالعمل على زخرفة كنائسهم منذ بدايات العصور الوسطى، ومن ذلك إعادة بناء كاتدرائية مدينة ليون وتزيينها بالفسيفساء والصور. وما حدث في كنيسة سانت إتين في مدينة كليرموت في فرنسا من تصوير قصص مأخوذة من التوراة وغير ذلك في الكنائس.

وهكذا ظلت الزخرفة داخل الكاتدرائيات والكنائسي غنية بموضوعاتها كما كان الحال في قصر شارلمان في مدينة أكس لاشابل، وفي قصر لويس التقي في مدينة إنجلهيم Angelheim حيث نجد قصة سيدنا داود وسيدنا سليمان، وقصة تأسيس قسطنطين لمدينة القسطنطينية، وقصة انتصار شارل مارتل على المسلمين، وقصة انتصار شارلمان على السكسون في ألمانيا، كما زينت حوائط كاتدرائية مدينة ريمس Reims بالصور وأرضيتها بالفسيفساء في أشكال قديسين وملائكة، وعلى أية حالات لم تقتصر أعمال التصوير والفسيفساء على الكنائس والأديرة، بل زينت قاعات النوم في القصور وغرف الطعام بهذه الفنون أيضاً.

وازدهر فن التصوير في إيطاليا وسويسرا وألمانيا، وانتشرت المراكز الفنية التي احتفظت بالتقاليد القديمة. ففي إيطاليا ظهرت مراسم لها شهرتها في مونت كاسينو وسالرنو حيث ظهرت كنائس هذه المدن مزينة بالصور في الداخل والخارج. ورغم اختفاء هذه الأعمال الفنية إلا أن المصادر التاريخية تشير إلى أسماء هؤلاء الفنانين، أما في انجلترا وفرنسا فقد جرت العادة على طلاء الكنائس باللون الأبيض.

وفي كتاب عنوانه جدول أصناف الفنون يصف لنا الراهب الألماني تيوفيل Theophil سر صناعة التصوير ويقول، أن المصور كان يعد الحائط الذي ينوي التصوير عليه، ثم يرسم عليه الخطوط الرئيسة للصورة التي يريد تصويرها، ويلي ذلك وضع طبقة ناعمة من الجير تغطي الجزء المراد تصويره، في يوم واحد حيث يكون الجير غير جاف، ثم يبدأ في رسم هذا الجزء وتغطيته

بالألوان. ولما كان الجير لم يجف بعد فيقوم بامتصاص الألوان إلى عمق داخل الجير، وبذلك تظل الصور لفترة طويلة من الزمن رغم تطاير القشرة الخارجية.



صورة بالفريسكو للقديس فرنسيس وهو يعظ الطيور في كنيسة فرانسيس الأسيسي بمدينة أسيس

وقد وصل إلينا من إنتاج القرن الثاني عشر القليل من هذه الصور، ومن ذلك ما نجده من صور لقصص التوراة والإنجيل وكذلك مناظر يوم البعث، في مقاطعة بواتو Poitou، وفي كنائس وادي اللوار وتورين ومقاطعة السارت Sarthe نجد صوراً بنفس الأسلوب. ويلاحظ أن الفنان البيزنطي قد شغف بأعمال الفريسكو ذات الأرضية الزرقاء، وسار فنان أواسط فرنسا على استخدام صور الفريسكو الرومانسكية المرسومة على أرضية زرقاء أيضاً، أما في شمال فرنسا قد اتبع الفنان الألوان الخفيفة.

وعندما تطور الفن المعماري من الرومانسكي إلى القوطي، قلت مساحة الحوائط داخل الكنيسة عندما زادت مساحة النوافذ، ولذلك استبدل الفنان الموضوعات العامة بصور منفصلة فى أحد قطاعات القبو. وعلى أية حال ظل الفنان يزين جدران الكنائس بالمناظر المقدسة، ولكنه اتخذ من الموضوعات الغرامية إلهاماً سجله على حوائط المنازل.

واختلف الحال في الفن المعماري القوطي في إيطاليا حيث ظلت الحوائط تشغل مساحة كبيرة داخل الكنيسة، ومع سعة المساحة اعتاد الفنان الإيطالي على العمل بطريقة الفريسكو بحرية وسرعة تعبر عن أفكاره، ويلاحظ أنه في مدينة أسيسي Assisi اتبع الفنان الطريقة البيزنطية الجافة،وأن الفنان جيوتو Giotto (١٢٦٦ - ١٣٣٧ م) رسم بحرية تامة في أوائل القرن الرابع عشر، ولذلك يعتبر هذا الفنان والنحات الإيطالي أحد مبدعي فن الرسم الحديث. والمهم أن هذه الكنيسة ضمت مناظر عديدة من العهد الجديد. وقد أضفى الفنانون على الشخصيات التي صوروها من الإحساس والتعبير وسهولة الحركة ما جعل صورهم أكثر نضارة وروعة، واستمر الإتجاه الذي بدأه جيوتو وتلاميذه من بعده في تطور حتى عصر النهضة.

التطريز

وحلت الستائر المطرزة والأبسطة، في انجلترا وفرنسا محل التصوير الحائطي، وقد كانت هذه الستائر المطرزة تعلق في الأعياد الكبرى فتضفي على البناء زينة وروعة بألوانها الزاهية. وكانت مراكز التطريز قد ظهرت في عصر الامبراطورية الكارولنجية، ومن هذه النماذج العباءات التي حفظت في مدينة بامبرج Bamberg وراتسبون Ratisbon. ومنذ القرن العاشر ظهرت في انجلترا مراكز صناعة التطريز، ومن ذلك الكوفية التي تحتفظ بها كاتدرائية مديينة درهام Durham . وقد احتفظ الفنانون الإنجليز بسمعتهم وصدروا أعمالهم إلى أوروبا خاصة إيطاليا لاهتمام البابوات بهذا الفن. ومما لا شك فيه أن المراكز الفنية في انجلترا هي التي أنتجت القطعة الفنية المصنوعة من الكتان المطرز

بالصوف الملون والمعروفة باسم ستائر بايوه Bayeux Tapestry، وهي القطعة التي تنسب إلى الملكة الإنجليزية ماتيلدا Matilda وصورت فيها قصة غزو وليم الفاتح لانجلترا عام ١٠٦٦ م. وفي هذه القصة نسجت ماتيلدا مناظر مأساة هارولد ووليم الفاتح، وأولها الحنث باليمين، وغزو أسطول نورمانديا انجلترا، ومعركة هاستنج، وقد نسجت هذه المناظر بالتفصيلات الدقيقة.

وفي فرنسا ذكر إتين بوالوا Etienne Boileau الذي كان نقيب تجار باريس في الفترة من (١٢٥٤ ـ ١٢٦٨ م)، في كتابة الحرف أسماء عدد كبير من المطرزين. والقطع التي قدمها هؤلاء الفنانون كثيرة تدل على المهارة والرقة، ومن ذلك رداء يوم الصليب، وقماش المذبح بمستشفى شاتوه شيري Chateau Thierry حيث مناظر تتويج السيدة مريم العذراء، والسيد المسيح في المهد وغير ذلك.

الستائر المصورة:

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي بدأت الستائر المصورة تحل محل الأقمشة المطرزة، كما أنها حلت محل التصوير الحائطي في زخرفة الكنائس والمنازل والقلاع. ولقد ورد ذكر الستائر المصورة في القرن العاشر الميلادي وإنها استخدمت في كنيسة سان فلوران St. Florent وفي بلاط الملك الفرنسي هيو كابيه Hugh Capet. كما وجدت بعض الستائر المصورة التي ترجع إلى القرن الثاني عشر في مدينة كولوني وغيرها.

وبدأ في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، استخدام الأنوال العمودية وقد ورد ذكر ذلك في كتاب يعرف باسم «مجموعة قوانين النقابات» الذي ألفه إتين بوالو صاحب كتاب الحرف أيضاً. ويلاحظ أنه من ذاك الوقت كانت مدينة آراس Arras مركزاً لهذا الفن واشتهرت أعمالها بالغزل الرفيع والرقة. واحتوت سجلات الملوك على الستائر التي صنعت خصيصاً لهم. واشتملت مناظر هذه الستائر مثل غيرها من الفنون على مناظر مستمدة من التوراة والإنجيل وحياة القديسين وقصص الفروسية.

وهناك أيضاً مناظر للحياة الريفية ومناظر الصيد ومروج الرعي، كذلك

بعض المناظر الخاصة بالمواقع العسكرية ومباريات الفرسان. ومن الستائر المصورة مجموعات شهيرة تحتوي بعضها على ست ستائر بلغت مساحتها حوالي ثلاثمائة وخمسين متراً مربعاً، وتعرف هذه المجموعة باسم مباريات سانت دنيس St Denis، والتي لا تزال بقاياها محفوظة في انجلترا.

وظلت أنوال مدينة أراس تنتج الستائر المصورة، ويلاحظ أن مناظر هذه المرحلة اكتظت فيها المناظر والأشخاص حتى كادت الأرضية تختفي. ورغم ذلك فإن هذه المنتجات اتصتفت بالجودة، وألوانها الجذابة. ولما ضربت مدينة أراس في عام ١٤٧٧، اندثرت هذه الصناعة الراقية وهجر المدينة فنانو هذه الصناعة واتجه معظمهم إلى مدينة بروكسل، فزاد نشاط هذه المدينة في هذا المجال بفضل فنانوها القدامى، وما أتى إليهم من أفكار ومهارة مع المهاجرين إليها.

ويرجع كثرة عدد الستائر المصورة التي نسجت في العصور الوسطى إلى انتشار استعمالها. ففي الكنائس والكاتدرائيات كثيراً ما وضعت هذه الستائر على الحوائط حول بهو المرتلين وخلف كراسيهم لمنع التيارات الهوائية، كما استخدمت الستائر أيضاً في أيام الأعياد والمناسبات لتزيين الكنائس. وفي انجلترا بعامة ولندن بخاصة علقت الستائر احتفالاً بالمواكب أو لتجميل المباني الحكومية في الإحتفالات الرسمية.

وفي القصور علقت الستائر على الحوائط أو ربطت حول أعمدة أسرة النوم أو تدلت خلف المقاعد. وفي القصور الكبرى استخدمت لتجميل المكان أو لتجعل القاعات الباردة مناسبة للإقامة، وكانت الستائر تثبت بمشابك لتبقيها في أماكنها. كما أن هذه الستائر استخدمت لتجزئة القاعات الكبيرة إلى غرف صغيرة، كما أنها فرشت على الأرضيات في بعض الأوقات وهي فكرة جاءت من الشرق الذي استخدم الأبسطة لفرش أرضية القاعات.

ومن الملاحظ أن الملوك والأمراء اعتادوا على حمل ستائرهم معهم في تحركاتهم. وإذا كان الملك في حرب، فإنه إذا خسر المعركة خسر ستائره أيضاً،

وهذا هو السبب في وجود ستائر فرنسية في انجلترا أو دولة أخرى والعكس صحيح.

وخلاصة القول أن الستائر المصورة كانت صالحة تماماً للغرض التي صنعت من أجله، وأن صانعوها لم ينافسوا التصور الحائطي أو التطريز، كما أن الستائر المصورة كانت سهلة للحركة. كما أن مناظرها كانت هادئة وقورة، وهكذا لم تعكر هذه الستائر صفو الخطوط العمارية بل كانت مكملة لها.

وراعى الفنان أن مناظر الستائر كانت مثل قماشها، لأن وظيفة هذه الستائر أن تكسو مسطحات الحوائط، ومن هنا كان ينبغي عدم ترك مساحات بالقماش دون زخرفة حتى لا تظهر فراغات على الحائط. كما راعى الفنان اضافه أشكال النباتات والأزهار على أرضية هذه الستائر.

ولما كان النظر إلى هذه الستائر يتم من بعيد، لذلك لم يتطلب الأمر رسم صور الإنسان عليها بعناية، وكان يبنغي أن تعطي هذه الستائر جواً من المرح والبهجة، ومن هنا جاء تجنب الألوان الرمادية، والحفاظ على نقاء اللون ووضوحه.

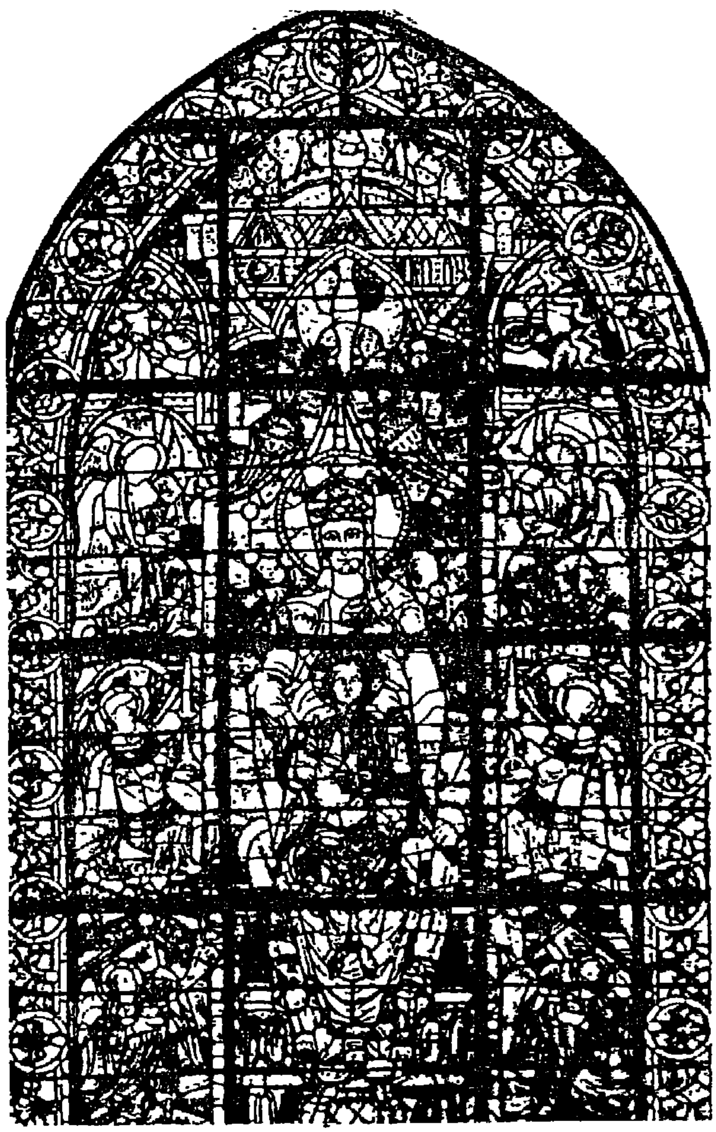
الزجاج الملون:

وفن صناعة الزجاج من الفنون الراقية التي تحتاج إلى الذّوق والمهارة الفنية العالية، ونلاحظ في هذا الفن التناسق بين الشكل والهدف. والحقيقة أن هذا الفن لم يسر على نمط واحد، فقد سار بأسلوب ثم تحول هذا الفن في عصر نهضة القرن الخامس بسبب عدم تفهم الفنان للأسلوب التي صنعت به، وبعد النهضة عاد الفن إلى أسلوبه القديم في العصر الحديث.

والغالب أن الأصل في فن صناعة الزجاج الملون هو مليء فراغ زجاج النوافذ، بالإضافة إلى إدخال الضوء وإشاعة الدفء داخل القاعات الكبرى والكنائس مما يسمو بالروح ويسر العين. وفوق هذا كله الوقار الذي يحل بالمكان، لذلك ينبغي أن يكون الزجاج على شاكلة الفسيفساء. وللحصول على ذلك كله كان الزجاج يلون أثناء صنعه، وتأتي القطع إلى الفنان ليقطعها

وينظمها حسب الشكل المراد تجميعه أو الحصول عليه وقد تضم القطع إلى بعضها في إطارات صنعت من الرصاص.

وكانت الألوان التي يلون بها الزجاج بسيطة غير معقدة، ومنها الأزرق الـزهري، والأحمـر النحاسي، والأخضـر المجنزر، والأرجـواني المنجنيزي بالإضافة إلى الأصفر. وقد استطاع الفنان الفصـل بين هذه الألوان بإطارات من الرصاص حيث يجعل لكل لون شخصيته المميزة.



نافذة زجاجية من القرن الثاني عشر في كاتدرائية شارتر

ويلاحظ أن قوانين وضع ألوان الزجاج الملون تختلف عن قوانين وضع الألوان فوق مسطحات معتمة مثل الحوائط أو السقوف، وقد تمكن الفنان في العصور الوسطى من إدراك هذه القوانين، لذلك رسم الفنان الأجسام الإنسانية وثنايا الملابس بالألوان الرمادية مع تحديدهما بدقة حتى يمكن رؤيتها بوضوح إذا ما نزل عليها الضوء.

وأدرك الفنان أيضاً المكان والموضوعات المراد وضعها، فقد اتسمت بالبساطة، وعلى سبيل المثال فقد استخدم الفنان رسوماً كبيرة الحجم منفصلة عن بعضها في النوافذ العالية. وفي بعض الحالات الأخرى امتلأت النوافذ العليا كذلك بصور صغيرة في موضوعات يسهل فهمها على أهالي العصور الوسطى. ولذلك تجد في النوافذ العالية قصة السيدة مريم العذراء، أو قصة الألوهية، أو قصة أحد القديسين ، ومن الأمثلة على ذلك نوافذ بهو المرتلين في كنيسة سانت دنيس في فرنسا التي صنعت خلال أربع سنوات في الفترة من ١٤٤٠ ـ ١١٤٤ م، وهو العمل الذي تم تحت أشراف سوجر Suger رئيس دير المدينة، وعلى هذه النوافذ نجد قصة السيدة مريم العذراء وقصة سيدنا موسى، وبعض المناظر من التوراة والإنجيل.

ومن الأمثلة لفن الزجاج الملون ما نجده في نوافذ الواجهة القريبة في كاتدرائية مدينة شارتر حيث نجد شجرة إشعيا Ashi، وهذه الشجرة من الموضوعات المتكررة التي نراها في نوافذ سانت دنيس وسانت شابل في فرنسا، وفي مدينة يورك وكنتربري في انجلترا، ثم نراه بعد ذلك في كثير من كنائس انجلترا وألمانيا وفرنسا، في المرحلة بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر. ولم يعد باقياً من النماذج الخاصة بالقرن الثاني عشر سوى القليل في كاتدرائية لمان le Mans وكاتدرائية أنجر Angers.

ومن الملاحظ في القرن الثالث عشر زياة مساحات النوافذ، ويبدو ذلك واضحاً حتى يفسح المجال أمام الفنان لولعه بعظمة فن صناعة الزجاج الملون، كما أنه أحب هذا الفن الذي يجعل الشمس وكأنها مضيئة على الدوام. وعلى سبيل المثال ما نلاحظه من روائع فن صناعة الزجاج الملون في كاتدرائيات

شارتر وبواتيه وبروج وسواسون وتور، وكل هذه النوافذ مليئة بمناظر مرتبة على شكل سلسلة من الميداليات، أو بأشكال بشرية كبيرة لبعض الرسل والقديسين. ومن الملاحظ أنه عندما يدخل المرء إلى هذه الكاتدرائيات التي بنيت في القرن الثالث عشر وكلها على النظام المعماري القوطي يسقط عليه الضوء من خلال هذه النوافذ، في ألوان قزحية. فيشعر المرء بأنه يرتفع إلى عالم آخر في السماء. وقد يلاحظ ذلك بوضوح عند زيادة كاتدرائية سانت شابل في باريس عندما يدخل فجأة من الدرج المظلم إلى البهو الأعلى حيث يتدفق وهج الألوان الآتية من النوافذ التي تروي قصة العهد الجديد كاملة.

ولم تتغير طرق صناعة الزجاج الملون خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر ولكنها اتجهت نحو البساطة، ونلاحظ أن الصور البشرية كانت أكبر حجماً وأخذت مكان الموضوعات الأصلية في جميع الأماكن تقريباً، كما أخذ لون الفضة يظهر على الزجاج، ولون البشرة بعد أن عولج الزجاج بهذين اللونين. ومن الأمثلة على فن صناعة الزجاج في هذه المرحلة أي مرحلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر نوافذ كاتدرائية ستراسبورج الذي يظهر فيها الجمال الذي يعادل أبدع ما أنتجه فنانو القرنين الثاني عشر والثالث عشر من النوافذ الزجاجية.

وتطورت صناعة فن الزجاج في القرن السادس عشر، ولكنها ظلت خاضعة لقوانين فن الزجاج الملون بعد أن أخذت طابعاً علمياً. وعلى ذلك يلاحظ أن قطع الزجاج التي تصنع منها النافذة أصبحت أكبر حجماً وأكثر نعومة وأكثر شفافية. كما تكون الزجاج في بعض الأماكن من طبقتين مختلفتين في اللون، وبذلك ظهر الشكل في ألوان بديعة. وتدخل الفنان مرة أخرى وقطع بعض أجزاء إحدى الطبقتين فأدى ذلك إلى إحداث تأثيرات لونية رائعة.

وعلى أية حال فقد بقيت موضوعات الرسم على وضوحها وبساطتها، ونلاحظ أيضاً أن الفنان اقتبس من المنحوتات والرسومات المشهورة ونقل الفكرة إلى الزجاج. وكانت أكثر المصانع ازدهاراً في مدينة بوفيه، وفيها صنعت نوافذ رائعة من الزجاج الملون، ومن الأمثلة في أوائل القرن السادس عشر

شجرة أشعيا الشهيرة المرسومة على أرضية زرقاء في كاتدرائية سانت إتين في مدينة بوفيه، والمركبة الحربية في كاتدرائية سانت فنسـت في مـدينة روان، ويعرف كل ذلك باسم فناني مدرسة جزيرة فرنسا.

وأنتج فنانو نورماندیا الذين نطلق عليهم المدرسة النورمانية كمية كبيرة من الزجاج الملون، كما هو الحال في كنائس مدينة روان الذي يعد مفخرة لهذه المدرسة. كما ازدهرت صنـاعة الـزجاج الملون في هـذه المرحلة في إقليم شامبانيا، وإن كان ما ظهر في هذا الإقليم يبدو أقل جمالاً وروعة من زجاج المدرسة النورمانية ومدرسة جزيرة فرنسا، ورغم ذلك فكانت الألوان بسيطة فاخرة والأعمـاق اللونية واضحـة ويتضح جمـالها بـاستخدام اللـون القضي واللون الرمادي، أما الأشكال فكانت قليلة دقيقة المعالم.

وبالإضافة إلى مدرسة جزيرة فرنسا، والمدرسة النورمانية وجد في فرنسا نوافذ زجاجية تدعو إلى الدهشة، ومن ذلك النافذة التي تروى قصة القديس لويس بالقرب من مدينة شينون، ونافذة شجرة إشعيا بـالأرضية البيضاء، في كاتدرائية مدينة أوتا. أما أعظم هذه النوافذ فكانت النوافذ الفخمة التي صنعت للأميرة مارجريت Margaret النمساوية، في كنيستها بمدينة بروجر، وأجمل نافذة في هذه المجموعة النافذة التي رسم عليها صـورة الأميرة وهي راكعـة، أمام زوجها فيليب الرابع (الجميل) ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) وبين الأميـرة والملك صورة صعود السيدة العذراء إلى السماء.

وأضافت نهضة القرن الخامس التي بدأت في إيطاليا إلى صناعة الزجاج الملون موضوعات تصويرية وتفصيلات زخرفية جديدة، ولكن هذه الإضافة لم تغير من قواعد ذلك الفن في العصور الوسطى. ولقد تأثرت صناعة الزجاج بعد أشغال المينا التي بدأت تظهر على الزجاج ولكن ذلك لم يدم طويـلاً، فعاد الفنان إلى الطريقة التي كانت سائدة من قبل، فعاد إلى فن صنـاعة الـزجاج روعته وجماله ولكن ذلك لم يتضح إلا في القرن التاسع عشر أي في العصر الحديث.

الفصل الثامن

نهضة القرن الثاني عشر

مقدمة

ملامح النهضة

أسباب النهضة

مظاهر النهضة

الكتب والمكتبات

إحياء الدراسات اللاتينية

اللغة اللاتينية

النثر والشعر

التدوين التاريخي

القانون والتشريع

حركة الترجمة

العلوم

مع التطور السياسي الذي حدث في غرب أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تلك المرحلة التي يمكن أن يطلق عليها عصر الحروب الصليبية وعصر البابوات العظام أو البابوات رجال الدولة، قامت تلك النهضة الثقافية التي يطلق عليها اسم نهضة القرن الثاني عشر الميلادي والدراسات المدرسية Scholasticus.

وخلال مرحلة نهضة القرن الثاني عشر استحوذ الغرب الأوروبي على المنجزات الثقافية التي عرفها اليونان والعرب، وفي نفس الوقت الذي اعترى فيه شرق أوروبا أو بمعنى آخر الدولة البيزنطية تدهور ثقافي في كثير من النواحي استحوذ الغرب الأوروبي على الدراسات القديمة وأخذ في تطوير ثقافته الخاصة. وأحيى الغرب دراسات العلوم والقانون والأدب «الكلاسيكي» القديم، وأخذ في تدريسها في مدارس الكاتدرائيات وكذلك في المؤسسات العلمية الجديدة ونقصد بذلك الجامعات.

كما حدث تطور كبير ملحوظ في الآداب الوطنية Vernacular الفرنسية والالمانية والانجليزية والبروفنسالية والايطالية. وفي الوقت الذي كان فيه الأدب الفرنسي أكثر شيوعاً وانتشاراً، انتشر تأثير ما يعرف بأغاني المآثر Chansous de Geste الفرنسية على معظم الآداب في البلاد المجاورة، وظهرت أعظم المؤلفات

الأدبية التي عرفها الغرب في العصور الوسطى، في مدينة فلورنسا، إيطاليا، ونقصد بذلك الكوميديا الالهية لدانتي Dante.

كما تطورت في هذا العصر كذلك الفروسية، وتحسنت الحياة اليومية للشعوب تحسناً ملحوظاً وذلك فيما يتعلق بالنواحي المادية منها. كما انتج هذا العصر كذلك أهم كنائس الغرب التي تتميز بالطراز الرومانسي والقوطي، والتي تعتبر أرقى طراز للعمارة الكنيسية التي أقامها العالم الأوروبي المسيحي، حتى أن القرن الثالث عشر كثيراً ما يعرف باسم قرن الكاتدرائيات.

وكانت نهضة القرن الثاني عشر الميلادي شاهداً واضحاً من الشواهد التي دلت على التطور الذي حدث في أوروبا في هذا العصر، إلى جانب ما ظهر فيه من احياء التجارة، ونشأة المدن، وتطور الملكيات المركزية الوطنية، وقيام الحركة الصليبية. وإن أهم شواهد هذه النهضة الملموسة، كانت الكاتدرائيات القوطية في فرنسا والمانيا وانجلترا. هذا وقد شهدت هذه النهضة كذلك نشأة النظم البرلمانية، والحياة القومونية بالمدن، وقيام الجامعات، وظهور مؤلفات أدبية هامة باللغة اللاتينية، واللغات الوطنية. ونوضح فيما يلي لأهم منجزات هذا العصر في التعليم والفلسفة والعلوم والقانون والتدوين التاريخي. والأمر يتطلب كذلك دراسة التطور في الآداب والمنجزات الفنية لتلك الفترة من العصور الوسطى.

وكان من المعتاد أن يفكر المرء في العصور الوسطى كعصور للظلمات والجهالة، حيث كان الناس لا يفكرون إلا في الخلاص الديني والطريق الذي يؤدي إلى تحقيق ذلك، وكانت المثل العليا الديرية وفضائلها تسيطر، على حد اعتقادهم، على مجتمع ينعم بجهله بسحر الدراسات الكلاسيكية Spell of Classics وكان لا يهتم الا بالتأمل في الأمور اللاهوتية. إلا إن هذا الرأي قد أصبح الآن غير مسلماً به بعدما ظهر خطأه. وفي الحقيقة، إن النهضة إذا جاز استعمال هذا اللفظ، لم تبدأ في الظهور في القرن الرابع عشر بل في القرن الثاني عشر، وإن الدراسات الانسانية كانت منتشرة في مدينة شارتر بفرنسا

في القرن الثاني عشر بالقدر الذي انتشرت به في فلورنسا في القرن الخامس عشر.

وإن الحركة الإيطالية التي كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت مجرد إمتداد للنهضة الثقافية التي بدأت في القرن الثاني عشر. حقيقة إن في بعض الأمور قد تجاوز الإيطاليون منجزات أسلافهم، إلا أنهم قد تخلفوا عنها في أمور أخرى مثل العمارة. وفضلاً عن ذلك فإن نهضة القرن الرابع عشر كانت مركزة إلى حد بعيد في إيطاليا، أما نهضة القرن الثاني عشر فقد شملت كافة البلاد الواقعة في الغرب الأوروبي منها فرنسا وانجلترا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والأراضي المنخفضة. وكانت فرنسا هي بمثابة المركز لهذه الحركة، فهناك توجد أجمل الكاتدرائيات، كما ظهرت بها جامعة باريس. إن كثيرين من الرجال الذين أسهموا في هذه الحركة لم يكونوا من أصل فرنسي، إلا أنهم تجمعوا في فرنسا وخاصة في مدينة باريس. وكان هذا مما أدى إلى ذلك القول المأثور: «إن المانيا كانت لديها الامبراطورية، وإيطاليا كانت لديها البابوية، أما فرنسا فتميزت بوجود جامعة باريس.

ومما أنجزته نهضة القرن الثاني عشر الميلادي نستطيع أن نجده عندما نقوم بدراسة المصنف الذي يعرف بـ Speculum Majus للمؤلف فيسنت بوفيه Vincent Beauvais والذي وضع حوالي سنة ١٢٥٠ م. فإن هذا المصنف ينقسم إلى ثلاثة أجزاء هي على النحو التالي:

المصنف الطبيعي	(1) Speculum Naturale.
المصنف القانوني	(2) Speculum Doctrinale.
المصنف التاريخي	(3) Speculum Historiale.

حقيقة أنه لا يوجد شيء مبتكر في هذا المصنف، فإنه اعتمد على الإقتباس أو النقل عن كتاب آخرين، إلا أنه يعكس إزدياد المعارف والمعلومات في هذا العصر لأن حوالي نصف هذا المؤلف يعالج العلوم، وفي ذلك يسجل كثيراً من النقل عن المصادر العربية المترجمة. ويتكون المصنف الأول من ٣٢ كتاباً مقسمة إلى ٣٧١٤ فصلاً. أما الجزئين الآخرين

القانوني والتاريخي فكانت أقل حجماً، ويتكونا في مجموعهما من نحو ستة آلاف صفحة. وقد جمعت في هذا المصنف الضخم معلومات عن موضوعات متباينة مثل الله والسموات والإنسان والأرض والعلوم والفلسفة واللاهوت وتاريخ العالم وغير ذلك. وكان تنظيم هذا المصنف متوسطاً عضاً، وكان كل موضوع ينقسم إلى جزئيات تابعة له. وعند تقدير هذا العمل العلمي، فلا نستطيع القول بأنه جاء بشيء جديد من حيث الإبتكار، إلا أنه يدل على مدى إتساع الأفق الذي عمل فيه مؤلفه واهتماماته المتنوعة. ومهما يكن من أمر، فإن هذا المصنف يعكس صورة حسنة عن التقدم الذي حقق أثناء النهضة الثقافية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

ومن الصعب تحديد سنة معينة لبداية ونهاية تلك النهضة التي تعرف بنهضة القرن الثاني عشر. ويجب ألا نسلم مثلاً بسنة ١٠٩٦م وهي السنة التي قامت فيها أولى الحملات الصليبية من الغرب الأوروبي إلى الشرق للإستيلاء على الأراضي المقدسة، فإن هذه السنة وإن كانت لها أهميتها في التاريخ الوسيط، إلا أن بشائر هذه النهضة سبقت ذلك التاريخ بنحو نصف قرن، كما لا يجوز اتخاذ سنة ١٢٠٤م وهي سنة استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية نهاية لتلك النهضة التي كانت لا يزال لها امتدادها في المراحل التالية.

والواقع أنه يحق لنا القول بأن الباحث في التاريخ يلحظ اتجاهات حضارية جديدة منذ منتصف القرن الحادي عشر في الأمور السياسية والإقتصادية والثقافية والدينية، وأخذت هذه الإتجاهات تتبلور حتى خرجت على شكل نهضة عامة شاملة في القرن الثاني عشر الميلادي، وإن هذه النهضة لم تنته بنهاية هذا القرن بل استمرت بعد ذلك.

ملامح النهضة

وتتميز نهضة القرن الثاني عشر بملامح تجعلها تختلف عن كل من النهضة الكارولنجية في القرن التاسع السابقة لها، ونهضة القرن الخامس عشر

اللاحقة لها، ربما كان هناك تشابه بين هذه النهضات الثلاثة من حيث المدلول العام لمصطلح النهضة من حيث أن كلا منها شهدت نشاطاً ثقافياً وحضارياً واضحاً. إلا أنه وجدت فوارق لها شأنها. فإن النهضة الكارولنجية جاءت بشكل مصطنع لما تعهدها شارلمان وأخذ يشجعها حتى جعل هو وخلفاؤه بلاطه قلباً ومركزاً لها. كما أن هذه النهضة لم تعمر طويلاً لارتباطها بسياسة حاكم أو أسرة معينة، وارتبط مصيرها بمصير الأسرة الكارولنجية الحاكمة. ولما دخلت الدولة الكارولنجية مرحلة التقسيم والخلاف والإضمحلال انطفأت شعلة النهضة الكارولنجية.

أما نهضة القرن الثاني عشر فلم تقم نتيجة لمشيئة حاكم من الحكام أو نتيجة لسياسة أسرة حاكمة معينة، بل كان ظهورها كحركة طبيعية نتيجة لعوامل أساسية متنوعة، الأمر الذي جعلها أطول عمراً وأوسع انتشاراً وأقوى أثراً من النهضة الكارولنجية السابقة. كما اختلفت النهضتان من حيث أن النهضة الكارولنجية اهتمت أساساً برفع المستوى الثقافي لدى رجال الدين في دولة الفرنجة، وتخطى تلك النهضة لتلك الحدود لتمتد إلى العلمانيين، إنما جاء عرضاً، وكانت هذه النهضة عبارة عن حركة إحياء أكثر منها حركة ابتكار وتجديد. أما نهضة القرن الثاني عشر فقد ظهر فيها الحرص على إشباع غريزة الإطلاع والتحصيل الثقافي. وإنها إلى جانب حرصها على إحياء الدراسات القديمة اتجهت كذلك إلى الإبتكار والتجديد في ميادين مختلفة للنشاط الفكري. ففي مجال الآداب ظهرت أنواع جديدة من النثر والشعر، وفي الفن ظهر طراز جديد هو الطراز القوطي، وفي نظم التعليم ظهرت الجامعات، أما في مضمار العلوم فقد احرزت الهندسة والطب والفلك وغيرها تقدماً كبيراً لم يعرفه الغرب الأوروبي قبل ذلك.

وبمقارنة نهضة القرن الثاني عشر بنهضة القرن الخامس عشر، فإن الأخيرة ارتبطت بموطنها في إيطاليا، ومنها انتشرت تدريجياً إلى بقية بلاد الغرب الأوروبي. أما نهضة القرن الثاني عشر فقد قامت منتشرة في عدة بلاد. وفي تلك الأخيرة نجد إيطاليا تسهم برعاية الدراسات القانونية والترجمة عن

اليونانية. أما فرنسا فقد قامت بدورها الهام في الدراسات الفلسفية واللاهوتية، ويكفي أن نذكر أنها شاهدت نشأة جامعة باريس التي تعتبر أم الجامعات الشمالية في أوروبا، وفي فرنسا كذلك ازدهر الفن القوطي، أما إسبانيا فكانت مركزاً أساسياً لعبور التراث العربي إلى غرب أوروبا، وقد أسهمت انجلترا وألمانيا في نهضة القرن الثاني عشر وإن كان ذلك بنصيب محدود.

ومن ناحية أخرى إنه إلى جانب الإعتماد على الحضارة اللاتينية الغربية فقد اعتمدت نهضة القرن الخامس عشر الإيطالية على التراث اليوناني واتجهت لاحياء هذا التراث للإستفادة منه، أما نهضة القرن الثاني عشر فقد اعتمدت على التراث العربي الإسلامي، إلى جانب اعتمادها على التراث اليوناني، والروماني، وفضلاً عن ذلك فإن النهضتين المذكورتين تختلفان من حيث أن نهضة القرن الثاني عشر لم يأت مولدها مقترناً بالبذخ والثراء، وتعدد القدرات الفردية اللامعة، وهي الأمور التي تميز ظهور نهضة القرن الخامس عشر، كما أن الإتجاهات الفنية الرفيعة لم تكن قد نضجت بعد في هذه النهضة الوسيطة على النحو الذي تشاهده في النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر.

أسباب النهضة

ونوضح فيما يلي أهم العوامل التي أدت إلى قيام نهضة القرن الثاني عشر الميلادي، ومن أهمها كانت روح ذلك الإستقرار النسبي الذي أخذت تتمتع به بلاد الغرب الأوروبي بعد انتهاء أخطار وتهديدات الفايكنج والمجر من ناحية، واستقرار الأحوال والأوضاع السياسية والإجتماعية والدينية من ناحية أخرى. ومن المعروف أن الإستقرار من العوامل التي تساعد على التطور والتقدم الحضاري. فأخذ عدد من ملوك الغرب يشجعون النشاط الفكري.

ومن ناحية أخرى فقد أسهم في قيام هذه النهضة النشاط التجاري الذي قام في الغرب الأوروبي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وخاصة في الشمال الإيطالي. وما واكب ذلك من نمو المدن وتقدم الحضارة وتطور الحياة الفكرية. ولكن يجب ألا نبالغ في أثر النشاط الإقتصادي للمدن الإيطالية

بالنسبة لنهضة القرن الثاني عشر. وإن كان الكتاب درجوا على الربط بين قيام النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر ونشاط المدن الإيطالية التجاري إلا أن ذلك لا ينطبق بنفس الدرجة على نهضة القرن الثاني عشر، خاصة إذا ما تذكرنا إن هذه النهضة لم تكن قاصرة على إيطاليا بل شملت سائر بلاد الغرب الأوروبي، مثل فرنسا حيث ظهرت مظاهر تلك النهضة دون أن يصاحبها أي تطور اقتصادي على مستوى واسع.

ولقد لعبت الكنيسة الكاثوليكية دورها في قيـ. هذه النهضة، وكان مما فعلته الإنفاق على الرحلات التي قام بها رجال الدين، وكذلك ما أظهرته من اهتمام بجمع الكتب ونسخها. كما صاحب هذه الفترة ازدياد نفوذ البابوية وانتشار حركة الحجاج المسيحيين وتنقلهم، مما أدى إلى تعرف الناس على مراكز الثقافة المختلفة في الغرب والشرق وحدوث اللقاءات والروابط الفكرية، وظهر في ذلك كثير من ملاحم الحجاج وأغاني المآثر.

وكان لحركة الإسترداد التي قام بها الأوروبيون المسيحيون على حساب المسلمين في أسبانيا، أثرها في هذا المجال، فقد استولى المسيحيون على طليطلة سنة ١٠٨٥ م وسرقسطة ١١١٨ م، وهناك عثروا على العديد من المخطوطات العربية في مختلف العلوم والقانون. وأخذ علماء الغرب وطلابه يتجهون إلى هذه المنابع ليترجموا علوم العرب وكتبهم ويستفيدوا منها. ويرجع إلى علوم العرب هذه فضل كبيرٌ في تقدم كثير من الدراسات الجديدة في غرب أوروبا منذ ذلك الحين. ولا يزال أفضل مرجع لدراسة تاريخ نهضة القرن الثاني عشر هو الكتاب الذي وضعه المؤرخ هاسكنز C.H. Haskins والذي يعرف باسم The Renaissance of the Twelfth Century.

مظاهر النهضة

١ ـ الكتب والمكتبات:

علينا قبل دراسة النواحي المختلفة للنشاط الفكري في الغرب الأوروبي القرن الثاني عشر أن نلقي نظرة على أحوال الكتب والمكتبات في هذا

العصر، فإن الإلمام بتاريخ الحياة الفكرية لعصر من العصور يتطلب التعرف على نـوع الكتب التي تناولهـا القارئـون في ذلك العصـر، وكيفيـة تـداولهـا واستعمالها ونسخها. فعلى سبيل المثال فإننا بالإطلاع على قائمة أسماء الكتب بدير من الأديرة في هذا الحين نستطيع أن نتعرف على المستوى الثقافي لأهل ذلك الدير بدراسة مادة الكتب التي استمد الرهبان منها معلوماتهم وثقافتهم.

والـواقع أن أهـالي الغرب في العصـور الوسـطى لم يعرفـوا المكتبات المنظمة بالمعنى الدقيق الذي نعرفه اليوم. فعندما يذكرون لفظ «مكتبة» في تلك العصور كانوا لا يقصدون بـه بناء مستقـلاً أو حتى غرفـة قائمـة بذاتهـا مخصصة لحفظ الكتب والإطلاع عليهـا، فاللفظ الشـائع لـديهم للتعبير عن المكتبة كان Armorium ومعناه خزانة الملابس أو قائمة نسخ الكتب. وكـانـت هذه الكتب الخـاصـة بـالـديـر أو الكنيسة كانت مجموعـة صغيرة تـوضع على أرفف الحائط ويقدر عددها ببضع عشرات وإن كانت تصل إلى عدة مئات في مكتبات بعض الأديرة الشهيرة مثل دير كوربي. وكانت هذه الكتب تكفي حاجة الرهبان للقراءة. وقد اشتد الإهتمام بوجود الكتب في حياة الرهبان حتى قال المعاصرون (دير بدون كتب كقلعـة بـدون ذخيـرة).

وقد أخذت هذه المجموعات الصغيرة من الكتب التي حوتها مكتبـات الأديرة والكنائس في النمو عن ثلاثة طرق: الشراء والإهداء والنسخ. ولم يكن شراء الكتب ميسوراً حينئذ لصعوبة عملية النسخ اليدوي. وكان نسخ الكتب في الأديرة يتم عن طريق رهبان يعهد إليهم بهذه المهمة. وكـانـت عملية النسـخ صعبة جداً في هذه العصور حتى إننا نسمع عن كثير من الكتاب الصبـورين الذين يضطرون للكف عن النسخ لتورم أصابع أيديهم من كثرة الكتابة وشدة البـرد. ويكفي أن نتذكـر أن الكتابـة حينئذ كـانت عبارة عن نحت في جلود الحيوانات المجففة مما كان يتطلب جهداً كبيراً وصبراً لا ينفذ.

وإذا نظرنا إلى ما كانت تحتوي عليه هـذه الكتب المنسوخـة من أنواع المعرفة، وجدنا مكتبات القرن الثاني عشر تضم مؤلفـات جديـدة إلى جانب المؤلفات القديمة. وقد روعي في عمل فهارس المكتبات الترتيب الموضوعي

بصفة عامة. فتبدأ بإسم الكتاب المقدس ثم كتب العبادة والصلوات ثم كتب الآباء والقديسين. وكان الإهتمام بهذه الأنواع في تلك المكتبات أمراً طبيعياً يتمشى مع طبيعة التعليم الديني الذي استهدف أعداد رجال الدين. وكان يشمل التعليم غير الديني في ذلك العصر تلقين الفنون الحرة السبعة Seven Arts التي أنقسمت إلى مجموعتين:

المجوعة الثلاثية Trivium وتشمل النحو والبلاغة والجدل. والمجموعة الرباعية Quatrivium وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك، وهكذا أصبحت مكتبات ذلك العصر تحوي بعض الكتب غير الدينية في هذه الموضوعات مثل مؤلفات النحوي اللاتيني برسكيان Prescian ومؤلفات بوسيثيوس الفيلسوف. كما وجدت في المكتبات مؤلفات في القانون الكنيسي والقانون الروماني. وبتقدم نهضة القرن الثاني عشر واتساع دائرة النشاط العلمي، وجدت المؤلفات التي كتبها علماء ذلك القرن طريقها إلى مكتبات الأديرة مثل كتابات أنسلم Anselm وبطرس اللمباردي Peter Lambard وغيرهما.

والواقع أن مكتبات الأديرة والكاتدرائيات كانت أهم أنواع المكتبات في هذا العصر، فالعصور الوسطى لم تعرف نظام المكتبات العامة الذي تعرفه اليوم. وبتقدم الزمن قسمت الكتب بالمكتبات المذكورة إلى قسمين: قسم يوضع في خزائن أو صناديق تغلق بالمفاتيح، وقسم آخر يعرض للإطلاع مع الاحتياط بربط الكتب بسلاسل في المناضد لضمان سلامتها وعدم ضياعها.

٢ ـ احياء الدراسات اللاتينية:

شاهدت نهضة القرن الثاني عشر إحياء وتجديد في النشاط الفكري، أما الإحياء فالمراد به هنا إحياء الدراسات اللاتينية القديمة أو «الكلاسيكية». وقد اعتبرت هذه الدراسات مقياساً للنشاط الفكري في غرب أوروبا، منذ سقوط الامبراطورية حتى بداية العصور الحديثة. ويجب أن نتذكر بأن التراث الفكري اللاتيني لم يقض عليه ولم يندثر تماماً في وقت من الأوقات، وما حدث هو أن العناية به قد قلت أو تزايدت وفقاً للمستوى الثقافي في العصور المختلفة التي

مرت. هذا وكان رجال الدين المسيحي بطبيعة الحال يعارضون أي إهتمام زائد بالدراسات اللاتينية التي جاءت من العصر الوثني. واستمر هذا التعارض حتى القرن الثاني عشر الميلادي. ومن الشواهد على ذلك أن جراشيان ذلك المشرع القانوني، عندما أقبل على تنظيم القانون الكنيسي في أواسط القرن الثاني عشر كانت أول مشكلة تعترضه هي إذا كان من اللازم بالنسبة لرجال الدين تعلم الدراسات الدنيوية أم لا. حقيقة إن بعض البابوات اعترفوا بأن معرفة هذه العلوم الدنيوية ضرورة لفهم الكتاب المقدس، إلا أن هذه الأشكال والتعارض ظل دون أن يجد له حلاً قاطعاً.

ومن الأمور التي حدثت للاهتمام بالأدب اللاتيني في القرن الثاني عشر كان الإهتمام بالمنطق والإتجاه العملي الجديد في الحياة. فإن تفهم «المنطق الجديد» لارسطو، الذي ساد في منتصف هذا القرن وشغل الناس في أمور الجدل والفلسفة والمنطق، قد حد نسبياً من الإهتمام بالدراسات الأدبية.

ومهما يكن من أمر فنحن نجد مرحلة لقيت فيها الآداب والدراسات القديمة قدراً هاماً من العناية في القرن الثاني عشر. ومما اهتم به القائمون بهذه الدراسات كان الشعر وشرحه، ودراسة قواعد اللغة ونحوها. ومن البارزين في هذا المجال كان حنا سالسبوري الذي يبدو تأثره بكتابات شيشرون الذي كان بالنسبة له أعظم الذين كتبوا باللغة اللاتينية. وكان حنا سالسبوري يرى أنه لا تنافر بين المسيحية والتراث الروماني القديم، ففي تصوره أن العنصرين قد اندمجا ليتكون منهما العالم الروماني المسيحي. ويعتبر هذا المفكر الذي كان من أبرز رجال الدين والأدب والفلسفة والسياسة مفخرة لمدرسة شارتر Chertres حيث درس ومات وهو اسقف سنة ١١٨٠ م.

وقد وجد مركزان للدراسات الكلاسيكية في القرن الثاني عشر هما مدرسة شارتر وأورليان، وكان التفوق في الأهمية للمدرسة الأولى منهما. وكان من أعظم كتاب اللاتينية شهرة في العصور الوسطى، الشاعر اللاتيني فرجيل Virgil الذي ظل انتاجه موضعاً لكثير من الدراسات. ويلي فرجيل في الأهمية الشاعر اللاتيني أوفيد Ovid الذي كان لاشعاره في العصر الوسيط شعبية

وانتشاراً، خاصة قصيدته «فن الحب» و «دواء الحب». هذا على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر بالنسة للشعر والشعراء. أما بالنسبة للنثر، فكان لشيشرون الصدارة في العصور الوسطى حتى لقب بملك الفصاحة واعتبر عمدة البلاغة بين الكتاب الرومان. هذا وكانت هناك مجموعة أخرى من أعلام النثر والبلاغة الرومان بقيت ذكراهم وكتاباتهم متداولة في القرن الثاني عشر.

وخلال الإهتمام بهؤلاء الكتاب الرومان، الأمر الذي يعتبر من مظاهر نهضة القرن الثاني عشر، نلاحظ في هذا القرن الاتجاه إلى الإقتباس عن الكتاب والمفكرين القدامى، كما نلاحظ الإهتمام بالشروح والتعليقات على الدراسات اللاتينية القديمة، وفضلاً عن ذلك نجد تأثير هذه المؤلفات القديمة على الأدب الوطني الجديد الناشيء وبالذات في كتابة الشعر.

٣ ـ اللغة اللاتينية:

كان من الطبيعي مع الإهتمام بالأدب اللاتيني القديم، إن اللغة اللاتينية وهي أداة ذلك الأدب، أن تدرك نصيباً من التطور والرقي في القرن الثاني عشر، ويتضح ذلك في كل من الكتابات النثرية والشعرية. ومن المعروف أن اللغة اللاتينية ظلت هي اللغة العالمية السائدة في غرب أوروبا حتى أواخر القرن الثاني عشر، عندما أخذت تنافسها اللغات الوطنية الجديدة Vernacular أو العامية Vulgaire حتى أصبح للأدب مظهران، أحدهما يظهر في الأدب اللاتيني، والآخر ويظهر في اللغات الوطنية والعامية الناشئة. وعلى أية حال فإن هذه اللغات الأخيرة لم يصل انتشارها في القرن الثاني عشر درجة تجعلها خطراً كبيراً على اللغة اللاتينية، وحتى هذا الحين كانت اللاتينية هي الشائعة بين رجال الدين والقلم والأعمال والقضاء والإدارة.

وكان لا بد من ملاحظة أنه من المستحيل أن تبقى لغة من اللغات على حال واحد، خاصة وإذا كان استعمالها في محيط جغرافي كبير ولأزمنة طويلة متتالية وأغراض مختلفة. ولذلك نجد تطوراً في اللغة اللاتينية واختلافاً بين ما وجدت عليه في العصور القديمة والعصور الوسطى، بل أن هذه اللغة في

العصور الوسطى ذاتها اختلفت اختلافاً واضحاً تبعاً لاختلاف الزمان والمكان والناحية التي استعملت فيها، حتى إننا نجد تبايناً شديداً في محصول الألفاظ، الأمر الذي يتطلب قاموساً خاصاً لكل بلد أو اقليم. ولا ريب أن مما أدى إلى ذلك التباين والتطور، كانت مقدرة اللغة اللاتينية على استيعاب العناصر اللغوية الغربية، وكان ذلك مما ساعدها على البقاء والاستمرار لأمد طويل منذ العصور القديمة وخلال العصور الوسطى حتى اضطرت للاستسلام في النهاية أمام تزايد قوة اللغات الوطنية في القرن الخامس عشر.

وعلى أية حال، فقد شهد القرن الثاني عشر انتعاشاً في اللغة اللاتينية ورقياً في مستواها حتى أن بعض الباحثين يرون أن العصر الذهبي لها في العصور الوسطى إنما كان في القرن الثاني عشر الميلادي. وكان المرجع الرئيسي في دراسة النحو اللاتيني حينئذ الكتاب الذي ألفه برسكيان في أوائل القرن السادس الميلادي، وإن كان دارسو اللغة اللاتينية يفضلون المراجع السهلة في النحو مثل الكتاب الذي ألفه دوناتوس في القرن الرابع. وقد شاهد القرن الثاني عشر انتاج الكثير من المعاجم والقواميس في اللغة اللاتينية.

إلا أن المكانة التي وصلت إليها اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ما لبثت إن اهتزت منذ القرن الثالث عشر الميلادي بل منذ أواخر القرن الثاني عشر. وربما كان تفسير ذلك يقع في تلك العلوم والمعارف الجديدة التي أخذت بها أوروبا خلال نهضة القرن الثاني عشر وانصراف الباحثين عن الاهتمام بأصول اللغة واتجاههم إلى المعارف الجديدة.

٤ ـ النثر والشعر.

يتجلى تطور اللغة اللاتينية وارتقاء مستواها في القرن الثاني عشر في كل مكان من قسمي الأدب: النثر والشعر. أما علم البلاغة المرتبط بعلم النحو، فقد أصبح وضعه في العصور الوسطى يختلف عما كان عليه في العصور القديمة. فالبلاغة قديماً كان ارتباطها بالخطابة وكان ذلك من مقتضيات الأحوال السياسية في روما القديمة، أما في عصر النهضة فكان الإتجاه نحو إنشاء

الرسائل التي أصبحت محور البلاغة وميدان البيان. وقامت بولونيا بدور أساسي في ذلك المجال.

أما القصة القصيرة التي لها شأنها في الآداب، فقد جمع بعضها في مجموعات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والغرض الأساسي من ذلك كان تسلية الأمراء والحكام. وهذه القصص تعرض لنا جوانب مما عرفه المجتمع حينئذ من الأوهام والخرافات والأوضاع الاجتماعية السائدة.

وشهد ميدان الشعر اللاتيني في القرن الثاني عشر نشاطاً مرموقاً وخاصة في فرنسا، ومما يشهد على ذلك أولئك الكبار من الشعراء الذين ظهروا مثل ماربود Marbode وبودري دي بورجي Baudry de Bourgueil وغيرهما. ولم يقتصر الشعر اللاتيني في هذا القرن على تقليد النماذج الكلاسيكية، وإنما نجح كذلك في استحداث نماذج وأوزان جديدة. ولم يترك شعراء هذا القرن موضوعاً إلا تناولوه في أشعارهم. فنظموا في التاريخ وشعر الملاحم والدين والأساطير والأخلاق والرثاء والتهنئة والغزل ومجالس الشراب، هذا إلى جانب ما وضعوه من الشعر الغنائي والفكاهي وغير ذلك. ويظهر في شعر هذا القرن تأثره بالطابع الديني، وكان ذلك شيئاً طبيعياً في ذلك العصر الذي يتسم بالحماس الديني وقوة مكانة الكنيسة ونفوذها.

ويعتبر القرن الثاني عشر وعلى التحديد الفترة الممتدة من سنة ١١٢٥ م، إلى ١٢٣٠ م بمثابة العصر الذهبي للشعر الغنائي الدنيوي Secular Lyric Poetry وهو الذي يعرف في اللاتينية باسم الشعر الجولياردي Goliardic Poetry ويمتاز بالفكاهة وخفة الروح مع الابتكار والتنوع. وكان مركزه أصلاً في شمال فرنسا ثم انتشر في كثير من بلاد غرب أوروبا، وكان انتشاره بصفة خاصة بين طلاب الجامعات الجديدة، وتدور معظم موضوعات هذا الشعر حول الخمر والنساء والغناء (راجع كتاب: Symonds: Wine, Women and Songs) واتجاه هذا النوع من الشعر نحو الاستمتاع بملذات الحياة الدنيا والحب والجمال، وكذلك التخلص من قيود الدين وسيطرة رجاله المتزمتين.

وقد انتقد الشعراء الجولياردبون البابوية ورجال الكنائس والأديرة وجعلوهم موضعاً لسخريتهم. واستمر هذا النوع من الشعر تردده الألسن منذ القرن الثاني عشر إلى عصر حركة الإصلاح الديني البروتستنتي في القرن السادس عشر، واعتمد عليه دعاة هذه الحركة لبيان واثبات مفاسد الكنيسة الكاثوليكية. ويرى بعض المؤرخين في الشعر الجولياردي مظهراً من مظاهر التحرر الفكري الذي يهدف للتخلص من قيود الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي كان نذيراً بحركة الإصلاح الديني.

وبشأن الشعر، فإن الأمر لم يقتصر على كتابته باللاتينية فحسب، ذلك أن آداب اللغات الوطنية أخذت في الظهور، وفي أواخر القرن الثاني عشر ظهر الشعر الغنائي البروفنسالي في جنوب فرنسا. وقد امتد تأثيره بعد ذلك إلى شمالها، وكذلك إلى الأدب الإيطالي والألماني. وقد تغنى شعراء التروبادور بهذه الأشعار. ومجمل القول إننا نستطيع عند أواخر القرن الثاني عشر أن نتحدث عن الآداب الوطنية الجديدة مما جعل ذلك القرن بداية عصر الانتقال من الأدب اللاتيني الخاص إلى الآداب الوطنية الناشئة.

٥ ـ التدوين التاريخي:

كان تطور التدوين التاريخي مظهراً هاماً من مظاهر النشاط الفكري في القرن الثاني عشر. وأسباب هذا التطور ترجع لاحياء الطرق القديمة في كتابة التاريخ، وكذلك الأحداث الكبرى التي وقعت في القرن الثاني عشر والتي كانت تستحق التسجيل ومنها الحروب الصليبية والصراع بين البابوية والامبراطورية والنزاع بين انجلترا وفرنسا، وقيام المدن وتطورها سياسياً واقتصادياً.

ويرجع الباحثون أصول التدوين التاريخي في العصور الوسطى إلى العصر المسيحي لا الوثني، وأن أوروبا الوسيطة قد اخذت فلسفة علم التاريخ من القديس أوغسطين (ت ٤٣٠ م) وغيره من الكتاب المسيحيين. وقد ازدهرت في نهضة القرن الثاني عشر الميلادي ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها

العصور الوسطى، وهي السير Biographies والحوليات Annals والوقائع الاخبارية Chronicles.

هذا ويلاحظ أنه وجد إتجاه قوى لاستخدام اللغات الوطنية الناشئة في تدوين التاريخ في القرن الثاني عشر ويتضح ذلك في فرنسا والمانيا وانجلترا النورمانية فإن الكتابة بهذه اللغات جعل التاريخ أمراً دنيوياً عاماً غير قاصر على فهم رجال الدين، وبهذه الطريقة كان المؤرخون يكتبون للشعوب بلغاتهم كما اهتموا بتسجيل الأحداث والوقائع التي تهم الدول.

٦ ـ القانون والتشريع:

كانت الدراسات القانونية من أعظم النواحي التي تجلى فيها النشاط الفكري في القرن الثاني عشر، وذلك لما شهده هذا القرن من نشاط واضح في إحياء الدراسات القانونية الرومانية. ومن المعروف أن الرومان كان لهم نبوغهم في هذا المضمار، حتى أن الكاتب الكلاسيكي فرجيل قال بأن الرومان كانوا حكاماً ومشرعين أكثر منهم فلاسفة وأدباء، كما يرى أحد الكتاب الحديثين أن روما قد غزت العالم ثلاث مرات، الأولى بجيوشها، والثانية بكنيستها، والثالثة بقانونها. وكانت هذه المرة الأخيرة في المجال الفكري. وحدثت بعد أن انتهت الدولة الرومانية وزالت ككيان سياسي في عام ٤٧٦ م.

حقيقة أن دراسة القانون الروماني لم تتوقف في غرب أوروبا طوال المرحلة السابقة من العصور الوسطى التي يطلق عليها اسم العصور المظلمة. فقد وجدت مدرسة للقانون الروماني في روما حتى بعد تخريب هذه المدينة على أيدي النورمان سنة ١٠٨٤ م، كما وجدت مدارس أخرى للقانون في مدينتي بافيا ورافنا. إلا أن نشاط هذه المدارس على ما يبدو لم يكن كافياً للحد من انتشار القوانين العرفية، التي جاءت أصولها من تقاليد وعادات الشعوب الجرمانية، والتي انتشرت مع مجيء الجرمان وكذلك مع قيام النظام الإقطاعي. وقد أصبحت هذه التقاليد والعادات هي المتحكمة في المجتمع الغربي، وإن ظلت بعض آثار القانون الروماني باقية مثل الحال لدى

اللومبارديين في شمال إيطاليا في القرن الحادي عشر، كما أن بعض الدول الجرمانية التي قامت في غرب أوروبا مثال القوط الشرقيين والغربيين والبرجنديين، قد اقتبست تشريعاتها من مجموعة القانون الروماني التي جمعها الامبراطور ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٣٨ م. ووجد أثر آخر هام للقانون الروماني في الغرب الأوروبي، ممثلاً في مجموعات الامبراطور جستنيان القانونية التي أصدرها في القرن السادس الميلادي، وكانت هذه بمثابة النواة التي تبلورت حولها النهضة القانونية الجديدة في القرن الثاني عشر.

وترتبط نهضة القانون الزوماني في القرن الثاني عشر بمدرسة بولونيا في ايطاليا كما يرتبط بالعالم القانوني إرنريوس Irnerius وكان نشاطه في بولونيا، وقد تمتع هذا العالم برعاية ماتيلدا أميرة تسكانيا التي أرادت إقامة مدرسة للقانون لتكون سنداً لها ولحليفتها البابوية في صراعها ضد الامبراطور وحليفته مدرسة رافنا. وفي بولونيا عمل ارنريوس كمدرس ومؤلف في القانون وكتب الكثير من المؤلفات القانونية التي دارت بشكل خاص حول موسوعة جستنيان، واعتمدت طريقة ارنريوس في التدريس على الشرح والمناقشة والبحث. وخلف هذا الرجل عدد من المشتغلين بالقانون يطلق عليهم لقب الشراح Glossators.

وتكون الجهود التي بذلها شراح بولونيا ركناً هاماً من النشاط الفكري في القرن الثاني عشر، كما تحتل مكانة مرموقة في تاريخ أوروبا الثقافي بوجه عام. وهذه الجهود لم تقف عند تهذيب نصوص القانون وتحديد معانيها، بل عمدت إلى تحليلها وتفسيرها.

هذا ويجب أن نأخذ في اعتبارنا أن حركة إحياء القانون الروماني في القرن الثاني عشر لم تكن منعزلة عن تطور المجتمع الذي جاءت إليه، وإنما ارتبطت بالعوامل الحضارية المؤثرة في ذلك العصر. ومن هذه العوامل كان النشاط الإقتصادي في حوض البحر المتوسط ولا سيما في شمال إيطاليا. فإن نشاط التجارة في هذا العصر تطلب وجود قوانين أكثر مرونة ورقياً من النظم والقوانين التي كان معمولاً بها في الفترة السابقة. كما ظهرت في القرن الثاني

عشر بداية انحلال النظام الاقطاعي وظهر ميل للتجمع والإتحاد السياسي، الأمر الذي تطلب قانوناً عاماً أوسع أفقاً وأقوى من القوانين المحلية والإقطاعية القائمة في معالمها على العرف والتقاليد. وأخذ الحكام يعتمدون على القانون في تأييد موقفهم وتدعيم وجهة نظرهم. ومثال ذلك ما فعله الامبراطور فردريك بربروسا أثناء نزاعه مع البابوية، والتجائه إلى القانون الروماني لاثبات تفوق الامبراطورية على البابوية، وكذلك لتأييد حقوقه وسيادته على المدن اللومباردية. هذا وكان القانون الروماني يتجه لتدعيم حكم الأباطرة.

وإذا كانت بولونيا قد أصبحت المركز الرئيسي لشراح القانون في هذا العصر، فإن كثيراً من الجامعات الأوروبية الأخرى التي نشأت في أوخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر لم تلبث أن عنيت هي الأخرى بدراسة القانون.

هذا ولم تقتصر العناية بالدراسات القانونية في هذا الحين على القانون الروماني وإنما امتدت كذلك لتشمل القانون الكنسي، وهو القانون الذي ظل في صراع دائم مع السلطة السياسية الدنيوية في مختلف أنحاء غرب أوروبا. فإن القانون الكنسي كان قانون الكنيسة العالمية التي طالبت بالسمو والسلطة العليا في الأمور الدينية وكذلك في المسائل العلمانية. والواقع أن مبادىء القانون الكنسي يرجع إلى عصر الإمبراطورية القديمة، ولكن الجزء الأكبر منها يرجع إلى العصور الوسطى، وتستمد أصول ذلك القانون من الإنجيل وما أثر عن القديسين، وكذلك قرارات المجامع الدينية والمراسيم البابوية. وكانت هذه المنابع تنظم بين حين وآخر، ولكنها ظلت تعاني من الإرتباك والتناقض بسبب كثرتها وتنوعها، ولقد شهد القرن الحادي عشر عدة جهود ومحاولات لتنظيم القانون الكنسي وتبويبه. ومن هذه المحاولات ما قام به برخارت Burchard اسقف ورمز، وانسلم اسقف لوكا Lucca كما برز في هذا المجال اسم جراشيان Gratian. وبذلك ارتبطت نهضة القانون الكنسي في هذا القرن باسمه، وكان جراشيان راهباً في بولونيا قام حوالي سنة ١١٤٨ م بترتيب القوانين الكنسية ووضعها في صورة مرتبة واضحة، وترتب على ذلك أن مجموعة

القانون الكنسي أطلق عليها اسم «مراسيم جراشيان»Decretum Gration. ولم تقف جهود جراشيان عند الجمع والتنظيم بل تعدت ذلك إلى الشرح والإيضاح. وأحرز كتاب جراشيان هذا نجاحاً كبيراً وأصبح مرجعاً للطلبة ورجال القانون، كما أصبح فيما بعد يكوّن الجزء الأول من مجموعة القانون الكنسي Corupus Jurlls Canonici.

وكان أكبر مشرعي القوانين الكنسية في القرن الثاني عشر البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١ م)، وكان من رجال القانون قبل اعتلائه كرسي البابوية، كما عمل استاذاً للقانون في بولونيا. وبفضل جهود هؤلاء الرجال وأمثالهم أصبح القانون الكنسي واضح الأفق والمعالم كما أصبح يدرس في الجامعات الأوروبية جنباً إلى جنب مع القانون الروماني. وأدى القانون الكنسي إلى تطورات هامة في الحياة العامة بغرب أوروبا نظراً لما ترتب عليه من اتساع نفوذ الكنيسة الإداري والقضائي وخاصة في القرن الثالث عشر.

ولقد ترتب على العناية بكل من القانون الروماني والقانون الكنسي في القرن الثاني عشر، انتعاش الدراسات القانونية في تلك البلاد التي كانت حتى ذلك الوقت تخضع للنظم الإقطاعية وما صاحبها من أحكام العرف والتقاليد. وسرعان ما وجد رجال الدين انفسهم أمام منافسة جديدة. فطالما كان رجال الكنيسة محتكرين للعلم والمعرفة، سيطروا على الوظائف العامة التي يتطلب القيام بها شيئاً من العلم. ولكن بانتعاش العلوم غير الدينية وبظهور الجامعات ودراسة القانون ظهرت طائفة من المتعلمين من غير رجال الدين، أصبح في استطاعة الحكام والملوك والإعتماد عليهم في ذلك الوقت الذي اشتد فيه الخلاف بين السلطتين الكنسية والعلمانية، وإذا كانت الكنيسة اعتمدت على فقهائها في القانون الكنسي، فقد اتجه الملوك نحو القانون الروماني المدني. وبالتالي أصبح رجال القانون عنصراً له أهميته في الحياة العامة والسياسية، مثلما حدث في فرنسا التي اعتمدت على رجال القانون.

٧ ـ حركة الترجمة

اعتمد الجانب العلمي والفلسفي في عصر نهضة القرن الثاني عشر على

التراثين اليوناني والعربي الإسلامي. ولم تستطع أوروبا الاستفادة من ذلك على مستوى واسع في القرن الثاني عشر، إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة، الأمر الذي يتطلب دراسة أهم أبعادها ومقوماتها.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن غرب أوروبا في العصور الوسطى ظل حتى أواخر القرن الحادي عشر يهمل العلوم والدراسات اليونانية إهمالاً يكاد يكون تاماً.

وفي هذه المرحلة استمر التراث اليوناني حيا في الدولة البيزنطية وخاصة في عاصمتها القسطنطينية، فهناك كانت اللغة اليونانية اللغة التقليدية المستخدمة في الدولة في شئونها الكنسية والعلمانية من قانون وإدارة ودراسات علمية وأدبية. وإذا كان مفكرو الدولة البيزنطية لم يضيفوا للتراث القديم إلا القليل، فإن علوم اليونان وكتاباتهم ظلت تدون وتدرس باستمرار، مما ساعد على تجمع الجزء الأكبر من التراث الفكري اليوناني في تلك الدولة.

ولم يقدر للدراسات اليونانية أن تنتشر وتمتد غرباً في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى، وإنما كان امتدادها في الشرق حيث ترجمت أولاً إلى السريانية والعبرية والعربية. ومع مرور الوقت أصبحت هذه التراجم السامية للتراث اليوناني لها أهميتها بالنسبة لغرب أوروبا الذي تعرف على جزء كبير من هذا التراث عن طريق تلك التراجم. وكان الطريق الذي سلكته علوم اليونان في وصولها إلى الغرب اللاتيني شاقاً وطويلاً في بعض الأحيان، فقد انتقل من اليونانية إلى السريانية أو العبرية ثم بعد ذلك إلى العربية، ومن الأخيرة إلى اللاتينية. وبالرغم من ذلك فإن النتائج في نهاية الأمر كانت طيبة مثمرة.

بدأت المرحلة الأولى من مراحل نقل هذا التراث في بلاد الشام، حيث ترجمت المؤلفات اليونانية لتغذي الأدب الأرامي Aramaic. واستمر كثير من هذه التراجم هناك حتى مجيء العرب فاتحين، في حين انتقل البعض الآخر منها إلى بلاد فارس مع النساطرة الذين التجأوا إليها، وهكذا بقي ذلك الجزء من تراث اليونان في بلاد فارس حتى استفاد منه العرب بعد فتحهم لها.

وعندما ظهر العرب كقوة سياسية على مسرح التاريخ بعد ظهور الإسلام، لم تكن لديهم في المرحلة المبكرة من تاريخهم دراسات فلسفية أو عملية خاصة بهم. إلا أنهم أظهروا إستعداداً كبيراً للتعلم من الحضارات التي وجدوها والإستفادة منها ولهذا استطاعوا تشرب ما عثروا عليه من علوم وثقافات. بل أن الأمويين أبقوا على المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية في الاسكندرية وبيروت وانطاكية ونصيبين وغيرها، واحتفظت تلك المراكز الثقافية بالمؤلفات العلمية والفلسفية، ومعظمه كان في ترجمته السريانية. وقد اهتم المسلمون بتلك التراجم، وما لبثوا أن عملوا على نقلها إلى اللغة العربية.

ومع مرور الوقت استزاد الغرب من الدراسات والمعارف عن طريق الشعوب الشرقية الأخرى مثل الفرس والهنود والصينيين. وشاهد العصر العباسي حركة علمية قام فيها الدارسون بترجمة كثير من المراجع إلى العربية. وإن هذه الحركة العلمية جعلت البلاد العربية تتبوأ مكانة خاصة في المجال الحضاري في تلك المرحلة من العالم الوسيط.

وظلت الإتصالات الثقافية بين غرب أوروبا والعالم العربي الإسلامي محدودة حتى القرن الحادي عشر. ومنذ هذا الحين أخذت العلوم العربية تنتقل إلى غرب أوروبا عن طريق معابر عدة، ارتادها الأوروبيون بهدف التعرف على علوم العرب. واتجه بعض طلاب العلم إلى الشمال الأفريقي أو المغرب الإسلامي مثل قسطنطين الأفريقي الذي له أهميته في تطور علم الطب في أوروبا بسبب ما ترجمه من المؤلفات اليونانية عن العربية. أما ليونارد البيزي فتعلم في المغرب الرياضيات وأصبح من أكبر علماء الرياضة في غرب أوروبا في القرن الثالث عشر.

أما صقلية فكانت مسرحاً هاماً آخر للنقل عن العرب. وكان مما جعلها معبراً للثقافة العربية إلى الغرب الأوروبي بموقعها المتوسط بين أوروبا وأفريقيا. هذا وقد دخلت تحت الحكم العربي خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي (٩٠٢ - ١٠٩٢ م) وحتى بعد انتهاء الحكم العربي بها وقيام حكم

النورمان. وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تمت ترجمة كثير من مراجع العرب في الجزيرة المذكورة. وعلى سبيل المثال، ففي سنة ١١٥٠ م ترجم أيوجينيوس البالرمي Eugenius of Palermo كتاب بطليموس السكندري في المرئيات وتلت ذلك ترجمة بعض كتابات بطليموس الأخرى في الفلك والرياضيات عن العربية كذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن المركز الرئيسي للترجمة من العربية إلى اللاتينية كان في أسبانيا أو في شبه جزيرة ايبريا، حيث نجح المسلمون في تحقيق مستوى رفيع للحضارة العربية في شتى نواحيها. وأخذ كثير من أعلام نهضة القرن الثاني عشر في التوجه إلى أسبانيا للأخذ عن الحضارة الإسلامية في مختلف نواحيها مثال الرياضيات والفلك والطب والفلسفة وغيرها. ومن أولئك الأعلام في القرن الثاني عشر كان أديلارد Adelard الانجليزي وجيرارد الكريموناوي، كما اشتغل في نقل العلوم عن العرب علماء من أهل اسبانيا من الأوروبيين واليهود. ولا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات كافية عن حياة هؤلاء العلماء وعن الظروف التي عملوا فيها. وإن كان يبدو أن عملهم لم يتركز في مكان واحد، وقد وجدت حركة الترجمة والنقل في عدد من المدن الأسبانية مثل برشلونة وبمبلونة. كما لعبت طليطلة دوراً كبيراً كمسرح لهذه الحركة. فقد أقام ريموند رئيس أساقفة طليطلة مكتباً كبيراً للترجمة عن العربية في النصف الأول من القرن الثاني عشر مما أعطى الفرصة لترجمة كثير من كتب العرب إلى اللاتينية. واستمرت حركة النقل والترجمة عن العربية من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر، ومن أهم ما ظهر فيها خلال هذا القرن الأخير كان الفرد الانجليزي Alfred وميخائيل سكوت الإسكتلندي.

وفي الوقت الذي شهدت فيه حركة النقل عن العربية إلى اللاتينية أكثر من معبر في أوروبا، فإن حركة النقل عن اليونانية كانت مركزة في صقلية وجنوب إيطاليا. وكانت هذه النواحي مكاناً لالتقاء الثقافات اليونانية واللاتينية والعربية واستمر هذا اللقاء في ظل دولة النورمان بعد قيامها. ويرجع وجود الثقافة اليونانية أو الهلينية بها لأيام حكم البيزنطيين وكذلك لاستمرار العلاقات بين

بيزنطة وهذه البلاد بعد انتهاء الحكم البيزنطي وخاصة العلاقات التجارية وما يصاحبها.

وقد بدأ نشاط حركة الترجمة عن اليونانية إلى اللاتينية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر وساعد على نشاطها ما وجد في صقلية وإيطاليا من مكتبات كبيرة ضمت كثيراً من المراجع اليونانية، وخاصة المكتبات التي وجدت في الأديرة الباسيلية. ويبرز في هذا المجال دور مدينة بالرمو عاصمة النورمان، وهناك شجع الملك النورماني روجر الثاني وخلفاؤه حركة الترجمة عن اليونانية. ومن أهم المترجمين في تلك الحركة كان هنري ارستيبوس Henricus Aristippus الذي ترجم بعض كتابات أفلاطون وارسطو لأول مرة من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، وهي الترجمة التي ظلت متداولة في غرب أوروبا في الجزء المتبقي من التاريخ الوسيط. كما أحضر بعض المخطوطات اليونانية الهامة من مكتبة الامبراطور البيزنطي.

وكان مما ادى إلى نقل التراث اليوناني إلى اللاتينية تلك العلاقات بين الدولة البيزنطية من ناحية، والبابوية الامبراطورية الغربية من ناحية أخرى. كما أن الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م واستقرار اللاتين هناك حتى سنة ١٢٦١ م قد أدى إلى تعرف الغرب الأوروبي على العديد من كتب اليونان القدامى وحمل منها الغربيون ما حملوه إلى الغرب وترجموا بعضه. وفضلاً عن هذا وذاك وجدت جماعات من التجار والرحالة الايطاليين الذين سافروا إلى الدولة البيزنطية وتعلموا اليونانية واستعملوها في ترجمة الكتب اليونانية إلى اللاتينية.

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا المجال وجود ذلك التوافق أو التكرار بين المترجمين عن العربية، مع المترجمين عن اليونانية، في تناول موضوعات متشابهة كالفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية. وقد أدى ذلك لوصول هذه الدراسات إلى الغرب اللاتيني عن طريق ترجمتها عن العربية أو اللاتينية، وأحياناً عن الطريقين في آن واحد، وكثيراً ما نجد في ذلك العصر ترجمتين إلى اللاتينية لمرجع واحد يوناني الأصل، أحداهما منقولة عن العربية والأخرى

منقولة عن الأصل اليوناني مباشرة. ولكن الملاحظ في غالبية الأحيان أن الترجمة عن العربية سبقت زمنياً الترجمة عن اليونانية.

٨ العلوم:

كانت معلومات غرب أوروبا في مسار العلوم محدودة حتى نهاية القرن الحادي عشر ولم تكن تتجاوز مختصرات ايزيدور Isidore وبيده Bede وبعض مؤلفات قدامى الرومان. ولكن خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وبعد نقل العلوم التي سبق ذكرها إلى اللاتينية، أقبل الأوروبيون على دراسة الرياضيات والفلك والكيمياء وحصلوا فيها على كتابات اقليدس وبطليموس السكندري وما كتبه العرب أنفسهم. وفي الطب حصلوا على كتابات جالينوس Galen وهيبوقراط وابن سينا. هذا وقد بدأ ظهور الطريقة التجريبية في مناهج البحث، ومع أن كتابات ومناهج ايزيدور وبيده وأمثالها ظلت قائمة ولها تأثيرها القوي في غرب أوروبا إلى ما بعد القرن الثاني عشر بمدة غير قصيرة. ونستطيع أن نجمل الذي حدث في القرن الثاني عشر أنه إلى جانب المعلومات المعروفة التي أبقى عليها الغربيون، أخذوا يتعرفون على تراث اليونان العلمي وعلوم العرب الجديدة. ومع كثرة ما تعرف عليه الغرب من معلومات، تطلب الأمر تقسيمها وتصنيفها، ومن ثم، بدأ يظهر نوع من التخصص العلمي. ونستعرض فيما يلي بعض العلوم وما حققته من تقدم في القرن الثاني عشر.

وقد حدث تقدم في العلوم الرياضية بعد ترجمة ما كتبه اقليدس في الهندسة. هذا وقد نقل وترجم اديلارد جداول حساب المثلثات للخوارزمي إلى اللاتينية، ونقل روبرت الشستري كتاب الجبر للخوارزمي إلى اللاتينية. ونقل أحد يهود أسبانيا في القرن الثاني عشر، وهو إبراهيم بن عزرا بعض مؤلفات العرب في مجال الرياضيات إلى اللاتينية وشرح للأوروبيين نظام الأعداد الذي عرفه العرب والذي يرجع إلى أصل هندي، والأرقام التسعة، مع استخدام الصفر. ويبدو أن الغرب بدأ يتعرف على هذا النظام العددي أثناء التبادل التجاري بين الشرق والغرب وقد أدى تعرف أوروبا على هذا النظام العددي

الجديد ثورة في الحساب في الغرب وساعد على التقدم الرياضي الذي شهده الغرب الأوروبي بعد ذلك.

أما علم الجغرافيا فإن التقدم الذي أحرزه في القرن الثاني عشر كان محدوداً نسبياً ولم تعرف أوروبا كتابات الجغرافيين العرب أمثال المسعودي وابن حوقل والاصطخري في وقت مبكر، ومع ذلك نجد بداية محدودة لتعرف الأوروبيين على دراسات العرب الجغرافية وعلى رأسهم الإدريسي الذي كتب مؤلفه «نزهة المشتاق في إختراق الآفاق» بناء على طلب الملك روجر الثاني ملك صقلية (١١١٣ - ١١٢٩ م).

وقد شهد القرن الثاني عشر تقدماً في علوم الطبيعة والكيمياء والطب. كما شهد هذا القرن ترجمة الكثير من المؤلفات العربية الشهيرة في الطب، وكان المركز الرئيسي للنشاط في دراسته مدرسة سالرنو بجنوب إيطاليا التي يمكن اعتبارها أول معهد طبي جديد عرفته أوروبا.

ومع كل هذا التقدم في دراسة العلوم، نلحظ بداية لظهور روح البحث والتجربة بين المعاصرين في القرن الثاني عشر. ومن علماء هذا القرن الذين اهتموا بالمشاهدة والملاحظة والتجربة كان اديلارد الذي تنقل في النصف الأول من هذا القرن بين بلاد البحر المتوسط ساعياً وراء المعرفة، واكتسب أثناء ذلك الكثير من نزعة العرب والبيزنطيين الواقعية ومنهجهم التجريبي في البحث. وقد جاء بعد ذلك الامبراطور فردريك الثاني (١٢٥٠ م) الذي اهتم بالعلوم اهتماماً كبيراً وطبق في البحث العلمي طريقة المشاهدة والتجربة، وله في ذلك تجارب عديدة طريفة. كل هذه الشواهد وغيرها جعلت عدداً من الكتاب الحديثين يقولون بأن روجر بيكون Roger Bacon لم يكن هو رائد المذهب التجريبي في أوروبا في العصور الوسطى.

الفصل التاسع

العمارة

العمارة البيزنطية

كنيسة أيا صوفيا

الكنائس البازيلكية

الكنائس الرومانسكية

الكنائس القوطية

لم تعترف الامبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية إلا بعد ما يزيد عن ثلاثة قرون، وعلى ذلك لم يسمح الأباطرة الرومان للمسحيين ببناء دور خاصة بهم يؤدون بها شعائرهم الدينية، وظلوا يمارسون صلواتهم واجتماعـاتهم في الخفاء. والراجح أنهم كانوا يؤدونها في بعض المعابد الوثنية النائية وفي دورهم الخاصة، ولم يقدموا على بناء كنائس خاصة بهم في هذه المرحلة. وعلى ذلك لم يظهر للفن المسيحي أثر واضح إلا في مقابرهم ذات القباب التي شيدت من الطوب اللبن وبعض الصور التي سجلت على جدران المقبرة من الداخل.

وبعد الإعتراف بالمسيحية أقام المسيحيون شعـائرهم عـلانية، ويـدأوا يتطلعون إلى إقامة مراكز خاصة بهم، فحصلوا بإذن من الامبراطور الروماني على بعض المعابد الوثنية سواء بمقابل أو بدون مقابل وحولوها إلى كنائس ثم بدأوا يشرعون في إقامة كنائس جديدة. وفي هذا الوقت أيضاً لم يظهر لهم فن مسيحي قائم بذاته، لأن المعابد الوثنية ظلت باقية بفنها الروماني القديم، وما أقاموه من كنائس جاء تقليداً لما كان سائداً من الطرز المعمارية التي ألفوها في تلك المرحلة وفي الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن السادس الميلادي بـدأ الفن المسيحي المعماري يتخـذ طـرازاً خاصاً بـه من نـاحيـة التصميم المعماري. فنجد الطراز الدائري الذي انتشر في بلاد اليونان والشرق أي في المناطق التي كانت خاصة بالامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنـطية)، كمـا تشاهد الكنائس المستطيلة Basilica التي سادت أنحاء غرب أوروبا. ومع هذا يلاحظ أنه لم يكن هناك خط جغرافي فاصل بين الكنائس الدائرية والكنائس

المستطيلة، فقد وجدت بعض الكنائس الدائرية في الغرب وبعض الكنائس المستطيلة في الشرق، ولكن ما نود أن نوضحه أن الكنائس المستطيلة أصبحت سمة مميزة لفن بناء الكاتدرائيات والكنائس في الغرب في حين أصبحت الكنائس الدائرية محور في بناء الكنائس في الشرق سواء أضيف إلى هذه الكنائس الدائرية القباب أم لم تضف.

العمارة البيزنطية

كانت الامبراطورية البيزنطية هي الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية وعندما بنى الامبراطور قسطنطين القسطنطينية لتكون مركزاً لحكمه كان للفن الروماني واليوناني أثره الواضح في العمارة، وعندما بنيت الكنائس الشرقية وهي التي يمكن أن نطلق عليها الكنائس البيزنطية والتي حملت فيها سمة العمارة البيزنطية، كان أثر العمارة اليونانية والرومانية واضحاً في هذه الكنائس، ومع مرور الوقت تأثرت الكنائس الشرقية بالعمارة الشرقية التي وجدت في فارس وآسيا الصغرى حتى اكتسبت طابعاً ممبزاً عن الغرب، هذا الطابع هو الفن المعماري البيزنطي. أي أن فن العمارة البيزنطية هو مزيج بين فن العمارة اليوناني والروماني والشرقي مع إضافة العامل الديني والعامل الجغرافي.

ومن أهم ما تميزت به الكنائس البيزنطية شكلها المربع والقباب نصف الدائرية. ولكي تتخذ الكنيسة الشكل العام للصليب أضيف إلى ذلك المربع ذراعان جانبيان وهو أمر يتعلق بالجانب الديني في فن العمارة المسيحي بصفة عامة. ومن الملاحظ أن الكنائس المسيحية في هذه المرحلة قد بنيت من الآجر، ولعل ذلك يرجع إلى تعذر الحصول على الأحجار أو أن القائمين على أمر المسيحية في هذه المرحلة كانوا يودون إقامة كنائسهم على وجه السرعة فلم ينتظروا حتى يحصلون على الأحجار، أو أن بناء الكنائس بالآجر فيه نوع من الزهد والبعد عن مباهج الحياة، وهو مبدأ حرصت المسيحية على تطبيقه خاصة في عصورها الأولى.

وعلى أية حال فإذا كان ما يطالعنا عند مشاهدة الكنيسة من الخارج، هو

الآجر، فإن جدرانها من الداخل قد غطيت بالرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والسيدة مريم والسيد المسيح. والحقيقة أن زخارف الكنيسة في الشرق بلغت درجة من الرقي فاقت ما كان عليه الغرب بكثير لفترة ليست بقصيرة وهي الفترة التي امتدت حتى القرن الحادي عشر الميلادي حين ظهر الفن المعماري الرومانسكي. أما فيما يتعلق بأعمدة الكنائس البيزنطية فكانت مثل الأعمدة الرومانية مع تجديد هيئة التيجان التي غلبت عليها صفة الاستدارة. كما تماسكت الأعمدة مع بعضها بعقود مقوسة أو على شكل (حدوة الحصان). ونخلص من هذا كله إن الكنيسة البيزنطية في هذه المرحلة بنيت من الأجر على شكل مربع ذو ذراعان تعلوه قبة، غطيت جدرانها في الداخل بالنقوش الدينية.

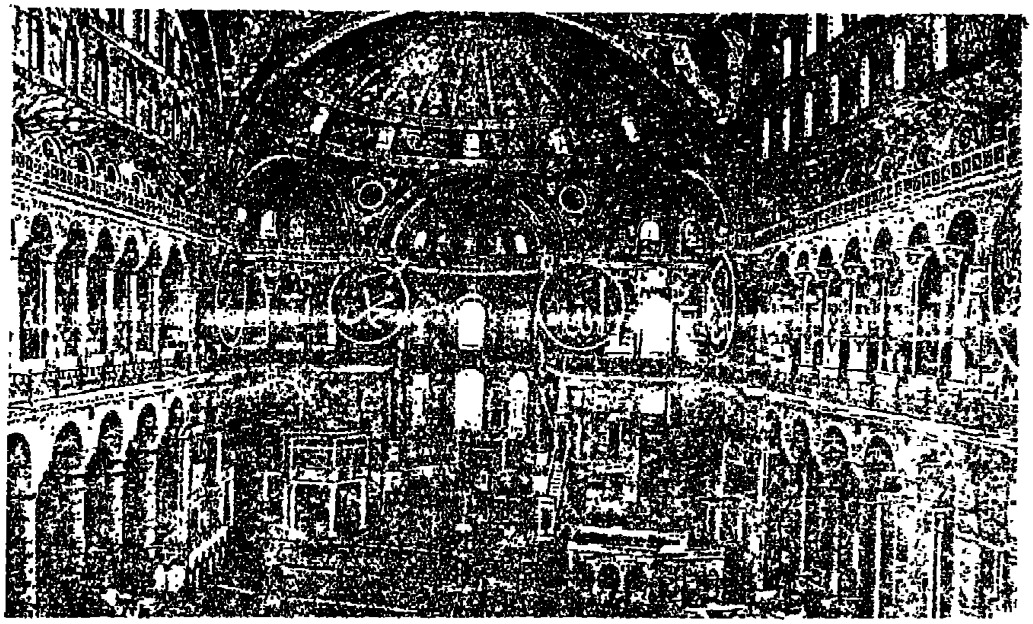
كنيسة أيا صوفيا Hagia Sophia :

كانت كنيسة أيا صوفيا أعظم ما قام به الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) وأبقى على الدهر من فتوحه وقوانينه. ولم تكن أيا صوفيا هي الكنيسة الوحيدة التي بناها جستنيان بل كان في العاصمة البيزنطية ما يقرب من أربع وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها في عاصمة ملكه، ويروي المؤرخ بروكبيوس Procopius ويقول: «إنك لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الامبراطور لم يبن كنيسة سواها، بل قضى سني حكمه جميعها في بنائها وحدها». وانتشرت حمى البناء في جميع أنحاء الامبراطورية طوال حياة جستنيان، حتى كان القرن السادس الميلادي أكثر العصور ازدهاراً في تاريخ العمارة البيزنطية. وانتشرت الكنائس في افسوس بآسيا الصغرى وفي أنطاكية وغزة، وبيت المقدس والاسكندرية وسلانيك ورافنا وروما. وكافة البلاد الممتدة من جنوب البحر الاسود حتى شمال افريقيا.

والواقع أن الفن اليوناني والروماني والشرقي والمسيحي لم يكن قد امتزج قبل عهد جستنيان، ولكن ثورة نيقا Nika التي دارت أحداثها في عام ٥٣٢ م أتاحت الفرصة للامبراطور جستنيان لبناء عاصمته من جديد. ذلك لأن السوقة في لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا العديد من المباني، وكان بين ما أحرق

كنيسة البطريق الكبرى. وكان في وسع جستنيان أن يعيد بناء ما يحرق حسب التخطيط القديم، فلا يتطلب هذا منه أكثر من عام أو أثنين، ولكنه لم يفعل ذلك وعقد العزم على أن ينفق في بناء الكنيسة مزيداً من الوقت والمال، وأن يستخدم في هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من روما. وأن يقيم بها كنيسة لا يدانيها صرح آخر في العالم كله. وكانت بداية عمله أن وضع في ذلك الوقت منهجاً للأبنية شمل الحصون والقصور والأديرة والكنائس.

وبدأ أول ما بدأ بكنيسة أيا صوفيا الجديدة فقد بدأ العمل بها بعد حوالي أربعين يوماً من أخماد نار ثورة نيقا، واستدعى لهذا الغرض المهندسين من أنحاء الامبراطورية وعلى رأسهم افتميوس وأزدور ليضعا رسوم البناء ويشرفا على التنفيذ. واستخدم في العمل عشرة آلاف عامل، كما أمر جستنيان حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقي من المخلفات القديمة وجيء بعشرات الأنواع والألوان من الرخام وفي مختلف الأقطار وصبت في النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة،



كنيسة أيا صوفيا في مدينة القسطنطينية (استامبول) (٥٣٧ م) ويلاحظ فيها الفن الإسلامي بعد استيلاء الأتراك عليها (١٤٥٣ م)

واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته. فقد كان يتردد يومياً على العمال وعليه ثوب أبيض وفي يده عصا طويلة، وعلى رأسه منديل، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه في الموعد المقرر. وتم بناء الكنيسة في حوالي ست سنوات.

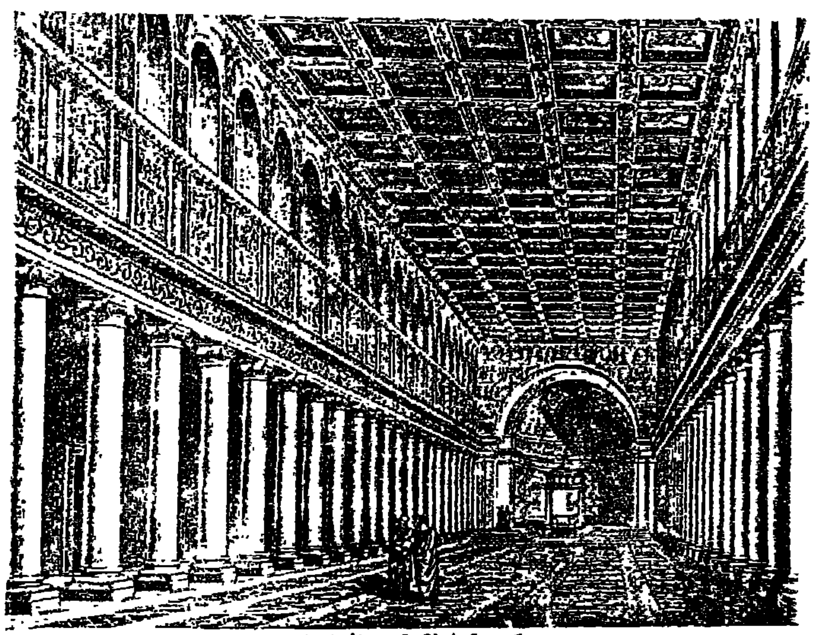
وقد خط البناء على شكل صليب يوناني طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥، وغطى كل طرف من أطراف الصليب بقبة صغيرة، وقامت القبة الوسطى على المربع البالغ ١٠٠ × ١٠٠ قدم والمكوّن من الضلعين المتقاطعين. وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة وثمانين قدماً وقطرها مائة قدم وبنيت هذه القبة من الآجر. ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة وفق نظام هندسي بديع، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة. وليست ميزة القبة في حجمها بل في دعائمهما، فهي لا تقوم على بناء دائري، بل على عقود بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة.

أما الكنيسة نفسها فهي مبنية من الآجر. وكان الناظر اليها من الداخل يرى صورة من الزخرف البراق، فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان. أبيض وأخضر، وأحمر، وأصفر، وأرجواني، وذهبي. وأقيم من هذا المرمر صفوف من الأعمدة يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار. وكانت تيجان الأعمدة والعقود وما بينهما والأفاريز مغطاة بالنقوش. أما الجدران والقباء فقد غطيت بالفسيفساء التي لا مثيل لها في الروعة. وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها في نفسه اجنحتها الطويلة وبناؤها الرئيسي، والفناء الخالي من الأعمدة تحت القبة الوسطى. وقد أعيد بناء قبة الكنيسة بعد أن دمرها زلزال عام ٥٥٨ م. وظلت هذه الكنيسة باقية على حالها حتى عام ١٢٠٤ م حين سقطت القسطنطينية في أيدي الصليبيين فأتلفوا جانباً منها. وبقيت الكنيسة قائمة حتى الفتح العثماني للقسطنطينية عام ١٤٥٣ م، فحوّلها الأتراك إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب، وبعض التعديلات الأخرى التي تناسب وضعها الجديد كمسجد، وما فعله الأتراك بالكنيسة أن غطوا الصور الداخلية المصنوعة من

الفسيفساء بالجص. ولكن الحكومة التركية أذنت منذ قليل إلى طائفة من الباحثين بالمعهد البيزنطي في مدينة بسطن أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التي لا تسمو عليها نماذج أخرى، فأصبحت متحفاً للفن المعماري البيزنطي والتركي.

الكنائس البازيلكية:

المعنى الأصلي لكلمة بازيليكا هو القصر الملكي، وهي قلعة متسعة مستطيلة ذات مجموعتين من الأعمدة، وعادة يكون لها حنية مكانها في أحد الضلعين القصيرين، وهذه الحنية تشبه محراب المسجد. وكانت تستخدم دوراً للقضاء أو التجارة، كما كانت منازل الرومان الخاصة تقارب هذا التصميم. ولما كان المسيحي الأول يكتفي بإقامة شعائر دينية بسيطة فاكتفى بما وجد بين يديه من البازيليكا. ولكن حدث رويداً رويداً وبخاصة في القرن الرابع، أن الكنيسة اقتبست شعائر المراسم التي تتبعها الدولة. فكما أن الأسر الحاكمة الجديدة كانت تطلب قصوراً بها قاعات للعرش وقاعات للثياب، فكذلك



كنيسة بازلكية من الداخل
كنيسة القديسة ماريا في روما (٤٣٢ م)

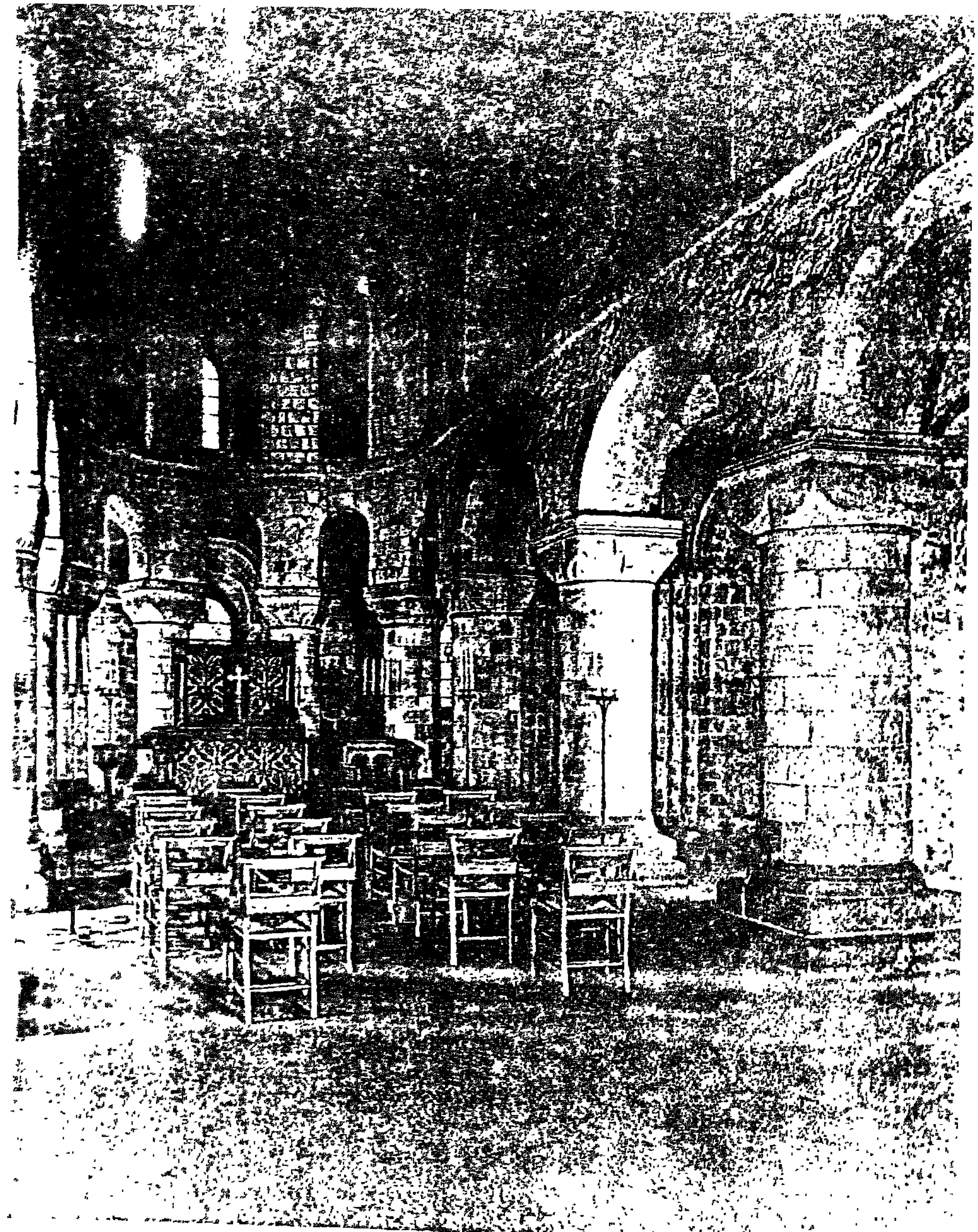
أصبحت الكنيسة بما لها من شعائر غير راضية عن الصحن الداخلي الذي لا يداخله أي تقسيم، لذلك أخذت تطالب بنظام أكثر تعقيداً دون التضحية بوحدة التصميم الهندسي.

والمهم أن اتخاذ البازيليكا دوراً للعبادة المسيحية ترتب عليه إدخال بعض التعديلات المعمارية والهندسية، وأصبحت بعد تعديلها من خصائص الكنائس التي بنيت على الطراز البازيليكي. وكما أوضحنا بأن التعديل لم يمس جوهر التصميم فقد ظلت البازيليكا مستطيلة الشكل كسابق عهدها كما ظلت الأعمدة والحنية. ولكن التعديل الجديد تطلب أن يكون ضلعي المبنى القصيرين في مواجهة الشرق والغرب وأن تكون حنية الكنيسة في الضلع الشرقي ويكون بابها في الضلع الغربي. أما التقسيم الداخلي للكنيسة بعد إدخال التعديلات فيمكن وصفه بأنه كان يتكون من صحن الكنيسة وهو مستطيل يمتد من باب الكنيسة حتى الحنية، وعلى جانبي هذا المستطيل صفان من الأعمدة، وعلى اليمين مستطيل آخر ومثيله على اليسار أي بمعنى أن المستطيل العام للكنيسة قسم إلى ثلاثة مستطيلات مع ملاحظة أن المستطيل الأوسط أكثر عرضاً من المستطيلين الآخرين، وقد تم عمل صفين من النوافذ في الإرتفاع الزائد على صحن الكنيسة حتى ينفذ منها الضوء إلى صحن الكنيسة في حين تظل باقي الكنيسة ضعيفة الإضاءة. وفيما يتعلق بالمواد التي صنعت منها سقف الكنيسة فكان من الخشب المموه بمادة الذهب. وأضيف أيضاً إلى الضلع الشرقي الذي به الحنية جناح عرضي خاص بالقساوسة فأصبح الشكل العام للكنيسة يشبه حرف (T)، كما كان كرسي الاسقف يوضع في حنية الكنيسة وعلى جانبه مقاعد كبار رجال الدين، ولما كان جمهور المصلين يؤدي صلاته في صحن الكنيسة فقد وضع مذبح الكنيسة في المسافة الواقعة بين جمهور المصلين والأسقف، وهذا المذبح كان يشيد في العادة فوق قبر القديس الذي شيدت الكنيسة باسمه. أما أرضية الكنيسة فقد غطيت بالرخام الذي وضع في أشكال هندسية بديعة. وفيما يتعلق بأبراج الكنيسة فكانت دائرية ومنفصلة عن صلب مباني الكنيسة.

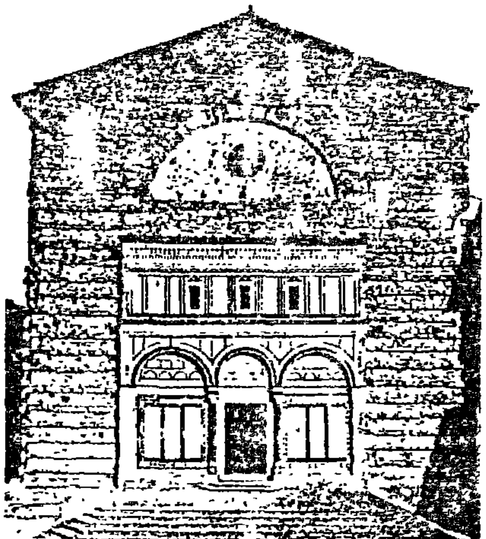
الكنائس الرومانسيكية

في أواخر القرن العاشر الميلادي أصبحت الحاجة ماسة إلى كنائس أكثر اتساعاً وأقوى تحملاً من الكنائس البازيليكية ذات السقف الخشبي المعرض للتآكل إلى جانب تعرضه للاحتراق من وقت لآخر، هذا بالإضافة إلى الحماس الديني وتوافر الاستقرار والامكانـات. وقد أدى هذا كله إلى نوع من فن البناء هو مزيج بين الفن الروماني والفن المسيحي، وهذا الطراز الجديد هو ما يمكن أن نطلق عليه الفن الرومانسكي. والأساس في الفن الرومانسكي هو الأساس الروماني الغربي وتداخلت عليـه عوامـل مختلفة منهـا البيزنـطية والجـرمانيـة بالإضافة إلى العامل الديني، واستعمل في بنائها الآجر والحجارة. وإذا كنا قد ذكرنا أن بداية الحاجة إلى هذا النوع من الطراز كان في أواخر القرن العاشر الميلادي فمعنى ذلك أن هذا الفن بدأ يظهر في القرن الحادي عشر، ولكن ما تجدر ملاحظته أن هذا النوع من المباني لم يظهر في أوروبا كلها في وقت واحد فقد ظهر في انجلترا في القرن الحادي عشر مع الغزو النورماني لبريطانيا ولكنه اختلف في بقية انحاء أوروبا. وكما كانت بدايته في أوقات متفاوتة فقد دخل أسبانيا في القرن الثاني عشر. كما أن استعمال هذا الطراز في العمارة الأوروبية لم يعمر طويلاً في بعض بلاد أوروبا فقد حل محلة الفن القوطي في القرن الثالث عشر في كل من انجلترا واسبانيا وفرنسا والمانيا، أي أن عمر هذا الطراز في معظم البلاد الأوروبية لم يستمر أكثر من قرنين من الزمان.

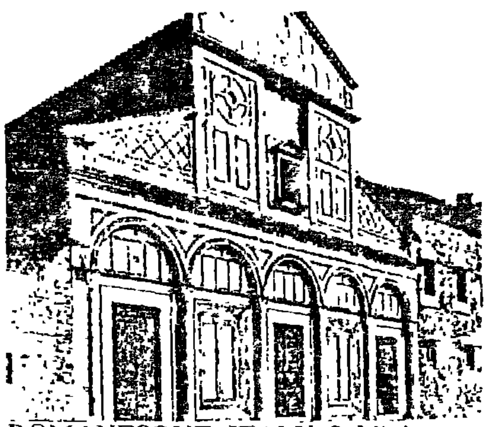
ومن العسير إعطاء وصف عام للطراز الرومانسكي وذلك لتباين خصائص هذا الطراز من مدينة إلى أخرى. وهذا يجعل دراسة هذا الطراز من العمارة أمراً صعباً، ويتطلب دراسة خصائص هذا الطراز في كل مدينة على حدة في مدن الغرب الأوروبي وهذا أمر لا تحتمله هذه الدراسة التي نحن بصـددها والتي نكتفي فيها بالقاء أضواء عامة على مظاهر الحضارة في أوروبا العصور الوسطى. وعلى أية حال فيمكن تصوير الخصائص الرئيسية لهذه العمارة. وببساطة يمكن القول أنه من الضروري أن الطراز الـرومانسكي قـد قضى على بعض عيوب الطراز البازيليكي، وعلى ذلك يتضح أن أهم ما في الطراز الرومانسكي هـو



طراز رومانسكي
كنيسة القديس يوحنا ببرج لندن في أواخر القرن الحادي عشر



ROMANESQUE. ITALY.
Badia, Fiesole. Facade C. 1090.



ROMANESQUE. ITALY. S. Miniato, Florence. The west front.



ROMANESQUE. GERMANY. Speyer cathdral. The crypt. 1004 – 1039.

طرز رومانسكية
في أنحاء متفرقة في أوروبا



ROMANESQUE. ENGLAND St Albans.
North side of the nave, showing the orginal frescoes

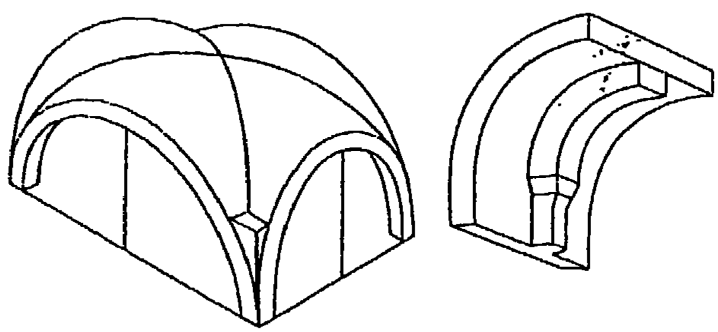


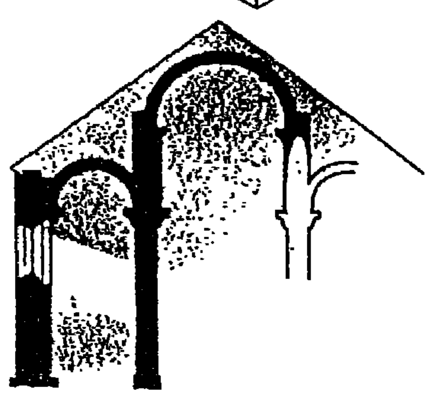
ROMANESQUE. SPAIN. View of the nave, Santiago de Compostela. End of the 11 th century – beginning of the 12 th century.



ROMANESQUE. GERMANY. Trier cathedral.
West front. 1017 – 1047.

إحلال الأحجار محل الأخشاب في عمل أسقف الكنائس حتى لا تكون عرضة للتآكل أو الحريق، وهذا يتطلب من الناحية الهندسية تقوية جدران الكنيسة وجعل هذه الجدران أكثر سمكاً حتى تتحمل الأسقف الحجرية، كما تطلب الأمر أيضاً قلة النوافذ في جدران الكنيسة حتى لا تضعف قوة الجدار، يضاف إلى ذلك تعذر إقامة النوافذ في الجدران السميكة هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن ثقل الأسقف المصنوعة من الحجارة لا يتطلب اتساع الكنيسة لأن في هذا الاتساع يعني معه اتساع مساحة السقف وما يصاحبه من ثقل. هذا بالإضافة إن بناء السقف الحجري يتطلب كثرة الجدران حتى تتحمل الوزن الحجري ولذلك تعدل الشكل من شكل حرف (T) الى هيئة الصليب، وبذلك تقاربت الجدران إلى بعضها وأصبحت قادرة على تحمل السقف الحجري. وعلى هذا يمكن وصف الكنيسة الرومانسكية بوجه عام بأن داخلها كان أقل اتساعاً وجدرانها أقل إرتفاعاً من الكنائس البازيليكية، وكانت أبراجها جزءاً أساسياً في مبنى الكنيسة وتحولت من الشكل الدائري إلى الشكل المربع.





الطراز الرومانسكي
ويلاحظ أن صحن الكنيسة مسقوف بعقد نصف دائري وليس بداخل الصحن ضوء مباشر

أما التقسيمات الداخلية للكنيسة الرومانسكية فكانت تتكون من الصحن المستطيل والمستطيلين الموازيين على الجانبين للصحن، شأنها في ذلك شأن الكنيسة البازيليكية، أما جناحاً الصليب فكانا أضيق عرضاً من صحن الكنيسة. أما رأس الصليب فقد استخدمها القساوسة لاستعمالهم الخاص. كما أنشيء مكان أمام حنية الكنيسة خاص بالشمامسة يجتمعون فيه لإنشاد الترانيم. ولفصل حنية الكنيسة ومكان الشمامسة عن مكان المصلين، وجد حاجز غير مرتفع وبجوار هذا الحاجز منبر لتلاوة اصحاحات العهد الجديد ورسائل الرسل.

وفيما يختص بالنوافذ والإضاءة، فنظرا لثقل السقف فقد روعي عدم الإكثار من النوافذ الجانبية في جدران الكنيسة، وظل صحن الكنيسة أكثر ارتفاعاً. وعن طريق النوافذ التي أقيمت في هذا الارتفاع سمح لقدر كاف من الضوء بالدخول إلى صحن الكنيسة، وهي في ذلك لا تختلف عن الكنيسة البازيليكية.

أوضحنا أن من خصائص الطراز الرومانسكي بناء سقف الكنيسة من الحجارة بدلاً من الأخشاب حتى لا تتعرض الكنائس للإنهيار والحرائق مثلما حدث على سبيل المثال لا على سبيل الحصر من احتراق كنيسة شالون مرتين كانت الأولى عام ٩٣١ م والثانية عام ٩٦٣ م وكنيسة شارتر عام ٩٦٢ م، وكنيسة انجرز عام ١٠٠٠ م واستراسبورج عام ١٠٠٢ م وكنيسة اوكسر عام ١٠٢٥ م ثم عام ١٠٦٥ م. ولم تكن الهندسة المعمارية قد تقدمت في العصور الوسطى حتى يتم بناء سقف مسطح من الحجارة لذلك كان السقف منحني ونصف اسطواني تحمله الأعمدة. وتتلخص هذه الفكرة في تقسم السقف إلى مربعات كل مربع يتكون من نحو قوسين متقاطعين تقاطعاً عاموديا مثل الصليب اليوناني أي متوازي الأضلاع ونتج عن ذلك أربع مراكز تستطيع أن تحمل فوقها سقفاً تساوي مساحته مساحة المربع المحصور بين الأعمدة الأربعة، وكان إقامة السقف بهذه الصورة هي مشكلة المشاكل التي واجهت المعماريين وهي التي أضفت على الطراز الرومانسكي قدراً كبيراً من العظمة.

وكمنت عظمة هذا الفن أيضاً في الزخارف الرائعة التي غطيت بها جدران

الكنيسة من الداخل، فقد استعملت الفسيفساء والجص في النقوش وتصوير المناظر الدينية، هذا بالإضافة إلى الزجاج المعشق بالرصاص الذي صنعت منه نوافذ الكنيسة وتيجان الأعمدة التي صنعت على شاكلة الحيوانات أو النبات.

الكنائس القوطية

يمثل الطراز القوطي مظهراً رائعاً من مظاهر الفن الأوروبي في القرن الثاني عشر أي بعد بداية ظهور الفن الرومانسكي بقرن واحد، وكان من العوامل التي أدت إلى ظهور مثل هذا الطراز هو معالجة العيوب التي اتصف بها الفن الرومانسكي مثلما كان ظهور الفن الرومانسكي لمداواة عيوب الطراز البازيليكي. وحتى يمكن فهم خصائص الطراز القوطي يتم حصر العيوب الرئيسية للطراز الرومانسكي وكيف استطاع المعماريون تفاديها بنوع جديد من البناء خلق لنا الطراز القوطي. وأول هذه العيوب سمك الجدران الذي حال دون شق نوافذ كافية فأصبح داخل الكنيسة معتماً إلى حد ما، وثاني هذه العيوب هو ثقل الضغط الرأسي - لا الأفقي وهي نقطة اهامة - على الأعمدة والدعائم الداخلية. ولم يشمل التعديل تلافي العيوب فقط بل شمل نواحي أخرى فرعية نظراً لظروف وعوامل أخرى متعددة.

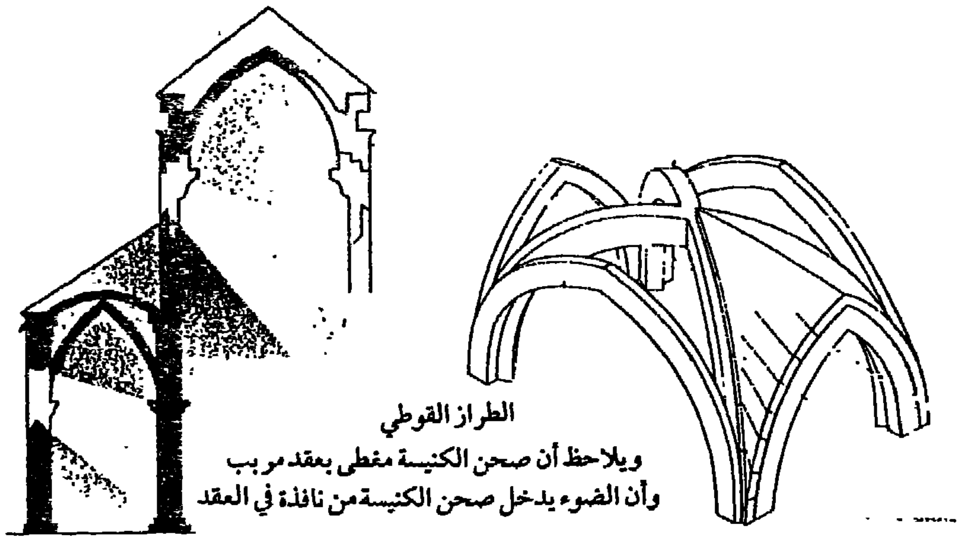
وتركز اهتمام الفن القوطي الناضج في بناء الكاتدرائيات وإنشاء القصور الإقطاعية والمنشآت التي تطلبها اتساع العمران والمنظمات النقابية، وأدى هذا الاتجاه إلى إعادة بناء كاتدرائيات كثيرة في فرنسا بالذات في حركة دافعة قوية مصحوبة بنشاط عملي زائد، واتجهت العناية لإقامة مثل هذه الكاتدرائية إلى البحث عن الوسائل التي تكفل بناء أضخم ما يمكن إقامته من المباني وأعظمها مع تحقيق الثبات والاتزان مع التقيد بالنظم الموضوعية التي فرضتها الطقوس الدينية أو تطلبها العرف العام. ولم تكتف العمارة القوطية بالاعتماد على التجارب البنائية وحدها بل تعدت ذلك إلى الإعتماد على مقدرة من القوة الإبداعية وعلى كثير من التفصيلات الفنية التي تولدت من الولع بفن قطع الحجارة. والمهم أنه بفضل التطور المستمر من أصول معمارية سابقة توصلت

العمارة القوطية إلى إقامة السقوف المرتفعة والنوافذ الزجاجية المشبكة والدعائم الخارجية السائدة والأبراج وغير ذلك، وكل هذا في تصميمه تعبير عن نظم الحياة والتفكير في ذلك العصر، وقد غلبت على هذا الفن مظاهر الحيوية والقوة والمغامرة والنمو المستمر.

كان ثقل الضغط الرأسي الناتج عن ثقل السقف من أبرز عيوب الطراز الرومانسكي وكان مداواة هذا العيب هو محور الطراز القوطي، لذلك استعاض المعماري بالقوس والعقد والحنية المدببة عن أمثالها الدائرية في حل مشكلة الثقل. وفي الطراز الجديد وهو الفن القوطي أصبح الثقل رأسياً لا أفقياً وبذلك تركز الثقل على الجدران. وعلى ذلك حُلت أهم المشاكل من الناحية الهندسية وأصبح بامكان المعماري أن تكون له حرية العمل في أوجه عديدة. منها أنه أصبح بالإمكان رفع جدران الكنيسة أكثر مما كانت عليه في الطراز الرومانسكي وتقليل سمكها لأن الجدران أصبحت لا تتحمل سوى نسبة ضئيلة من ثقل السقف. وترتب على ارتفاع الجدار وقلة سمكة أن أصبح بالإمكان إقامة عدد أكبر من النوافذ، كما أمكن أيضاً زيادة مساحة الكنيسة الكلية. وعلى هذا يمكن القول أن الكنائس القوطية امتازت بعظم ارتفاعها وخفة بنائها وقلة سمك جدرانها. كما امتازت أيضاً بنوافذها الطويلة المتراصة التي تسمح للضوء بالدخول بقدر كاف إلى صحن الكنيسة، يضاف إلى ذلك أسقفها المدبب واتساع رقعتها.

وفي داخل الكنيسة نجدها مقسمة إلى أقسام طولية تحددها صفوف الأعمدة التي وضعت بطريقة هندسية ولا ارتباط بوضعها مع ثقل السقف بعدما أصبح الثقل الأفقي غير موجود. وكان لهذه الأعمدة أشكال متعددة فمنها ما هو أسطواني، وما هو لولبي، وما هو على هيئة عدة أعمدة ملتفة حول نفسها وامتازت قواعدها بجمال النقش والتصميم. وفيما يتعلق بالتيجان فكان أغلبها على شكل ناقوس مقلوب عليه بعض الزخارف الرائعة التي شملت أغصان الأشجار وأوراق النبات.

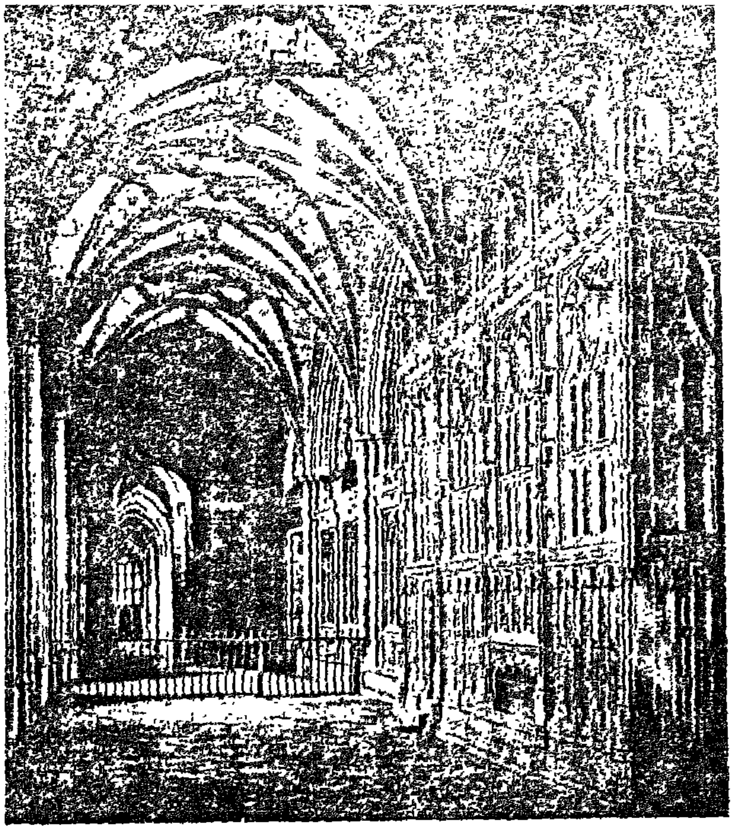
والعمارة القوطية كالعمارة الرومانسكية، من قبلها، لا تستكمل فيها



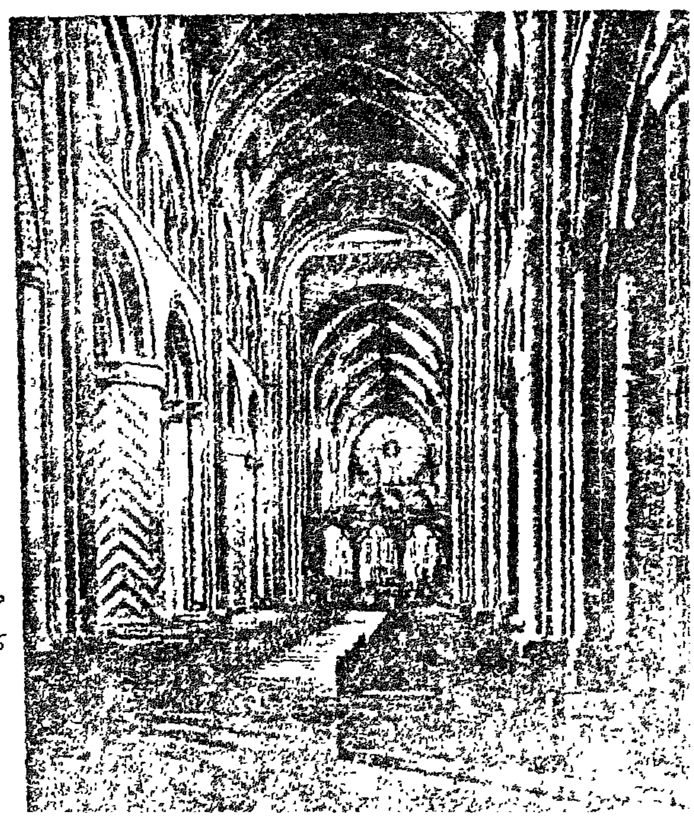
الطراز القوطي
ويلاحظ أن صحن الكنيسة مغطى بعقد مربب
وأن الضوء يدخل صحن الكنيسة من نافذة في العقد

أشغال الحجارة إلا بعد كسوتها بطلاء أبيض أو أحمر قاتم يساعد على إبراز ما يرسم فوقها من ألوان زاهية أو مموهة بالذهب يجعلها تضفي على البناء كله صفاء ووضوحاً وتحدد عناصره وأجزاءه تحديداً دقيقاً. وعمد الفنانون إلى ابراز جمال المنحوتات بتزيينها بالدهان في الداخل والخارج. وفي كنيسة سانت شابل في باريس نجد الزخرفة التي تغطي حوائطها وكل سقوفها الداخلية مأخوذة من نماذج أشكال المينا المموهة بالذهب. فعقود الجدران مطعمة بالزجاج الملون، وأفاريز الأبواب والشبابيك مزخرفة برسوم دقيقة من الذهب المموه، وليس هناك من شك في أن تصميم هذه الكنيسة قام على نظام يجعل منها خزانة ثمينة للآثار المقدسة التي أعدت هذه الكنيسة لحفظها.

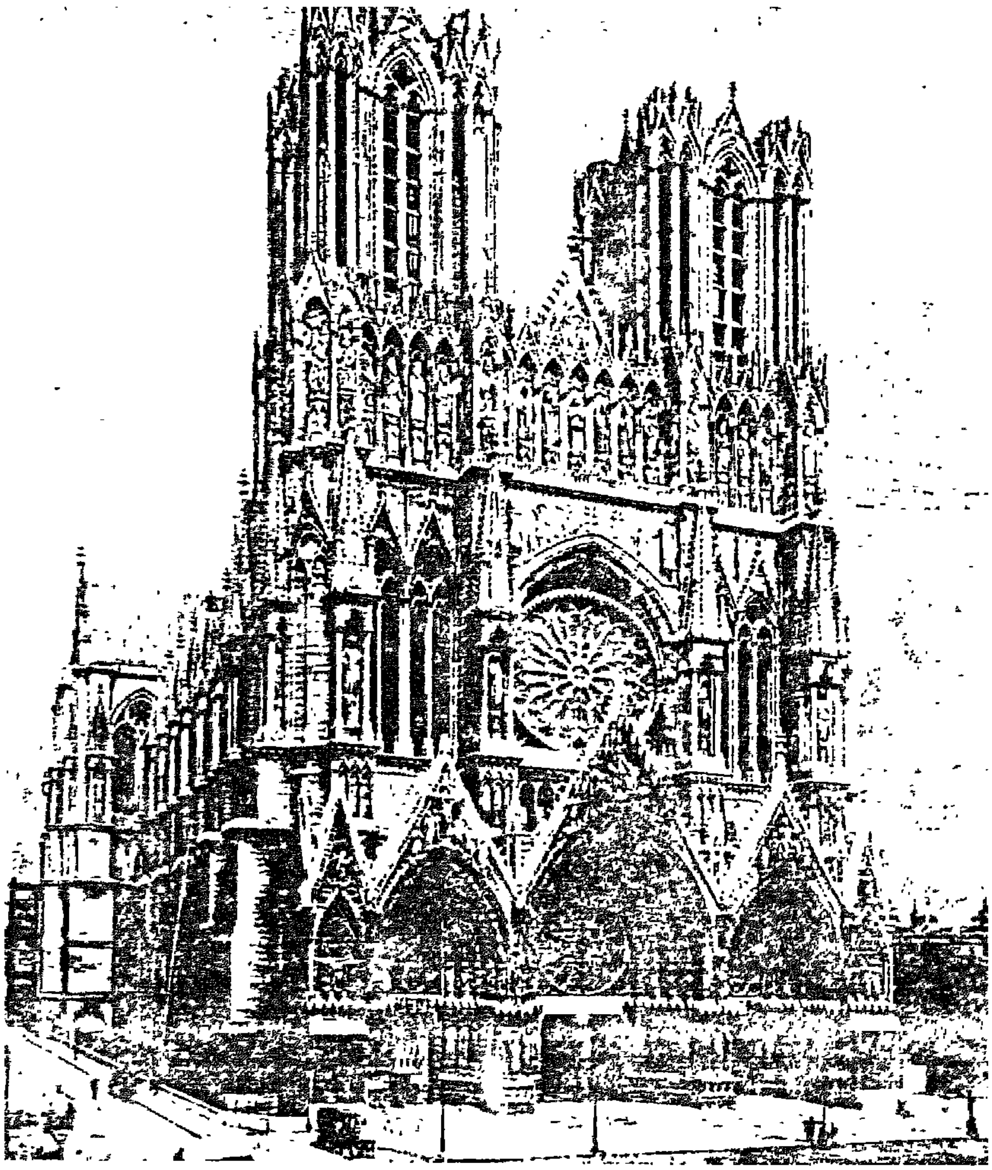
وللكنائس الكبيرة في الأغلب أبراج قائمة على أطراف ذراعيها وفوق واجهتها الغربية، وفي حالات قليلة قامت هذه الأبراج على جانبي أطرافها الشرقية. وتقوم هذه الأبراج مقام الدعائم المعدة لصد قوى الإندفاع الداخلي. وقد حرص المعماريون على عمل نافذة مستديرة في واجهة الكنيسة القوطية، وامتدر من مركز هذه الدائرة خطوط مستقيمة حتى تصل إلى قطر الدائرة مما جعل هذه الدائرة تبدو وكأنها زهرة جميلة. أما بقية النوافذ ذات القوس المدبب فقد امتازت بجمال الشكل والزجاج المزخرف المعشق بالرصاص وعبّرت رسومها في كثير من الاحيان عن المناظر والقصص الدينية.



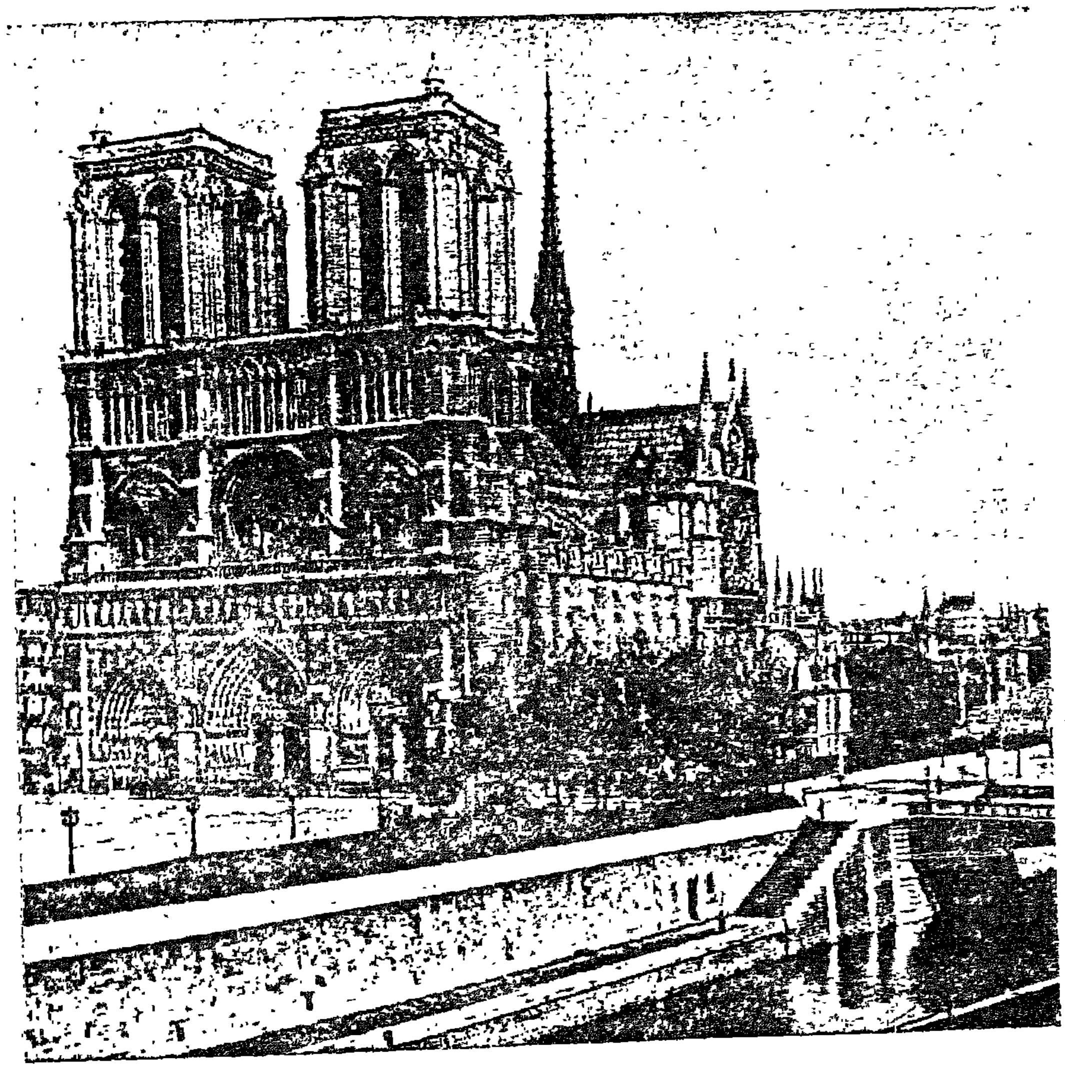
طراز قوطي
كنيسة ونشستر من الداخل



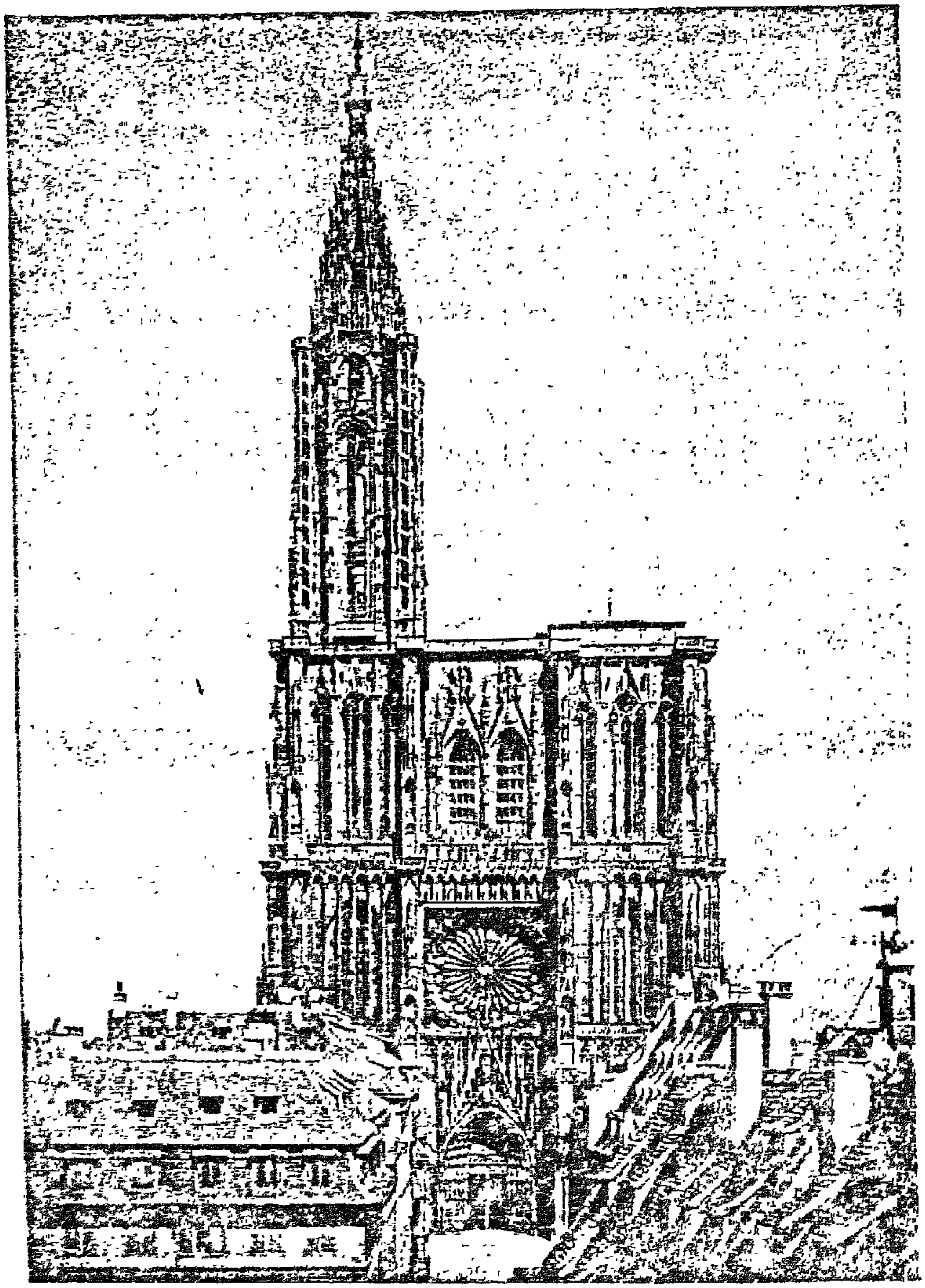
طراز قوطي
كنيسة درهام من الداخل



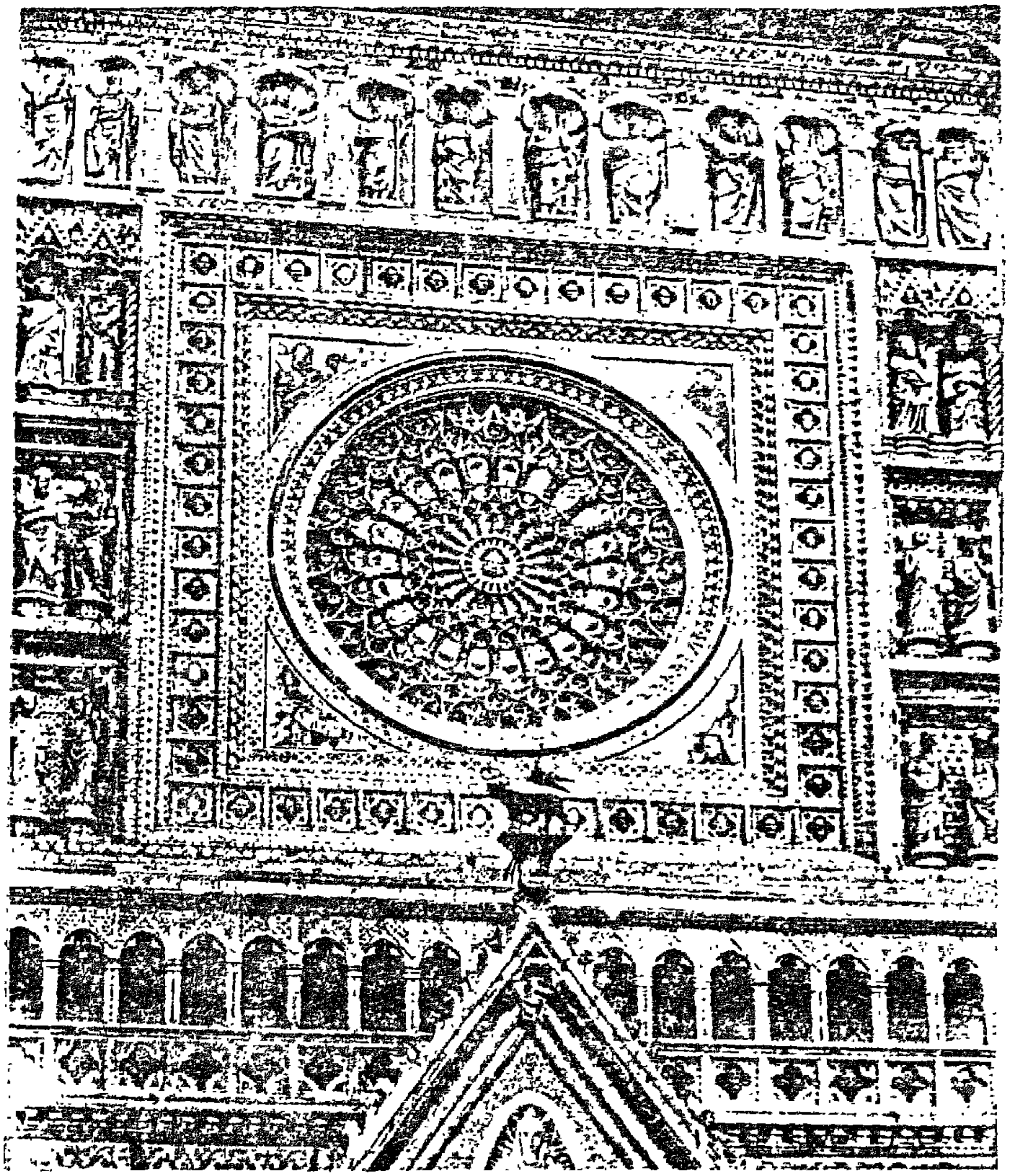
طراز قوطي
كاتدرائية ريمس



كاتدرائية نوتردام في باريس وهي من الطراز القوطي



طراز قوطي
كاتدرائية ستراسبورج



واجهة كاتدرائية أورفيتو وترى ما يشبه الوردة في صدارتها

الفصل العاشر

التربية والتعليم

أولاً: التعليم المدرسي

- مدارس العميد واللاهوت
- مدارس الأديرة
- الفنون السبعة
- الاصلاح المدرسي في عهد شارلمان
- مدارس الجدل

ثانياً الجامعات في غرب أوروبا

- مصطلح الجامعة
- نشأة الجامعات
- جامعة بولونيا
- جامعة باريس
- جامعات انجلترا
- النظم الجامعية وحياة الطلاب
- أثر الجامعات في المجتمع الأوروبي

أولاً : التعليم المدرسي

بنيت نظريات التربية اليونانية والرومانية على أساس العبادة الوثنية وقد جاءت المسيحية للقضاء على تلك العبادة والدعوة إلى عبادة رب العالمين. فكان من الطبيعي أن يترتب على انتشار المسيحية في ربوع أوروبا تغييراً خطيراً في مسائل التربية. ولم تعتبر المسيحية تفاوت الناس في الطبقات سبباً لاختلافهم في استحقاق التربية كما كان الحال عند اليونان والرومان، وإنما سوت بين الناس جميعاً لا فرق بين حر وعبد أو غني وفقير، أو رفيع ووضيع، لذلك أصبحت التربية من حق الناس جميعاً على السواء.

ولم يكن الغرض من التربية المسيحية مصلحة الفرد من الوجهة العقلية كما فعل أفلاطون وارسطو وسواهما من فلاسفة اليونان، وإنما كان الغرض منها القدرة على التأملات العقلية والبحوث الفكرية والحياة الفلسفية، ولم تنظر إلى التربية كمسألة عملية دنيوية كما فعل الرومان. وبعبارة أخرى لم تنظر إلى الانسان حيث هو، ولم تنظر إليه من حيث علاقته بالمجتمع، وإنما نظرت إليه من حيث علاقته بخالقه. فلم تكن التربية تقصد إظهار الفرد لشخصيته ولا لصلاح المجتمع بصلاحه وإنما قصدت رياضة النفس وتطهير الروح. ومن أجل ذلك قامت الكنيسة بتعليم العقائد وإقامة الشعائر الدينية مقام التربية العقلية. وقام تهذيب النفس ورياضتها مقام التربية البدنية والتدريب على الخطابة والكتابة وحسن البيان. وكان أول من وضع أساس التربية المسيحية القديسون اتباع

المسيح الذين عملوا على نشر المسيحية في البلاد كما فهموها والذين قاموا بترجمة الأناجيل وتفسيرها للناس.

وحول تفسير المسيحية انقسم آباء الكنيسة إلى فريقان، وقد تمخض عن هذا الانقسام ظهور الأريوسية والاثناسيوسية على يد كل من آريوس واثناسيوس. وما يهمنا في هذا المقام أن الكنيسة الشرقية دانت بالمذهب الارثوذكسي وأصبحت كنيسة الاسكندرية والقسطنطينية وانطاكية من أهم مراكز هذه الديانة في الشرق، ومن أشهر القديسين الشرقيين كان القديس كلمنت السكندري (١٦٠ ـ ٢١٥ م)، والقديس اوريجين (١٨٥ ـ ٢٥٤ م) والقديس بازل (٣٣١ ـ ٣٧٩ م) كما دانت الكنيسة الغربية التي تزعمتها روما بالمذهب الكاثوليكي ومن أشهر قديسيها القديس جيروم (٣٤٢ ـ ٤٢٠ م).

وترجع أسباب العداء بين الشرق والغرب إلى عدة أسباب نذكر منها في هذا المقام ما يتعلق بالتربية، فقد كان آباء الكنيسة الغربية لا يزالون يذكرون استهزاء الفلاسفة بالمسيح وأنواع الذل والضيم الذي أصابهم على يد الممثلين لتلك الثقافة، كما أن اولئك الآباء يرون أن الدين والعقل ضدان لا يجتمعان وأنه متى استخدمت الفلسفة في الأمور الدينية كانت الزندقة والألحاد. وهنا علينا أن نلاحظ أن مرجع ذلك إلى أن أنصار المسيحية في الغرب كانوا من الفقراء والعبيد الذين لم يكونوا بطبعهم وتقاليدهم ميالون إلى آداب وثقافة لم تتهيأ لمن تحلوا بها إلا بإذلالهم وامتهانهم. ثم كان أنصار المسيحية في الغرب بعد سقوط الإمبراطورية في الغرب من أمم الشمال البرابرة الذين لم تسم نفوسهم بعد إلى عظمة الثقافة الشرقية.

أما آباء الكنيسة الشرقية فقد كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين وكانوا جميعاً تلاميذ أفلاطون وأرسطو قبل أن يكونوا من أتباع المسيح وتلاميذه، ومن أجل ذلك والوا الثقافة القديمة وشجعوا دراسة الفلسفة. ويتضح ذلك من قول القديس كلمنت «ما النصرانية إلا أفلاطونية مهذبة وما أفلاطون إلا موسى اليونان» وكان من تعاليمه أن فلسفة الأوثان مرشد يهدي إلى المسيح وكان دائماً يرمي إلى التوفيق بين العقل والدين. وكانت مبادئه إن الله أخذ على ابن آدم أن

يكون ذا قانون وإنجيل وحكمة. وعلى أية حال لم يكن ذلك موقف كل الآباء الشرقيين فإن القديس بازل يقول في ختام حديث له في تربية الصبيان يجمل ما فصل في ذلك الحديث مخاطباً قارئه وسامعه ويقول متعجباً «أفنفهم مما ذكرت أنه يجب أن نطرح الثقافة الوثنية جانباً» ثم يجيب إجابة احتراس وتحفظ فيقول «إنني لا أقول ذلك». ولكن الذي أقول: هو أنه لا ينبغي قتل النفوس. لنا أن نختار إحدى أثنين: أما تربية أدبية نحصل عليها بارسال أولادنا إلى مدارس الآداب وأما إنقاذ أرواحهم بإرسالهم إلى الأديرة، أما تربية العقول بالعلم، وأما تربية الأرواح بالدين. فأي هذين نفضل أن يكون له الغلب؟ إذا كنت تستطيع التوفيق، فافعل بلا تردد. فإن عجزت فاختر الأولى.

اشتغل المسيحيون الأول بنشر الدين ودفع المعارضين عن إنشاء المدارس، وكانت التربية المسيحية الأولى عملية يحصل عليها معتنقو المسيحية من إقامة الشعائر ومشاهدة حفلات الكنيسة وسماع النصائح والإرشادات، ومن حفلات الكنيسة مثلاً حفلات التعميد التي كانت تقصد بها الكنيسة تطهير الداخلين في المسيحية بغمسهم في الماء المقدس أو غسلهم به. ولم تكن حفلة التعميد تقام للجدد مباشرة على أثر اعتناقهم المسيحية وإنما كانت تمضي فترة اختبار وتجربة يدرب فيها المسيحيون الجدد على آداب الكنيسة وإقامة الشعائر ويتعلمون العقائد وما ينبغي أن يعرفه كل مسيحي من أمور الدين. وقد أنشأت الكنيسة لذلك التدريب والتعليم أمكنة خاصة عرفت باسم مدارس التعميد أو مدارس طالبي العماد.

مدارس التعميد واللاهوت

وقد انتشرت مدارس التعميد في البلاد المسيحية في أوائل القرن الثاني وكان منهجها في التربية ضئيلاً قاصراً كما وصفنا. وبتوالي الزمن رؤى أن ذلك القدر من التعليم غير كاف خاصة عندما تصادم أئمة المسيحية بالإسكندرية وسواها من مدن الشرق بالأفكار الفلسفية الأغريقية، وكان من الضروري إعداد القساوسة ورجال الكنيسة للنجاة من ذلك التصادم بتربيتهم تربية اغريقية دينية

(لاهوتية). وكانت الاسكندرية سباقة في هذا المجال وهيأت الفرصة أمام المسيحيين لتلك التربية. وظلت على هذا الحال لعدة قرون مركز العقل في الفكر اللاهوتي. وكان بانتينوس ـ أحد الرواقيين الذين اعتنقوا المسيحية ـ رئيس مدرسة من مدارس التعميد في الاسكندرية وقد رأى أن الحاجة ماسة إلى توسيع منهج الدراسة بمدرسته ومدارس التعميد بصفة عامة. فأدخل الفلسفة والبلاغة وكل الثقافة الاغريقية وساعده على ذلك تربية الأولى. وسار على نهجه من بعده اثنان من أشهر آباء الكنيسة هما كلمنت Clement (١٥٠ ـ ٢١٥ م)، واوريجن Origen (١٨٥ ـ ٢٥٤ م) واضعاً أصول الديانة المسيحية، وتبع الاسكندرية سواها في إدخال الأداب الأغريقية بمدارس التعميد، وكان الغرض من ذلك خدمة الدين بالاداب، ومن ثم سميت المدارس صاحبة المنهج الجديد بـاسم مدارس اللاهوت. ومن الملاحظ أنه بمرور الزمن أصبحت مدارس اللاهوت تحت إدارة القساوسة، وكان الغرض منها تخريج رجال يخدمون الدين. وصارت علاقة هذه المدارس بالكنيسة أطهر وأمتن. وإذا كان هذا هو الحال في الشرق فإن هذه المدارس عرفت في الغرب الأوروبي باسم مدارس الكنائس. وعندما سنت القوانين التي نظمت حياة القساوسة كان منها قوانين أصبح بموجبها تنظيم العمل بتلك المدارس سهلاً ميسوراً، وفي القرنين الخامس والسادس قررت مجالس الكنائس أن يبكر بالانتظام في سلك تلك المدارس كل من مآلهم أن يكونوا قساوسة. وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب أصبحت مقاليد التربية كلها بأيدي الكنيسة.

مدارس الأديرة

كان الرهبان في حاجة إلى القراءة، وإنهم لذلك كانوا في حاجة إلى تعلم القراءة وفي حاجة إلى الكتب أيضاً. ولما كانت الكتب تنسخ ولا تطبع، لذلك احتاجوا إلى تعليم بعض الصبيان القراءة والكتابة ليقوموا بعملية النسخ، ومن هنا نشأت مدارس الأديار، وقد مرت هذه المدارس بأطوار مختلفة من حيث تلاميذها ومناهجها ومدة الدراسة فيها، واختلفت تبعاً لذلك قيمتها ونتائجها. والواقع أن التعليم في أول الأمر كان في هـذه المدارس دينيـاً مقصوراً على

الرهبان أو من مآلهم الرهبنة من الصبيان، وكان هؤلاء وأولئك يتعلمون مع من يتلقون أمور الدين مبادىء القراءة والكتابة والحساب، ويدربون على الغناء، وكان كل ذلك يتم في فترة تدريب قصيرة غير كافية لاتقانها. وعندما سنت القوانين التي تقضي بألا يقل سن الراهب عن ثماني عشرة سنة، وأن يقضي الصبي في مدارس الاديار سنتين قبل أن يكون راهباً، فقد كان من الطبيعي مع هذا القيد أن تطول مدة التعليم بمدارس الأديرة لأن الكثير من الصبيان يدخلون الأديرة قبل سن الثالثة عشرة.

وعلى أية حال فإن تلك المدارس ظلت قليلة وظل التعليم بها أوليا مقصوراً على الرهبان والأولاد الذين وهبوا حياتهم للرهبنة حتى نهاية القرن الثامن الميلادي، ثم كثرت وارتقى بها التعليم وعم خيرها الرهبان والمرشحين للرهبانية وسواهم وذلك بفضل النهضة التي قام بها شارلمان. والمهم أن مدارس الأديرة بقيت المعاهد الوحيدة للتعليم تقريباً حتى القرن الحادي عشر، كما بقيت مناهج التربية بلا تغيير يذكر حتى القرن الثالث عشر تقريباً. وبمعنى آخر أن كل دير كان مدرسة، وأن التربية كانت بالدير أو تحت إشراف الرهبان. ولما كان الأوروبيون في هذا الوقت أكثر ميلاً إلى الحرب والتدمير لا إلى التربية والتعليم فلا لوم على الأديرة لأنها لم تقدم أكثر مما قدمت، وكفاها فضلاً أنها حافظت على كثير من العلوم من أن تعدو عليها عوادي النسيان أو تمتد إليها أيدي الضياع والفناء.

كان نظام التأديب الذي اتبعه الرهبان والقساوسة في تأديب تلاميذهم الشدة دون اللين، والمخاشنة دون المحاسنة، والأيحاش دون الايناس والترهيب دون الترغيب حتى لقد كانت العصا الرادع الوحيد للتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل. وعلى أية حال فيجب علينا أن نلاحظ أن الرهبان كانوا رجال دين، وكان من الطبيعي أن يكون ميلهم محدوداً، وأن يكون مجال اهتمامهم ضيقاً، ولكنهم مع ذلك هم الذين قاموا دون سواهم بتدوين آداب القرون الوسطى قبل انتشار آداب اللغات الوطنية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وإذا كان نتاج علماء الكلام في النصف الثاني من العصور

الوسطى أهم من نتاج الرهبان، فإنما كان الأولون رهباناً قبل أن يكونوا علماء كلام.

وإذا كان عبء حفظ تراث العصور الوسطى وما قبلها قد وقع على كاهل الرهبان بفعل ما كانوا ينسخون من كتب، فإنهم قد فعلوا ذلك أما شغلا لأنفسهم في وقت الفراغ تنفيذاً لقوانين الأديرة، وأما محبة للعلم وشغفاً به. ومهما كان السبب الذي دعاهم إلى ذلك، فإن الدلائل تشير إلى أنهم لم يقفوا عند حد النسخ الآلي، وإنما كانوا يعملون على تفهم ما يكتبون ليعملوا به، فاستفادوا بذلك عقلياً وخلقياً. وكانت عملية النسخ هذه تتم في حجرة من حجرات الدير تخصص أو تكرس لهذا الغرض. وخلاصة الأمر أنه بهذه المجهودات قامت الأديرة بما تقوم به المطابع من نشر الكتب وبما تقوم به دور الكتب من حفظ العلوم والمعارف، وفيها دون سواها تخرج العلماء لأنه لم يكن في عصرها مدارس سواها. وقد ساعد على ذلك أن هذه الأديرة كانت حمى من لا حمى لهم، وملجأ من رزيء في الأهل والخلان. وكانت القراءة والدراسة فيها سلوى لمن لا يجدها في سواها، وكان من أضنتهم أعباء الحياة وعضتهم وحشية الناس وحزتهم إلى العظم سورة الأيام وقلة المبالاة بهم والاكتراث لهم، يجدون فيها هذه الراحة موطناً هادئاً، وفي غمرات التأملات الفكرية والتوفر على الدرس ترضية وتعويضاً مما خسروا وتكفيراً من الدهر عما حمّلهم من المحن.

الفنون السبعة

العصور الوسطى كما يؤخذ من اسمها عصور توسطت بين القديمة والحديثة وقد ورثت العصور الوسطى من القرون السابقة القريبة منها جانباً من معارفها، كما نشأت فيها العلوم التي نضجت في القرون التي تلتها، تلك المعارف التي ورثتها على قلتها وضآلتها، لم تستقها العصور الوسطى من مصادرها الأصلية ولم تحصل عليها كما تركها اربابها من القدماء، وإنما وصلتها في أجف الصيغ والقوالب من علماء القرون المسيحية الأولى ومن هؤلاء العلماء: مارتيانوس كابلا Martianus Capella وهو روماني الأصل من شمال

أفريقيا، وكان علياً بالآداب القديمة والثقافة الوثنية وكتب فيما بين سنة ٤١٠ م وسنة ٤٢٧ م في الآداب السبعة، هي النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك. وقد شملت تلك الفنون كما فهموها في تلك العصور ما لا تشمله الآن، فالهندسة مثلاً شملت مبادىء تقويم البلدان ودرست الطبيعة تحت اسم الفلك، وشمل النحو والبلاغة التاريخ وآداب اللغة. ومن الملاحظ أن المقدار الذي حصلوه من الآداب القديمة في دروس النحو والبلاغة كان يختلف باختلاف الأديرة ونزعات القائمين بالأمر فيها. ومن ذلك ما يروى عن رهبان مونت كاسينو Monte Cassino بإيطاليا إنهم لم يتركوا علماً إلا حصلوه ولا عملاً إلا اتقنوه. ومن الجانب الآخر يروى أن العالم الانجليزي الكوين Alcuin (٧٣٥ ـ ٨١٤ م) كان في أخريات أيامه ضد المعارف والآداب القديمة، وأنه كان يقول لتلاميذه في مدينة تور Tours في فرنسا ـ بعدما دعاه شارلمان ليساعده في حركة الإصلاح المدرسي ـ كان يقول أن الشعر المقدس فيه كفايتكم، ولا داعي إلى تكدير صفو عقولكم بشعر الرومان، ويمكن أن يقال في هذا المقام أن النزعة التي غلبت على الرهبان بالأديرة أنهم كانوا يحاربون العلوم لنفس الأسباب التي عادتها من أجلها الكنيسة الغربية.

الإصلاح المدرسي في عهد شارلمان

من الأمور التي إهتم بها شارلمان نشر التعليم والعمل على رفع مستواه، ولكي يتحقق له هذا الغرض عمل على الأكثار من المدارس، لذلك كتب إلى رجال الدين يأمرهم بالعناية بالمدارس والتعليم وذلك بعدما شاهدوه من كثرة الأخطاء الواردة في المخطوطات الدينية، وليس ذلك فحسب بل أن هذه الأخطاء قد وصلت إلى الإنجيل نفسه عند نسخه. ولكي يحقق شارلمان هذه النهضة العلمية فإنه استقدم خلاصة المواهب التي انجبتها انجلترا واسبانيا وإيطاليا. وكان على رأس هؤلاء العالم الانجليزي الكوين الذي كان رئيس مدرسة مدينة يورك، ومنحه شارلمان رئاسة دير مدينة تور، وقد أصبحت مدرسة تور ـ بفضل إشراف الكوين وتوجيهه ـ مركز الثقافة في الامبراطورية الكارولنجية كما أصبح الكوين أيضاً من أبرز علماء النهضة في الامبراطورية.

لم يقف الأمر على قيام الكوين بأمر مدرسة تور بل أنشأ بالقصر الامبراطوري مدرسة انتظم في سلك طلبتها الأمراء وأبناء الأشراف والرهبان، وعلى رأسهم جميعاً الامبراطور نفسه، فقد كان أمياً. وعلى الرغم من كبر سنه زاول وهو كبير تعلم القراءة والكتابة ما لا يقوى عليه بسهولة إلا صغار السن من الأطفال والصبيان، ولكنه واظب على ذلك ليكون مع الأمراء وابناء الأشراف قدوة لرعيته في محبة الثقافة والآداب. وقد تربى في مدرسة القصر الرهبان تربية حسنة ثم بعث بهم شارلمان إلى الأديرة المنتشرة في أقطار الامبراطورية ليكونوا مناهل للعلم يردها الواردون ويقتبس منها الرغبون، وقد زاد من عظمة مدرسة القصر تشجيع شارلمان للعلماء وحكم على الدارسين فيها أن يكونوا على علم بالآداب قديمها وحديثها.

مدارس الجدل

لم تلبث مساعي شارلمان ان ماتت بموته، فبكته العلوم لأنها لم تجد لها في معظم خلفائه نصيراً، ولذا كان القرنان العاشر والحادي عشر أقل علماً من القرن التاسع، ويرجع السبب في قيام مدارس الجدل إلى أن الكنيسة قد قيدت الحرية الفكرية، فكان الغالب على الناس في النصف الأول من القرون الوسطى التسليم والانقياد لما يقول به رجال الدين وتحريم الشك والمعارضة وتقبل العقائد والأقوال والأفعال التي تقرها الكنيسة وترتضيها، أما النصف الثاني من القرون الوسطى فقد تطلب موقفاً آخر، فإن انتقال علم الكلام من الشرق إلى الغرب تطلب الرد عليه بالجدل والبرهان، لذلك قام علماء الكلام الأوروبيين بتأسيس مدارس الجدل بغرض تقوية الدين بالعقل، وصوغ العقائد الدينية في قوالب منطقية والدفاع بالبراهين العقلية وإزالة الشكوك بالمناظرة ورد الاعتراضات بالمجادلة. وكانت الوسيلة إلى ذلك المنطق والفلسفة اليونانية، ثم تطبيق تلك الدراسة على مسائل التثليث والقضاء والقدر والعشاء الرباني وغير ذلك، وإيراد الاعتراضات عليها لدفعها بالأجوبة ورد كل تأويل للكتب المقدسة لا يتفق والدين الصحيح. وقد صادفت مدارس الجدل بأوروبا نجاحاً عظيماً وأقبل الناس على علماء الكلام ليأخذوا عنهم المعرفة والثقافة القديمة. وقد

ساعد ذلك عدة أمور منها، أن الشرق صقل عقول الغرب عن طريق الحروب الصليبية والمراكز الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس. ومنها أيضاً أن القيود التي قيدت بها الكنيسة الحرية الفكرية كانت مثار للتمرد النفسي وأن منعها الناس من العلوم الفلسفية كان باعثاً لهم على حبها والإقبال عليها لأن كل ممنوع متبوع، وإن مدارس شارلمان بعثت في نفوس الناس الإهتمام بالمنطق وسائر العلوم العقلية.

ثانياً ـ الجامعات في غرب أوروبا

ترتبط نشأة الجامعات بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي، بل إنها كانت من أهم معالمها، وتدل على أن هذه النهضة لم تكن قاصرة على إحياء القديم بل شملت ابتكارات وتجديدات. فقد جاءت الجامعات كمنظمة جديدة لم يسبق للغرب معرفتها. وهناك من الكتاب الحديثين من يرون أن قيام الجامعات كان ثورة في المجتمع الأوروبي وإنها كانت من أعظم النظم التي جاءت في العصر الوسيط.

وبشأن المنظمات التعليمية في الجزء الأول من تاريخ العصور الوسطى، كان التعليم يقدم في المدارس الديرية والمدارس الكاتدرائية. ومع مجيء القرن الثاني عشر، ظهرت الجامعات إلى جانب تلك المدارس. ويرجع السبب في ذلك التطور في التعليم لاتساع نطاق المعارف الذي صاحب نهضة القرن الثاني عشر، وتطلب الأمر قيام منظمات علمية جديدة لتضم المعارف التي ظهرت والتي لم تستطع المدارس التقليدية القيام ببحثها أو تدريسها على النحو اللازم.

مصطلح الجامعة

ويجب أن نوضح ونحن في مستهل دراستنا لموضوع نشأة الجامعات مفهوم مصطلح الجامعة University في العصر الوسيط. فهذا المصطلح لم يعن في العصور الوسطى ما نفهمه في العصر الحديث، من وجود منظمة علمية على مستوى عال تدرس بها جميع فروع المعرفة. وإنما كان يعني مصطلح

الجامعة حينذاك، مجموعة أو اتحاد أو رابطة، تشمل المشتغلين بعمل واحد أو حرفة واحدة. ولم يكن قبل أواخر القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر، إن تبلور مفهوم هذا اللفظ وأصبح يدل على اتحاد علمي أو نقابة تشمل عدداً من رجال العلم، سواء أكانوا أساتذة أو طلاباً، وأصبح يوجد بالمدينة الواحدة عدداً من الجامعات مثلما وجدت عدة نقابات مهنية. فالجامعة لم يقصد بها في ذلك العصر المكان و البيئة العلمية التي يلتقي فيها رجال العلم من معلمين ومتعلمين، وإنما قصد به الاتحاد الذي يكونه كل فريق. أما المكان أو البيئة العلمية التي تعبر عنها اليوم باسم جامعة قد أطلق عليها في أول الأمر اسم المدرسة Stu-dium Generale يعني المكان الذي يستقبل الوافدين من طلاب العلم من جميع الجهات، لا المكان الذي تدرس فيه جميع المواد كما فسره البعض خطأ. إذ أن من الثابت أن جامعة واحدة من جامعات العصور الوسطى لم تضم جميع فروع الدراسات أو أنواع الكليات المختلفة.

وعندما أصبح لفظ «المدرسة العامة» الذي يعبر عن الجامعة في معناها الحديث شائعاً عند مستهل القرن الثالث عشر غدت له ثلاث خصائص:

أولاً: إن هذا المكان أو المدرسة يستقبل طلاب العلم من بلاد متعددة.

ثانياً: أنه مركز للدراسات العليا على الأقل في علم من العلوم المتخصصة.

ثالثاً: وجود عدد من بعض الأساتذة المشهورين المتخصصين. وبهذا الشكل تكون هذه المنظمة العلمية الجديدة أو «الجامعة» واختلفت عن المدارس المحلية المحدودة الأفق التي عرفتها أوروبا في عصورها السابقة المتخلفة.

نشأة الجامعات:

وتعتبر دراسة تاريخ نشأة الجامعات في غرب أوروبا الوسيط من الموضوعات الكبيرة ذات الجوانب المتعددة والتفاصيل الكثيرة، لا يتسع له المقام هنا، ولكن نستطيع أن نحدد أهم محاور هذا الموضوع على النحو التالي، فإلى جانب التقديم لهذا الموضوع وبيان منهوم لفظ الجامعة وتطوره، فسوف نعرض النقاط التالية:

أ ـ مرحلة نشأة الجامعات مع التعرف على نماذج لأوائل الجامعات الأوروبية الناشئة.

ب ـ العوامل التي أدت إلى انتشار الجامعات في غرب أوروبا.

جـ ـ النظم الجامعية سواء أكان ما يتعلق منها بإدارة الجامعة أو طريقة التدريس والمناهج والامتحانات والاجازات وخلافه.

د ـ حياة الطلبة.

وفيما يتعلق بالمحور الأول في موضوع الجامعات، فالملاحظ أنه وجدت في غرب أوروبا عند مستهل القرن الثالث عشر ثلاثة مراكز علمية جامعية من نوع «المدرسة العامة» التي تمتعت بشهرة واسعة، وتخصص كل منها في جانب من جوانب المعرفة. فباريس اشتهرت باللاهوت والآداب، وبولونيا بالقانون، وسالرنو بالطب، وعلى ما يبدو جاء مولد جامعة بولونيا عقب مولد جامعة باريس، ولكن الأولى سبقت الأخرى في تطور خطى التعليم بها، لذا جاء تأثير بولونيا في باريس أقوى من تأثير الأخيرة في الأولى.

جامعة بولونيا:

ويرتبط مولد جامعة بولونيا بنهضة القرن الثاني عشر. وكان أول اعتراف رسمي بجميع الطلاب سنة ١١٥٨ م عندما أصدر الامبراطور فردريك باربا روسا براءة تضمنت بعض الامتيازات لجميع الطلاب في المدن اللومباردية بما فيها بولونيا، وتوصف جامعة بولونيا بأنها جامعة طلبة، لارتباط نشأتها بنشأة اتحاد الطلاب فيها. وقد إنقسمت إلى قسمين أساسيين، قسم خاص بالطلاب من إيطاليا والبلاد الواقعة جنوبي جبال الالب، وقسم آخر خاص بالطلاب الوافدين من البلاد الواقعة شمالي الألب. وما لبث أن إنقسم كل من هذين القسمين إلى شعب محدودة العدد وأروقة ضمت كل منها الطلبة القادمين من مدينة أويلد واحد، واختار كل منهم مشير أو مراقب من بينهم عرف بلقبConciliairus. وكان يجتمع هؤلاء المشيرين أو المراقبين لاختيار رئيس أو مدير الجامعة Rector . وبعد تكوين اتحادات أو إتحاد الطلاب، شكلت هيئة التدريس نقابة

خاصة بها، إلا أن الواضح في جامعة بولونيا أن نفوذ الطلاب كان هو الغالب.

جامعة باريس:

أما جامعة باريس، فجاء مولدها بتكوين الاساتذة لرابطة لهم. وجاء طلبتها من جهات متعددة. وكانت ادارة جامعة باريس في أيدي الأساتذة وليس في أيدي الطلاب. وربما أمكن تعليل هذا الإختلاف بين الجامعتين بالفارق بين مستوى أعمار طلاب الجامعتين، فمدرسة باريس الأسقفية وهي التي تحولت إلى جامعة باريس، كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث في سن الرابعة عشرة، وأحياناً أقل من ذلك، أما جامعة بولونيا وهي الخاصة بدراسة القانون، فكان يقبل عليها طلبة أكثر تقدماً في العمر وأكثر نضجاً، وكان من بينهم بعض رجال الأعمال، وفضلاً عن ذلك كان نظام القومونات أو المدن الحرة الذي وجد في بولونيا وغيرها من المدن في لومبارديا كان يسوده نوع من الحرية والتخلص من القيود ما لم يتوفر لباريس.

ومن هذين النوعين من الجامعات أو النقابات، جامعة الأساتذة بباريس وجامعات الطلاب ببولونيا، نمت النظم الجامعية وتطورت في أوروبا العصور الوسطى. وكانت جامعة بولونيا أهم جامعات البحر المتوسط، وأما لجامعات جنوبي الغرب الأوروبي. أما جامعة باريس فقد غدت أما لجامعات شمال وغرب أوروبا. والملاحظ ان إنتشرت الجامعات في غرب أوروبا انتشاراً كبيراً حتى يمكن القول بأنه منذ القرن الثالث عشر شهدت هذه البلاد نشأة عدد كبير من الجامعات، منها ما كان في أصله مدارس قديمة خلعت على نفسها صفة الجامعة، ومنها ما قام بتأسيسه بعض الحكام أو المدن، أو جماعة من أساتذة الجامعات الأقدم عمراً، إذ وجدت عوامل تدفع الأساتذة للهجرة من جامعاتهم إلى مدن أخرى حاملين معهم تقاليد الجامعة الأم ونظمها مما أدى إلى تكاثر الجامعات وزيادة عددها. ومن هذه العوامل كانت الخلافات الداخلية في الجامعات الأولى، وهجرة بعض الأساتذة الغاضبين، أو شعور الغيرة لدى بعض المدن المجاورة ورغبتها في إقامة جامعات، ولذا لجأت إلى إغراء أساتذة

الجامعات لاجتذابهم والاستفادة إقتصادياً وأدبياً من قيام مجتمع جامعي بها. أو يكون من الأسباب تزايد عدد الأساتذة المرخص لهم بالتدريس في بيئة جامعية ووجود فائض منهم، ولجوء بعضهم إلى الهجرة. وكان قيام الجامعات عادة مرتبطاً بالحصول على مراسيم أو براءات بابوية أو امبراطورية أو غيرها من المسئولين، ويشهد تاريخ الجامعات محاولاتها للحصول على مزيد من الامتيازات والحقوق وتصارعها مع القوى المحلية. ومن أهم الجامعات التي ظهرت في ايطاليا كانت جامعات رجيو، وبادوا، ونابولي، وفي أسبانيا والبرتغال جامعات قشتالة واشبيلية وبرشلونة، وفي فرنسا مونبلييه وأورليان وتولوز، وظهرت جامعات في المانيا وبوهيميا وبولنده والدانمرك والسويد منها أوبسالا وكوبنهاجن وجامعات في اسكتلنده وانجلترا، مثل سانت اندروز وجلاسجو فضلاً عن اكسفورد وكمبردج.

جامعات انجلترا

تعتبر جامعة اكسفورد أقدم جامعة وجدت في انجلترا، ومرجع ذلك أن مدينة اكسفورد نشأت لتكون معبراً للماشية والأغنام حيث يضيق نهر التايمز ويصبح ضحلاً في هذه البقعة. وتشير النصوص إلى إقامة حصن في هذا المكان في مطع القرن العاشر الميلادي وبالتحديد في عام ٩١٢ م، كما نشأ سوق أيضاً في هذه المنطقة حوالي ذلك الوقت. ومع الحصن والسوق تحت المدينة أقيمت المنازل والكنائس، وخلال حكم الملك كانوت Canute (١٠١٦ ـ ١٠٣٥ م) بدأت المدارس على ما يبدو تظهر في اكسفورد، ولكن هذه المدارس كانت صغيرة لأن النصوص التاريخية لا تشير إلى مدرسة عامة في المدينة.

وفي مطلع القرن الثاني عشر بالتحديد في عام ١١١٧ م، أشارت النصوص إلى وجود استاذ في مدينة اكسنفورد Oxenford وهو الاسم القديم للمدينة الذي حرف إلى اكسفورد فقط بعد حذف حرف النون. ويبدو أن الاهتمام بعلم اللاهوت قد سبق العلوم الأخرى، فقد أشارت النصوص

التاريخية في عام ١١٣٣ م إلى قدوم أحد علماء رجال الدين من باريس يدعى روبرت بولن Robert Pullen ليحاضر في اللاهوت في المدينة. ونمت مدرسة اكسفورد رويداً رويداً حتى أصبحت مدرسة عامة أي جامعة، حتى إذا ما كان عام ١٢٠٩ م حيث تشير الحوليات إلى وجود حوالي ثلاثة آلاف مدرس وطالب في هذه الجامعة التي ضمت أربع كليات هي كلية اللاهوت، وكلية القانون الكنسي وكلية الطب وكلية الفنون وهي الكليات التي كانت معروفة في ذلك الوقت في جامعة باريس أيضاً.

وكانت الكليات عبارة عن أروقة حبست عليها الأموال للطلاب الفقراء، ثم تطورت وأصبحت قاعات للدراسة بالإضافة إلى كونها أروقة، فقد كان الأساتذة يسكنون مع الطلاب معاً في هذه الأروقة وبذلك تكونت جامعة اكسفورد. وبدأ الاهتمام بالجامعة في عام ١٢٦٠ م أي في عهد الملك هنري الثالث Henry III (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) عندما أنشأ جون دي باليول John de Balliol «بيت باليول» ليكون بيت ضيافة لبعض الطلاب الفقراء الذين أطلق عليهم اسم الزملاء وكان يقدم لكل طالب حوالي ثمانية بنسات أسبوعياً.

وحذا آخرون حذو باليول، ففي عام ١٢٦٣ م أي بعد ثلاث سنوات بعد انشاء بيت باليول قام والتر دي مرتون Walter de Merton بانشاء بيت مرتون في مدينة اكسفورد وأوقف بعض الأموال للانفاق على بعض الطلاب الفقراء. ومع نمو المدينة وارتفاع قيمة الأرض تضاعفت ايرادات الجامعة من الأراضي الموقوفة عليها حتى أن بعض الطلاب كانوا يعيشون عيشة ترفه حسدهم البعض عليها، يضاف إلى ذلك أن البعض أوقف العديد من الأراضي للجامعة.

وفي عام ١٢٨٠ م أي في عهد الملك إدوار الأول Edward I (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) قدم وليم أف درهام William of Durham هبه أنشأت بها الجامعة قاعة الجامعة وهي التي تعرف حتى الآن باسم كلية الجامعة University College. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذه الأعمال كلها كانت أعمال متواضعة إذا علمنا أن في هذه المرحلة كان عدد الأساتذة حوالي أربعة وعدد من الدارسين الذين تآلفوا مع بعضهم البعض وفضلوا السكن معاً. كما كان الأساتذة

يختارون واحد منهم ليكون رئيسهم وقد عرف هذا الرئيس باسم Principal. وهكذا تكونت جامعة اكسفورد من الكليات الأربع مجتمعة في نقابة الأساتذة، أي أنها كانت جامعة أساتذة وليست جامعة طلاب، وكان هؤلاء الأساتذة يخضعون لمدير الجامعة الذي يختارونه. وكان هذا الرئيس يخضع إلى اسقف مدينة لنكولن Lincoln وإلى الملك الانجليزي.

ويذكر المؤرخون أن عدد طلاب جامعة اكسفورد بلغ حوالي ثلاثة آلاف طالب في عام ١٢٠٩ م، ومع بداية القرن الرابع عشر أصبحت هذه الجامعة مركزاً كبيراً للنشاط العلمي في أوروبا بعد جامعة باريس، وتخرج وحاضر في اكسفورد العديد من مشاهير العالم نذكر منهم روبـرت جروستستي Robert Grosseteste (١١٧٥ - ١٢٥٣ م)، وروجـر بـيـكـون Roger Bacon (١٢٢٠ - ١٢٩٢ م) العالم والفيلسوف الذي إهتم بعلم البصريات بفضل ما اطلع عليه من علوم المسلمين.

وكان روبرت جروستستي أظرف شخصية في مدينة اكسفورد في عصره فقد درس في جامعتها الطب والقانون وأصبح بعد تخرجه أستاذ مدارس اكسفورد أي ما يعادل لقب رئيس الجامعة في أيامنا هذه، وبالإضافة إلى ذلك فقد أصبح اسقف لمدينة لنكولن. فقد سبق له دراسة العلوم الدينية بعد تخرجه في الجامعة، وفي هذه المرحلة، أشرف علىٰ بناء كاتدرائية المدينة. وبالاضافة إلى ذلك فقد أسهم في تشجيع دراسة اللغة اليونانية وفلسفة أرسطو كما أسهم في التوفيق بين هذه الفلسفة والدين، وألف شروحا لكتاب الطبيعة لأرسطو، وغير ذلك من العلوم وفتح أبواباً كثيرة لتلميذه روجر بيكون في العلوم والرياضيات، ويرى البعض أن الأفكار الىي نرجعها إلى روجر بيكون في فن المنظور والمد والجزر والاعتماد على التجارب قد ترجع إلى روبرت جروستستي.

وكتب روبرت شعراً بالفرنسية وله أيضاً رسالة في العلوم الزراعية، كما شجع دراسة اللغة العبرية بهدف هداية اليهود إلى الدين المسيحي. وكان روبرت أيضاً مصلحاً اجتماعياً دان بالولاء التام للكنيسة، ولكن ذلك لم يمنعه من

توجيه النقد إلى المحكمة البابوية، كما أنشأ صندوقاً لمساعدة الطلاب وقدم لهم القروص دون فوائد.

وفي مدينة لندن اختصت مدارسها بتدريس القانون المدني وكان مقرر دراسته في دور المحاكم وكانت منازل لنكولن، وجراي والمعبد الأوسط والداخلي في القرن الرابع عشر وليد المنازل التي كان القضاة وأساتذة القانون يستقبلون فيها الطلاب في القرن الثاني عشر ليدربوهم.

أما جامعة كمبردج Cambridge فترجع عظمتها إلى حادثة وقعت في مدينة اكسفورد، ففي عام ١٢٠٩ م قتل أحد طلاب جامعة اكسفورد امرأة في المدينة. فهب الأهالي وهاجموا مساكن الطلاب وشنقوا بعضهم، فأحتج المدرسون وأضربت نقابتهم عن العمل. وفي غمره هذه الأحداث غادر حوالي ثلاثة آلاف طالب وبعض الأساتذة مدينة اكسفورد واتجه الكثير منهم إلى مدينة كمبردج وأقاموا في المدينة قاعات للدراسة، وفي حوالي عام ١٢٢٨ م هاجر بعض طلاب جامعة باريس إلى كمبردج أيضاً، فزاد عدد الطلاب زيادة كبيرة وفي عام ١٢٨١ م نظم اسقف مدينة إلى Ely أول كلية مسيحية في كمبردج وهي كلية القديس بطرس التي عرفت باسم «بيت بطرس» وقد مكن ذلك من انشاء كليات أخرى تعتبر روعة في عمارة العصور الوسطى وكلها تدور حول نهر Cam كام وجسر Bridge. هذا النهر الذي جاءت منه مدينة كمبردج التي لا زالت جوهرة من جواهر العصور الوسطى.

النظم الجامعية وحياة الطلاب

وفيما يختص بالنظم الجامعية، فقد تميزت جامعات العصور الوسطى بجهاز إداري محكم يأتي على رأسه مدير الجامعة الذي كان بمثابة نقيب الطلبة أو رئيس اتحادهم في بولونيا والجامعات التي قامت على نسقها، ونقيب الأساتذة أو رئيس اتحادهم في باريس والجامعات التي قامت على شاكلتها. وكان مدير الجامعة يصل إلى منصبه عن طريق الاختيار. واحتل نقيب أو رئيس جامعة الأساتذة في باريس مكانة خاصة بارزة منذ أول الأمر، وأصبح هو ممثل

الجامعة وأساتذتها، ودخل بعد ذلك في سلسلة من المنازعات مع كبار رجال الكنيسة في باريس حول اسبقيته عليهم في المناسبات والحفلات العامة، واستطاع مدير الجامعة أن يحقق لنفسه مكانة مساوية لمكانة أسقف باريس. وإن كان بعض مديري الجامعة سجلوا باعتزاز كيف أنهم في كثير من المناسبات كانوا يتقدمون الكرادلة والأساقفة ورسل البابا والسفراء ونبلاء فرنسا. وبطبيعة الحال لم تكن أهمية مدير الجامعة في المجتمع تنبع من مكانته الشخصية، وإنما من أهميته كممثل للجامعة وأساتذتها.

أما عن مجلس الجامعة، فنحن نستطيع أن نتخذ باريس مثلاً لتشكيله، ففيها كان مجلس الجامعة يتشكل من عمداء الكليات ورؤساء الأروقة، ويعبر كل منهم عن آراء أساتذة كليته أو آراء أعضاء رواقه. وكان مدير الجامعة يوجه اليهم الدعوة للحضور مع تحديد مكان الإجتماع وزمانه والمسائل التي ستعرض. وكان المجتمعون يدرسون المسائل المعروضة عليهم ويتخذون القرارات فيها بعد أخذ الأصوات. كما كانت هناك مجموعة من الموظفين والمساعدين الإداريين. وكان بعضهم يقوم بجمع أصوات الأعضاء في المجالس، والبعض الآخر يطوف بأرجاء الجامعة لقراءة اللوائح على الطلبة أو أخطارهم بمواعيد المحاضرات أو أسماء الكتب التي يرغب أصحابها في بيعها، وكان لكل أستاذ معاون، يرعى حجرته مرتين في الشهر كما تقول بعض الروايات. ووجد مسجل لتدوين اللوائح والقرارات وحفظها كما وجد موظف مالي مختص للشؤون المالية. أما السعاة فكانوا يوصلون الأموال للطلبة من ذويهم، وكان يوجد ساع لكل منطقة يأتي منها الطلاب.

ولم تكن للجامعة مبان خاصة بها في أول الأمر، إنما كان كل رواق أو كلية بالجامعة يستعير كنيسة أو ديراً معيناً يعقد فيه اجتماعاته. أما المحاضرات فكانت تستأجر لها دور خاصة، وأحياناً كان يحاضر الأستاذ في منزله. والحصول على الأمكنة كان من المشاكل التي تواجهها الجامعات، أما الاحتفالات الكبرى فكانت تقام في كاتدرائية المدينة. وعلى أية حال فمنذ بداية القرن الخامس عشر أخذت الجامعات تقيم منشآت ومبان خاصة بها.

وبشأن طريقة التدريس، فكما يوضحها طالب من جامعة بولونيا في مذكرته، كانت تقوم على أساس المحادثة والمناقشة. ولم يكن الأستاذ حراً في محاضراته في اختيار الموضوعات التي يعالجها، وإنما كان مجبراً على اتباع مقررات دقيقة لا يحيد عنها، وإذا تخطى فقرة أو فصلاً عوقب بغرامة. وكان محظوراً عليه أن يؤجل توضيح المسائل الهامة إلى آخر المحاضرة، وذلك حتى لا يجد في ذلك وسيلة للتهرب من معالجة وإيضاح الضعيف من المسائل. وكان أساتذة العصور الوسطى يتجهون للتوسع في الأجزاء الأولى من المقرر مما لا يترك متسعاً للأجزاء الأخيرة، ولذلك قسمت المناهج كمحاولة لتجنب ذلك. كما أن في جامعة بولونيا كان على الأستاذ في أول العام الدراسي أن يضع مبلغاً من المال لدى الموظف المالي أو الصراف بالجامعة ولا يسترجعه إلا بإذن من مدير الجامعة، وذلك كضمان يستقطع منه إذا لم يتمم المقرر القائم بتدريسه ويلتزم بالتعليمات.

وكان طلبة العصور الوسطى يجلسون أثناء المحاضرة على وسائد من القش مفروشة على الأرض، واستمر ذلك حتى القرن الخامس عشر، عندما أخذوا يجلسون على دكك أو إدراج. وحاولت جامعة باريس في منتصف هذا القرن تحريم هذه البدعة في حزم، لتفرض على الطلبة الجلوس على الأرض حتى لا يتسرب الكبرياء إلى نفوسهم. وحرص الطلبة أثناء المحاضرات على اتباع طريقة المناقشة. وكان على الطالب الاعتماد على قوة المذاكرة في الوقت الذي لم تتوفر في الكتب، ولم ترحب فيه الجامعة بطلبات لاملاء المحاضرات عليهم.

أما مناهج الدراسة في الجامعات فإنها تنوعت، وإن تشابهت في العديد منها، وأهم المواد التي كانت تدرس كانت على النحو التالي:

أولاً: القانون المدني وخاصة في جامعة بولونيا والجامعات التي تفرعت منها.

ثانياً: القانون الكنسي الذي اهتمت به الكنيسة وقد عني بتدريسه بشكل خاص في باريس والجامعات التي اتبعت منهجها.

ثالثاً: اللاهوت، ومن الجامعات التي عنيت به باريس واوكسفورد.

رابعاً: الفلسفة والمنطق.

خامساً: الأدب اللاتيني.

سادساً: الطب.

سابعاً: الرياضيات والعلوم.

ثامناً: اللغات الشرقية (اليونانية والعبرية والعربية).

تاسعاً: الموسيقى وذلك لارتباطها بالطقوس الدينية.

وقد وضعت الجامعة نظاماً دقيقاً للكتب والمؤلفات العلمية للأشراف عليها وتبادلها عن طريق الإتجار أو الإستعارة. وكانت كتب العصور الوسطى باهظة الأثمان قليلة العدد، وكان الكتبي بمثابة وسيط يعمل مقابل عمولة. وقد وجد الكتبة والناسخون مورداً ثابتاً لهم من كتابة ونسخ الكتب وخاصة محاضرات الأساتذة. واتسعت تجارة الكتب اتساعاً كبيراً في المدن الجامعية في العصور الوسطى

وكانت للامتحانات والإجازات أو الشهادات أهمية كبيرة في التنظيم الجامعي وإن وجدت بعض الإختلافات في المراسيم الخاصة بها بين النوعين المعروفين في العصور الوسطى من الجامعات، جامعة الطلاب على نسق بولونيا، وجامعات الأساتذة على نسق باريس. وعموماً كانت الدرجات العلمية التي تمنح هي درجة .B. A أي الليسانس والبكالوريوس .B. Sc والدكتوراه .PH.D وكذلك إجازة التدريس والاستاذية.

والامتحانات كانت مناسبة عامة تقام فيها احتفالات معينة وخاصة عند النظر في قبول عضو جديد في هيئة التدريس أو نقابة الاساتذة. وكانت الامتحانات والحصول على الدرجات العلمية من المسائل الباهظة التكاليف في جامعات العصور الوسطى، بسبب كثرة الحفلات والهدايا، والإكراميات وغيرها من الأعباء، هذا إلى ما كان من ارتفاع قيمة الرسوم التي كان على الطالب أن يؤديها للجامعة بهدف الحصول على درجة من الدرجات العلمية. وبمراجعة

سجلات جامعات العصور الوسطى، يتضح أن من بين الطلبة الذين يسجلون كل عام كان لا يصل إلى درجة البكالوريوس إلا نسبة لا تتعدى النصف منهم، ونصف هؤلاء الأخيرين فقط هم الذين يصلون للدرجة الجامعية التالية. وكانت الامتحانات تتضمن ركناً هاماً عن لياقة الطالب من الناحية الخلقية وعن مسلكه أثناء الدراسة، ذلك أن الدرجة العلمية لم تكن مجرد شهادة باجتياز الطالب امتحاناً معيناً، وإنما كانت أشبه بتصريح له لمباشرة مهنة ما الأمر الذي يتطلب التأكد من حسن سيره وسلوكه. وكان أحياناً يستبعد من منح الشهادة بعض الطلاب لسوء أدبهم مع أساتذتهم، أو لما ينسب إليهم من المقامرة أو التشاجر المسلح، أو عدم مراعاة الزي الأكاديمي.

وقد فرضت الجامعات زياً أكاديمياً خاصاً على طلابها مثل ارتداء عباءة سوداء Cappa . وفي بعض الجامعات نظراً لارتباط نشأتها بالكنيسة، أصبح مفروضاً على الطلاب ارتداء رداء القساوسة وحلق رؤوسهم على طريقتهم. وبشكل عام كان على الطلاب الالتزام باللياقة والحشمة في ملبسهم، وفرضت الجامعة غرامات على المخالفين. وكان للأساتذة عباءات أو أرواب، وحرم عليهم الظهور بدونها في أي حفل جامعي أو أية مناسبة عامة. والأرواب المفروض أن تكون سوداء، ولكنها حليت مع مرور الوقت ببعض الأشرطة الملونة المميزة. وكان غطاء الرأس للأساتذة عبارة عن قلنسوة من الفراء أو الصوف أو غير ذلك حسب اختلاف مكانة الأستاذ، ثم أخذ الأساتذة يستبدلون بالقلنسوة الثقيلة من الفراء بأخرى خفيفة من الحرير في الصيف، كما بدأت فئات من الطلاب يلبسون القلنسوة، وأولئك كانوا من الخريجين ورؤساء الاتحادات وغير ذلك.

وكان الإشراف على الطلاب في حياتهم خارج قاعات الدراسة مشكلة كبيرة واجهت الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة، فالطلاب كانوا في مجموعهم صغار السن يتدفقون حيوية وشباباً ويعيشون بعيداً عن ذويهم ويحتاجون للرقابة الخلقية وكبح الجماح، في الوقت الذي كانوا يأتون فيه إلى الجامعة بأعداد كبيرة. ولم يكن الطالب المغترب في أول الأمر ملزماً بأن ينزل في سكن تحت

إشراف أحد الأساتذة بل كان حراً في اختيار السكن الذي يلائمه، أو يشترك مع زملائه في استئجار دار أو منزل. وكان الطلاب يعانون من ارتفاع الإيجارات. وقامت محاولات لايجاد حل للمشكلة بقيام لجنة مشتركة من الطلبة والأساتذة مع أهالي المدينة للحد من قيمة ايجارات مساكن الطلبة. وجرى العرف على أن يختار الطلاب أحدهم ليتولى رئاسة الدار. وقد يكون هذا الطالب من أقدم النازلين بالدار. وتطور الأمر بعد ذلك حيث فرضت الجامعات على المغتربين النزول في دور يرأسها مشرفون من الأساتذة. وقامت تنظيمات للسكن الطلابي جاء فيها تحريم حمل السلاح إلا بإذن، وتحريم التشاجر والسُكر والمقامرة وغير ذلك.

ولكن مع هذه الرقابة فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة، مثل الحانات ودور الدعارة والإختلاط بأهل السوء، الأمر الذي تسبب في انحراف عدد من الطلبة. وكان من الطبيعي، وقد ضمت الجامعات طلاباً من بلدان أوروبية مختلفة، أن نجد خلافات وخصومات بينهم شعر بها الناس في المجتمعات الجامعية. ومن أفضل ما يبين ذلك ما جاء في كتابات جاك دي فتري Jacques de Vitry (١١٨٠ ـ ١٢٤٠ م) واصفاً جانباً من حياة الطلاب في باريس قائلاً:

لقد كانوا ـ أي الطلبة ـ يتشاحنون ويتخاصمون ليس فقط بسبب بعض المناقشات، بل لما وجد من خلافات وفوارق بين بلدانهم، الأمر الذي أثار النزاع والخصومات والأحقاد وأدى إلى قيام العداء المستحكم فيما بينهم. وقد صدرت عنهم في قحة ودون حياء، كافة أنواع الإهانات والسباب التي كانوا يتراشقون بها فقد قالوا أن الإنجليز سكارى ولهم ذيول. أما أبناء فرنسا فهم متكبرون مخنثون يعنون بأناقتهم كالنساء. وقالوا أن الألمان سريعوا الغضب وأنهم يأتون المنكر والفحشاء في حفلاتهم. أما النورمان فلا اعتبار لهم إلا في المباهاة والتفاخر الكاذب. أما أهالي بواتييه فهم خونة ومغامرون دائماً. وكان البرجنديون سفلة وأغبياء. كما عرف عن سكان مقاطعة بريتاني أنهم قوم هوائيون لا يثبتون على رأي ولا حال.... وكان يطلق على اللومبارديين البخلاء المحبون للمال والأشرار الجبناء. أما الرومان فهم متمردون مشاغبون

مفترون. وأما أهل صقلية فهم قوم طغاة يشتهرون بالقسوة والعنف. ويعشق أهل برابانت سفك الدماء وإثارة الفتن، فضلاً عن كونهم لصوص وقطاع طرق ومغتصبون. والفلمنكيون هوائيون مترددون مسرفون نهامون ناعمون كالزبدة كسالى. وبعد تبادل أمثال هذه الشتائم والألفاظ البذيئة كثيراً ما كانوا يتضاربون بالأيدي. والواقع أن جامعات العصور الوسطى لم تخل كما هو الحال في الجامعات الحديثة من بعض الطلاب المستهترين المندسين وسط جموع الطلبة الصالحين، مما أدى إلى وصف بعض المعاصرين لبعض طلاب الجامعة بأنهم لا يصلحون إلا أن يكونوا خبارين لا طلاب علم.

ولم يظهر حل فعال لهذه المشاكل الطلابية من حيث تدبير الإقامة وتنظيمها وتوفير الرقابة، إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر عندما ظهرت المجمعات أو الكليات السكنية أو ما عرف باسم Collges التي كانت بمثابة منازل ينزل في كل منها عدد من الطلاب وخاصة الفقراء منهم على سبيل توفير حياة أفضل وحتى يكونوا تحت رقابة ترعاهم، وكان ظهور هذه المؤسسات لأول مرة في باريس، لما شاهد بعض الخيّرين معاناة الطلبة الفقراء من المتاعب والصعاب. ومن أول الكليات بباريس كانت تلك التي أنشأها جوكيوس اللندني Jocius سنة ١١٨٠ م ثم كلية السوربون التي أنشأها روبرت السوربوني La Sorbonne سنة ١٢٥٧ م وكان تاجراً ثرياً وأراد ايواء عدد من الطلاب المحتاجين وتوفير الطعام لهم مقابل أجر رمزي زهيد، وقد خلدت الكلية التي أنشأها اسمه إلى اليوم. ولم يلبث أن انتشر نظام الكليات لايواء الطلبة وخاصة المحتاجين منهم في بقية المدن الجامعية في شتى مدن الغرب، وغالبية مؤسسي هذه الكليات كانوا من الأساقفة ورجال الدين والخيّرين. وكان كل منها تحت إشراف الأساتذة.

ولم يلبث نظام الكليات أن أحدث ثورة في الحياة الجامعية لما أوجده من صلة جديدة بين الأستاذ وتلميذه، إذ أصبح الأساتذة المشرفون على الكليات يوجهون النزلاء فيها علمياً واجتماعياً، وشهد ذلك بداية نظام الرواد المثقفين Tutors ذلك النظام الذي قدر له أن يلعب دوراً كبيراً من الجامعات الإنجليزية.

ودعت الحاجة كذلك إلى قيام المكتبات في الكليات ليرجع إليها الطلاب عند استذكار دروسهم. وهكذا أخذت تزداد الصفة التعليمية للكلية المنزلية، حتى بدأ اساتذة اللاهوت يحاضرون في كلية السوربون في القرن الخامس عشر، ثم تبعهم عدد من الاساتذة في الكليات الأخرى تدريجياً، وأخذت الكليات تتحول من مجرد نزل لايواء الطلبة إلى معاهد علمية علياً تابعة للجامعة، لها أساتذتها وطلابها ونظمها.

وعموماً كانت حياة طلاب الجامعات في العصور الوسطى، بمقارنتها بحياة الطلاب في العصور الحديثة، حياة تكتنفها الصعاب. وكانوا يعانون من نقص وسائل التدفئة، خاصة وإن بعض الجامعات حرم على الطلبة الاستعانة بوسائل التدفئة الصناعية وفرض عليهم تحمل زمهرير الشتاء، حتى تجعلهم ينشأون وهم متقشفون. وكان الطلبة يعانون كذلك من نقص الضوء داخل غرف الدراسة، فالنوافذ اعتبرت نوع من الترف. وكان يكتفي بوضع ستائر على النوافذ. أما الشمع فكانت اثمانه مرتفعة، كما عاني الطلبة من قلة الكتب وارتفاع أثمانها، وذلك قبل أن يعرف الغرب استعمال الورق.

أثر الجامعات في المجتمع الأوروبي

ذكر بعض الكتاب أن هناك ثلاث قوى كيفت المجتمع الغربي في العصور الوسطى، وهي الكنيسة والامبراطورية والجامعة، فالروح الدينية وجدت في البابوية زعيمة لها، كما أن السلطة العلمانية بلغت ذروة عظمتها في الامبراطورية المقدسة، كما نبعت من الجامعة جداول المعرفة التي روت المجتمع الغربي في الشطر المتأخر من العصور الوسطى، خاصة بعد أن تزايد عدد الجامعات هناك حتى بلغ أكثر من ثمانين جامعة في أخريات هذه العصور. ولكن يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن الجامعات إذا كانت قد حققت نشاطاً حضارياً وفكرياً ضخماً فإن الفضل في نشاطها يرجع لنهضة القرن الثاني عشر التي جاء فيها مولد أولى الجامعات.

الفصل الحادي عشر

الحياة الإجتماعية

الطفولة والشباب

الزواج

المرأة

السلوك العام

منازل العصور الوسطى

الملابس والزينة

التسلية والألعاب

الطفولة والشباب

كان أول ما يربط الأطفال بالحياة المسيحية خضوعهم لعملية التعميد، فعن طريق العماد يبدأ الأطفال الإندماج في الحياة الإجتماعية المسيحية والخضوع لقوانينها، وفي حفل العماد الذي كان يتم في الكنيسة يسمى الطفل باسم مسيحياً وعادة ما يكون هذا الاسم اسم أحد القديسين أو المقربين للعائلة، وكان يضاف إلى هذا الاسم اسم آخر ليس بالضرورة أن يكون اسم الأب، بل كان يخضع إلى أصول مختلفة ربما يرتبط بالمهنة مثل الحداد أو النجار، أو المكان مثل الباريسي أو اللندني، أو إلى معارف الجسم مثل الطويل أو القصير أو الأشقر أو الأحمر، أو إلى معالم الخلق مثل الطيب أو الماكر.

وحثت الكنيسة الإمهات على إرضاع الأطفال، ولكن كل الأمهات لم يلتزمن بذلك، فقد كانت النساء الفقيرات يرضعن أطفالهن، أما نساء الطبقات الثرية فكان معظمهن لا يرضعهن أطفالهن. وكان الأطفال محبوبين داخل الأسرة، فقد كانوا يدخلون السرور على الوالدين إذا أحسنوا التصرف أما إذا كانوا على عكس ذلك فكانوا يعاقبون بالضرب. واعتادت الأسرة على إنجاب العديد من الأطفال، فقد كان منع الحمل محرماً واعتبرها البعض مساوية لجريمة القتل العمد. ورغم ذلك فقد ظهر في مراحل متقدمة من العصور الوسطى بعض وسائل منع الحمل منها ما هو آلية، أو كيماوية أو سحرية، أو استخدام بعض العقاقير المجهضة أو المؤدية إلى العقم.

وعلى أية حال فقد كان الكثير يفضل انجاب العديد من الأطفال خاصة العمال والفلاحين الذين كانوا يرون في أطفالهم يداً عاملة في الحانوت أو الحقل، ورحبت الأسرة كثيراً بالصبي خاصة الأغنياء والاقطاعيون لكي يرث هذا الصبي أباه في لقبه وأرضه. ومن المعروف أن العصور الوسطى أن الابن الاكبر هو الذي كان يرث والده في لقبه وأرضه وقد ترتب على ذلك مشاكل عديدة أدت إلى الحروب الاقطاعية.

وكان الصبي يتعلم بعض القواعد المسيحية من والديه ومن الكنيسة التي اعتادت الأسرة على ارتيادها أيام الأحاد. كما تعلم الأولاد من رفاقهم ومن الأسر المجاورة أو المخالطة لهم بعض الأمور، وقد يتعلم هؤلاء القراءة والكتابة في مدرسة الكنيسة أو مدرسة الدير، ولم نسمع عن الجامعات إلا في القرن الثالث عشر الميلادي.

وكانت العلاقات الجنسية قبل الزواج منتشرة بحكم غريزة الإنسان التي تتجاوز الشرائع الكنسية والدنيوية. وكان البعض يعتقد أن صلاته يوم الأحد في كنيسة البلدة تكفر عما اقترفه من إثم خلال أيام الأسبوع، وكان الاغتصاب معروفاً في العصور الوسطى رغم العقوبة الشديدة التي تحل بمرتكبها. وكان الفرسان الذين يقومون بخدمة بعض النساء أو البنات في الأسرة الكبيرة يسلون أنفسهم بهؤلاء أو بخادماتهن.

الزواج

كان الزواج يتم في سن مبكرة في العصور الوسطى، وقد يرجع هذا الزواج المبكر إلى عملية انتقال الملكية، فقد نسمع أن بوسع الطفل وهو في الثالثة من عمره أن يوافق على خطبته، ولكن مثل هذا الإرتباط قد يستطاع حله في أي وقت من الأوقات. أما السن المألوفة للزواج وهو سن البلوغ فقد كان الثانية عشر للبنت والرابعة عشر للولد. وحرصت الكنيسة على عقد أي زواج إلا بعد رضاء الوالدين أو الوصي قبل سن البلوغ، أما بعد سن البلوغ فلم يعد رضاء الوالدين أو الوصي ضرورياً. وفي مراحل متقدمة في العصور الوسطى تدخلت

الكنيسة وجعلت سن زواج البنت خمسة عشر سنة، ورغم ذلك فقد كان هناك بعض الحالات الاستثنائية خاصة إذا وجدت حقوق للملكية.

وعرفت العصور الوسطى مرحلة الخطبة قبل الزواج، وكانت هذه الخطبة عبارة عن تبادل عهد وميثاق، فقد كان العرس نفسه يسمى ميثاقاً Wedding. وكانت الهدايا تتبادل بين أسرة العريس والعروس، فقد كان العريس يقدم لوالدي عروسه الهدايا والأموال ويضمن لعروسه حق بائنة في مزرعته، كما قدمت أسرة العروس الهدايا للعريس أيضاً.

واعتبرت الكنيسة والدولة أن الزواج صحيحاً إذا تم بعهد حتى لو كان شفوياً رغم عدم قيام احتفال قانوني كنسي، وربما يرجع هذا التساهل إلى حماية النساء، ولكن الكنيسة وجدت بعد القرن الثاني عشر ضرورة مصادقة الكنيسة على الزواج حتى يصبح شرعياً، وفرضت حضور أحد القسس حفل الزواج. وشجعت الكنيسة الزواج ورفعت من شأنه واعتبرته ميثاق مقدساً بين الرجل والمرأة والله. وتدخلت الكنيسة تدريجياً ـ وبموافقة الدول ـ في كل مرحلة من مراحل الزواج، من حفل الزواج حتى إلى وصية الزوج أو الزوجة قبل الوفاة. وتعددت بنود قانون الزواج، ومن هذه البنود موانع الزواج، ومن ذلك ألا يكون أحد الطرفين متزوجاً أو مرتبطاً بميثاق زواج سابق، أو أن أحدهما قد نذر نفسه لكي يظل بدون زواج، وأن يكون الزوجان قد سبق تعميدهما. ورغم ذلك فقد تسمع عن بعض حالات زواج بين المسيحين واليهود، أو بين هؤلاء وبين الأرقاء أو بين الأرقاء والأحرار.

ومن القيود التي وضعتها الكنيسة على الزواج ألا يكون للطرفين جد مشترك خلال أربعة أجيال خشية أن يؤدي زواج الأقارب إلى ضعف النسل داخل الأسرة، أو لأن الكنيسة كانت تعمل على عدم تكديس الثروة داخل العائلة الواحدة، ولكن الكنيسة تغاضت كثيراً عن هذا الشرط خاصة داخل الأسرة الريفية.

ومن المألوف في العصور الوسطى أن يأتي بعد حفل الزواج الذي يتم في

الكنيسة موكب العرس، وهي عادة صارت حتى وقتنا هذا في الغرب والشرق، وقد يصاحب هذا الموكب أصداء الموسيقى، ويسير هذا الموكب إلى منزل الزوجية، حيث يقام حفل طوال النهار وحتى منتصف الليل. وقد يختلف هذا الحفل في إعداده ومشاهدة والولائم التي تقام فيه والملابس التي يرتديها أهل العروسين والمدعوون كل حسب قدره ومستواه الاجتماعي. وكانت حفلات الزواج من المناسبات السعيدة التي يشارك فيها كل أهل الحي أو المنطقة أو القرية. ومن الملاحظ قانوناً أنه لا يعتبر الزواج صحيحاً حتى يتم إتصال الزوجين.

ورغم تشجيع الكنيسة والدولة على الزواج، إلا أن عدد اللقطاء كان كثيراً، كما أن وأد الأطفال كان نادراً. وحتى تتغلب الكنيسة على ذلك أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات التي تجمعها وذلك منذ بدايات العصور الوسطى وبالتحديد في القرن السادس الميلادي ملاجيء للأطفال اللقطاء في بعض المدن. وفي أواخر القرن الثامن الميلادي أصدر الامبراطور شارلمان قانوناً ورد فيه أن الأطفال الذين يوجدون في الطرقات أو في الخلاء يصبحون عبيداً لمن يأدبهم ويربيهم. ونافست الكنيسة القوانين المدينة التي أصدرها شارلمان وأعلنت أن النساء اللاتي يلدن أطفالاً غير شرعيين يمكنهن أن يوضعهن عند باب الكنيسة، واعلنت السلطات الكنسية أيضاً أنها سوف تتكفل بهؤلاء الأطفال ليصبحوا أرقاء يعملون في أملاك الكنيسة، ومن أجل هؤلاء اللقطاء أنشأ أحد الرهبان جماعة إخوان الروح القدس وهي جماعة اهتمت باللقطاء واليتامى وتولت تعليمهم.

وتنظيماً للعلاقات الأسرية أصبحت عقوبة الزنا عقوبة قاسية. ومن ذلك أن القانون الانجليزي كان يرى معاقبة الزوجة الزانية بجدع أنفها وصلم أذنيها كما أجاز لزوجها قتلها. ورغم ذلك فإن هذه الجريمة لم تتوقف ولكنها كانت منتشرة بين طبقات النبلاء وأقل ما تكون بين الطبقات الوسطى. ولعل انتشارها بين طبقات الأشراف يرجع إلى أن السادة كانوا يغوون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامات بسيطة قد تصل إلى ثلاث شلنات.

وعن العلاقات الزوجية، كانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب جريمة الزنا، أو ارتداد أحدهما عن الديانة المسيحية. ويلاحظ أن عبارة الانفصال divortium باللاتينية لم تكن تعني في العصور الوسطى إبطال الزواج. ولكن إبطال الزواج كان يتم إذا ثبت أن الزوج أو الزوجة قد خالف أحد الموانع الشرعية التي نصت عليها قوانين الكنيسة. ويلاحظ أن هذه الموانع قد زادت يوماً بعد آخر بسبب الظروف الاجتماعية أو السياسية. ومن ذلك أن الكنيسة أباحت الطلاق للملك أو النبلاء الذين تزوجوا ولم ينجبوا ذكوراً من زوجاتهم ليرثوهم، أو يكون من وراء الطلاق فائدة سياسية في السلم أو الحرب. وأجاز القانون الألماني الطلاق إذا اتفق الزوجان عليه. ورغم قوانين الكنيسة الخاصة بالانفصال والطلاق إلا أن بعض السادة الاقطاعيين لم يلتزم بهذه القوانين فكان الطلاق داخل هذه الطبقة يتم دون إذن الكنيسة.

المرأة

رفعت مبادىء المسيحية من مكانه المرأة، كما قدست شعائر المسيحية أيضاً كأنه المرأة على أنها السيدة مريم العذراء والدة السيد المسيح، ولكن نظريات رجال الكنيسة كانت بوجه عام معادية للمرأة باعتبارها حواء التي أخرجت سيدنا آدم عليه السلام من الجنة، ولذلك غالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاع المرأة. ولقد نظر رجال الدين إلى المرأة عليه أنها شراً، وإغواء، وكارثة، وخطراً، وفتنة، ولكنها أيضاً عنصراً مرغوباً. وإذا كانت المرأة هي حواء التي خسر بسببها الجنس البشري جنات عدن، وأنها أداة الشيطان التي تقود الرجال إلى الجحيم، فقد أصبحت في نظر البعض في منزله أقل من منزلة رقيق الأرض، ومن هنا نادى البعض بوجوب حب الأبناء لآبائهم أكثر من حبهم لأمهاتهم.

وساد الاعتقاد في العصور الوسطى أن المرأة تخضع للرجل بحكم ضعفها الجسمي والعقلي، ورغم ذلك نادى القانون الكنسي بوجوب حماية الرجل للمرأة، وكما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه، فإن الرجل مبدأ المرأة

ومنتهاها، ومن هنا كان خضوع المرأة للرجل يرجع إلى قانون الطبيعة. ومما ساد أفكار العصور الوسطى حول وضع المرأة في المجتمع أن الله خلق الرجل في صورته وليس المرأة، وأن خضوع المرأة للرجل أصبح واجباً عليها، بل يجب عليها أن تكون خادمه له، ورغم هذا كله فإن الكنيسة كانت تمنع الزواج بأكثر من واحده، ودافعت عن حقوق المرأة في وراثة الممتلكات.

ورغم تضارب وضع المرأة داخل الكنيسة بين وضع حواء ووضع السيدة مريم إلا أن الكنيسة في واقعها كانت رحيمة مع المرأة. ولكن القانون المدني كان أشد عداء للمرأة من القانون الكنسي، فقد أباح القانون المدني للزوج أن يضرب زوجته، كما رفض سماع أقوال المرأة كشاهده لدى المحاكم، كما حرم على المرأة مهما كانت منزلتها من التمثيل النيابي في ضياعها في المؤسسات النيابية. كما أعطى القانون المدني للزوج كل الحق في الإنتفاع بما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فيه.

وأجاز القانون الكنسي والمدني تعليم المرأة. ولكن هذه القوانين لم ترخص للمرأة أن تكون طبيبة. أما في الجوانب الاقتصادية فقد كان للمرأة ما كان الرجل، فقد باشرت عملها في كافة المجالات الاقتصادية.

أما في المنزل فقد باشرت المرأة وقامت بكافة الأعمال المنزلية من الطهي وصنع الصابون والشمع والزبد وعصر الجعة وغزل الصوف والكتان ونسجه،وغير ذلك مما يعتبر من الكفاية الذاتية للأسرة. كما كان عليها أن تزين بيتها على قدر مستوى الأسرة وأن تجلعه نظيفاً، وأن تربي أطفالها وتعتني بهم، وأن تهتم بشئون زوجها سواء أكان من السادة أو من الفلاحين.

وشاركت المرأة من سكان المدن بجهدها في المحيط التي عاشت فيه، فعلى سبيل المثال كانت تقوم بعزل ونسج ما يلزم للنقابات حتى أصبح عدد النساء مساوياً لعدد الرجال في شركات الحرير وإن كان أجرهن أقل من أجور الرجال.

واختلفت نساء الطبقات الوسطى عن طبقات الفلاحين، فقد كانت نساء الطبقات الوسطى يلبسن الثياب التي تتناسب مع ثراء أزواجهن، وكان هؤلاء النساء يقمن بدور كبير في الحفلات الاجتماعية والأعياد الدينية التي تقام في البلدة، واشتركن في تحمل المسئوليات مع أزواجهن، وتقبلن في لطف ما قدمه الفرسان والشعراء، من مظاهر الاحترام. وشيئاً فشيئاً وجدت المرأة من السبل لتتحرر من قيود العصور الوسطى ، فقد ورد في حوليات هذه العصور أن المرأة تفوقت على الرجل في نواحي كثيرة، كما أن هذه الحوليات تشير إلى بعض النساء اللاتي حكمن أزواجهن. ولعل من ساعد على ذلك أن المرأة في الأسر الشريفة كانت تتعلم شيئاً من الأدب والفن وكان زوجها غير المتعلم يكد ويحارب، فكانت الفرصة مواتية لها لتظهر في الندوات الأدبية والحفلات الاجتماعية.

ومع ظهور المرأة في المجتمع كان عليها أن تنافس وتناقش الرجل في أقواله،ومع غياب زوجها سواء في الحرب أو التجارة كان الفراغ الذي يتولد عنه القصص الغرامية، حتى أن المرأة كانت تبدأ بالغرام دون حياء. وسمح لها وضعها الاجتماعي بأن تتنقل بكامل حريتها، وان تنافس بتجارتها وتلفت النظر إليها في الحفلات، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أنها صاحبت الرجال في الطريق إلى بيت المقدس للحج أو الاشتراك في الحروب الصليبية في عدة الحرب الكاملة.

والامثلة على النساء الشهيرات في العصور الوسطى كثيرة، ومن هؤلاء جالا بلاسيديا Galla Plaicedia وكلوتلدا Clotilda زوجة الملك كلوفيس Clovis ملك الفرنجة (٤٨٢ ـ ٥١١ م)، والامبراطورة ثيودورا Theodora زوجة الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م)، والامبراطورة ايرين Ireen (٧٩٧ ـ ٨٠٢ م) والمؤرخة البيزنطية أنا كومنينا Anna Comnena (ت ١١٤٨ م) واليانور أف اكويتين Eleanor of Aquitaine زوجة لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ ـ ١١٨٠ م) ثم هنري الثاني ملك انجلترا (١١٥٤ ـ ١١٨٩ م) وغيرهن كثيرات.

وليس لنا أن نخوض في سير كل هؤلاء بل نكتفي بالحديث عن واحدة منهن وهي اليانور ابنة وليم العاشر أمير اكويتين، هذا الأمير الذي كان شاعراً ونصيراً للشعراء وزعيماً لهم. وقد كان بلاطه في مدينة بوردو صالوناً للشعراء والظرفاء. وقد تربت اليانور في هذه الأجواء لتكـون ملكه لـلآداب والفنون. واتصفت اليانور بالخلق والثقافة وقوة الجسم وقوة العاطفة الخلقية والجسيمة، وحرية الحديث والخيال الشعري والهيام بالحب الذي لا حدود له.

وفي عام ١١٣٧ م بلغت اليانور الخامسة عشر فتزوجها لـويس السابـع ملك فرنسا، وكان زواجاً سياسياً إبتغى لويس من ورائه ضم مقاطعة أكويتن. وقد دام هذا الزواج خمسة عشر عاماً اهتم خلالها لويس بشئون دولته واهتمت هي بمرحها وجمالها وتحررها والاهتمام الشعراء.

وعندما فكر لويس في قيادة الحملة الصليبية الثانية مع كونراد ملك المانيا إلى فلسطين اصطحب معه زوجته اليانور الشديدة الشوق بالمغامرات، فارتدت لباس الرجال العسكري وسارت في مقدمة الجيش، وسارت الحملة براً من فرنسا إلى القسطنطينية ثم عبرت آسيا الصغرى حيث عـانت الكثير حتى وصلت إلى مدينة أنـطاكية التي كـان يحكمها ريمـوند أف بـواتيه Raymond of Poitiers (١١٣٦ ـ ١١٤٩ م) خال اليانور. وفي هذه المدينة أشيع عن اليانور أنها على علاقة مع خالها، ومرة أخرى أشـاع البعض أنها أحبت عبداً مسلماً جميـلاً، ومـرة ثالثة قالوا أنها تحب صلاح الدين رغم أن صلاح الدين لم يكن معروفاً في هذه المرحلة.

وعلى أية حال لقد ضاق لويس بعبث زوجته بعد أن صبر عليه كثيراً، كما أنه قد ضاق ذرعاً بلسانها السليط، بعد أن ملأت قصصها أصقاع أوروبا وأصبحت عرضه لسخرية رجال الدين. وارتاحت اليانور كثيراً واعتقدت أن الملك سوف يطلقها ولكنه لم يفعل فطلبت هي الطلاق بحجة اتصالها بصلة القرابة مع الملك لويس وحصلت عليه، وعادت إلى ولايتها اكويتين وإلى عاصمتها مدينة بوردو لتحكم منها الولاية. وفي عام ١١٥٤ م تزوجت رئيسة محكمة الحب اليانور من هنري الثاني ملك انجلترا.

انتقلت اليانور إلى انجلترا بثقافة فرنسا الجنوبية وذوقها، وعاشت في انجلترا كما عاشت في بلادها من قبل نصيرة للشعراء وملهمتهم، ولكن هنري الذي كان أصغر منها بإحدى عشر عاماً لم يجد ما يشين سلوكها، ولكن طباع هنري الحادة لم توافق هوى اليانور، كما أن هنري انشغل عنها بنساء البلاط، وعندما احتجت على ذلك أنزلها من عرشها فهربت إلى بلادها ولكنه قبض عليها وأودعها السجن، فثار الشعراء على الملك وأثارت هي الأولاد على أبيهم فخلعوه عن عرشه ولكنه ظل يقاوم حتى مات عام ١١٨٩ م. ولما خلف ريتشارد قلب الأسد والده على عرش انجلترا ١١٨٩ ـ ١١٩٩ م أخرج أمه من السجن وعينها نائبة عنه في حكم البلاد عندما قرر قيادة الحملة الصليبية الثالثة لمحاربة صلاح الدين. ولما حكم ابنها الملك يوحنا انجلترا (١١٩٩ ـ ١٢١٦ م) دخلت إلى أحد الأديرة حيث ماتت من الحزن في الثانية والسبعين من عمرها. ولقد وصف البعض اليانور بأنها زوجة فاسدة، وأما فاسدة وملكه فاسدة أيضاً.

السلوك العام

كان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال في كافة العصور، فقد كان خليطاً بشرياً من التقوى والصلاح، والرقة، والغرام، والأنانية والقسوة ولم تختلف المرأة عن شريك حياتها كثيراً في هذه المرحلة، فقد كان الجميع يشربون وإذا ما غابوا عن وعيهم خرجت من شفاهم كل الألفاظ البذيئة والرقيقة. وإذا ما زاروا الكنيسة كانوا رحماء يخرجون الصدقات. وقد نمت في قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيولهم وصقور صيدهم وكلابهم، حتى أن الكلاب اعتبرت حيوانات مدللة، وقد درب بعضها لقيادة المكفوفين. وكانت القطط كذلك من الحيوانات المدللة التي اهتمت الأسرة بتربيتها.

ومن آداب العصور الوسطى أن الرجال كانوا يتصافحون بالأيدي عند اللقاء، ويعتبر ذلك عهداً بالسلم ومبادره بعدم استخدام العنف. وكان من العادات أيضاً أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه، وسنت القوانين التي كان على أفراد المجتمع الراقي اتباعها في المناسبات. وكان على الرجال والنساء أن يتحلس آداب السلوك العام أثناء الرقص والمشي وفي ألعاب البرجاس وفي

بلاط الملوك والأمراء. هذا بالإضافة إلى آداء التحية المناسبة، وكان هناك ارشادات كثيرة لآداب اللياقة ظهرت في القرن الثالث عشر عرفت باسم آداب البلاط.

ومن مظاهر العصور الوسطى واجبات الضيافة، فكان المسافر يستضاف أثناء سفره فى أحد أديرة الرجال أو النساء، وإذا كان المسافر من الفقراء أعفى من أجر ليلته. وكان في بعض الأديرة مضايف تتسع لحوالي ثلاثمائة من الضيوف، كما كانت هناك الاسطبلاتِ لايواء خيول المسافرين. لذلك تشجع التجار وأصحاب المصارف، ورجال الدين والطلاب والسائحون في كل نواحي أوروبا العصورِ الوسطى واتخذوا من هذه الأديرة ملاذاً لهم.

ومن سلوك العصور الوسطى قيام الأسرة بتقديم الصدقات، ولعل كثرتها يرجع إلى كثرة الخطايا التي يرتكبها مقدموها. أو لعلها ترجع أيضاً إلى كثرة الكوارث في هذا المجتمع. والواقع أن الدولة والكنيسة والطوائف قد اهتمت كثير بأمر الصدقات، ففي القرن الثاني عشر أصبح تنظيم جمع الصدقات على مستوى عال من الاتقان. فكانت الأسرة والنقابات الطائفية ـ مثل طائفة السروجية أو طائفة الخبازين وغيرهما من الطوائف ـ والدولة والكنيسة تشترك كلها في جمع الصدقات للتخفيف من عذاب المنكوبين بسبب الحروب أو الفيضانات أو الحرائق وغير ذلك من الكوارث.

والواضح أن اخراج الصدقات أصبح واجباً عاماً التزم به الجميع، فمن أراد دخول الجنة كان يوصي بجانب من ثروته، وكان بعض الأغنياء يتبرعن بمهور البنات الفقيرات، كما كان بعضهم يطعم العديد من الفقراء يومياً وفي الأعياد والمناسبات الدينية. كما كان بعضهم يقدم الطعام لكل من يطرق بابه ويطلب الطعام. وقد وزع الطعام أيضاً عند كثير من أبواب منازل النبلاء ثلاث مرات في الاسبوع. كما ساهمت بعض سيدات المجتمع احساساً منها بواجبها الاجتماعي والأخلاقي في جمع الصدقات لسد حاجات المعوزين. وفي القرن الثالث عشر نادى البعض ومنهم روجر بيكون بأن تخصص الدولة جانباً من ميزانيتها للصرف على الفقراء والمرضى وكبار السن والعجزة.

والحقيقة أن الكنيسة قد تحملت العبء الأكبر في هذا العمل الخيري، فالكنيسة الكاثوليكية في روما نظمت الصدقات داخل أوروبا الغربية بأسرها. وقد طالب البابا جريجوري الأول (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) بأن ربع العشور التي تجمعها كل أبرشية تخصص للفقراء والعجزة. كما أن الحوليات تشير إلى أن الامبراطور شارلمان كان يرسل المساعدات الدينية إلى كنائس الشرق، وقد نفذت في الأبرشيات هذه التعليمات إلى حين.

وبالإضافة إلى الأموال التي جمعت للأعمال الخيرية، فإن الأديرة كانت تستمد مواردها من الهبات والصدقات. كما أن الرهبان والراهبات كانوا يقومون بأعمال التمريض والتعليم وأعمال البر، لذلك قامت الأديرة بإطعام الفقراء بالإضافة إلى افتداء الأسرى. وكان دير كلوني وهو أكثر الأديرة في العصور الوسطى ثراء يقوم بجانب كبير من الأعمال الخيرية.

ورغم هذه الصدقات والتبرعات فقد كان التسول كثيراً، ولعل مرجع ذلك إلى كثرة الفقراء أو أن البعض اعتاد هذه الحياة، فقد كان المتسولون يقصدون الأديرة وبيوت الاحسان لإيوائهم واطعامهم ،وكان العجزة والأفاقون يتنقلون من مكان إحسان إلى آخر يتصيدون لقيمات العيش.

ولم يكن سلوك العصور الوسطى مرتبطاً بالصدقات والخدمات والتسول فقط، بل كانت هناك جوانب أخرى. ولكي ينضبط سلوك المجتمع فقد كانت القوانين الكنيسة والمدنية. وقد تطلب الأمر أن يقسم الناس بالايمان في معاملتهم مثل القسم على الكتاب المقدس أو المخلفات المقدسة، ولكن الكثير قد حنث بالايمان، ولذلك كان الناس يلجئون إلى التحكيم بالقتال أو إجتياز النار بأمل أن يظهر الله الحق.

والواضح أن حب المال كان وراء فساد الأخلاق، فمن أقوال العصور الوسطى المأثورة «أن كل الأمور تطوع نفسها للمال». ولذلك ندد رجال الدين بالجري وراء المال. والأمثلة عن الخداع والاحتيال كثيرة في حوليات العصور الوسطى، وليس في ذلك أمر جديد فإن الإنسان في العصور الوسطى لم يكن

يختلف في سلوكه العام عن الإنسان في أي مكان وزمان. فقد كان أصحاب الحرف يخدعون المشترين ويحتالون عليهم. كما كان الخبازون يبيعون الخبز منقوص الوزن، وكان تجار الجلود يزينون الجلود الرديئة ويشبهوها بأجود أنواع الجلود. كما كان التجار يدسون الحصى في المواد التي تباع بالوزن.

والحقيقة أن الدولة كانت تبذل الكثير من الجهد لمقاومة ما درج عليه الناس من الغش والخداع بعد ما كثرت عمليات التزوير. وكان تزوير الوثائق من الأعمال الشائعة في العصور الوسطى لا فرق في ذلك بين رجال الدين والدنيا. فقد زور البعض في الأناجيل وأضافوا إليها ما اعتبروه قصصاً طريفة. كما زور البعض الأوامر البابوية لأغراض سياسية، كما زور الرهبان الوثائق التي تعطيهم الحق في ملكية بعض الأراضي أو العقارات. كما أن رئيس أساقفة كنتربري قد زور الوثائق التي تعطيه الحق في أسبقية كرسيه الديني.

وانتقل التزوير إلى الجامعات حيث زور البعض أقدمية تخرج زائفة لبعض خريجيها، كما سادت الرشوة إلى جانب التزوير، فقد كان التلاميذ يحملون المأكولات لممتحنيهم، وقدم البعض الرشوة ليحصل على أحد المناصب المدنية، كما قدموها إلى كبار رجال الدين ليحصلوا على بعض المناصب الكهنوتية حتى عرفت الرشوة داخل المجتمع الأوروبي باسم «السيمونية». كما قدمت الرشوة إلى الشهود ليعدلوا من أقوالهم رغم قسمهم بقول الحقيقة. وخير مثال على تفشي الرشوة هو قيام الملك الإنجليزي إدوار الأول في عام ١٢٨٩ م بفصل عدد كبير من القضاة والوزراء بعدما ثبتت عليهم الرشوة.

وكانت جريمة السرقة من الجرائم الكبيرة، وقد وصل الحد أن بعض السلطات المدنية كانت تعاقب مرتكبيها بالإعدام، كما أن الكنيسة كانت تحكم على مرتكبي جرائم السطو بالحرمان من رحمة الكنيسة. ورغم هذا كله فإن عمليات السرقة والسطو لم تتوقف داخل أرجاء أوروبا في العصور الوسطى، وقد جعلت هذه الحوادث الطرق غير آمنة مما كان له أكبر الأثر على حرية انتقال البشر والبضائع. وكانت شوارع المدن تشهد في الليل - حيث تنعدم الإضاءة أو

تقل كثيراً ـ الكثير من حوادث السطو والسرقة وقلما كان يتم القبض على الجناة لضعف امكانيات الدولة.

وقد جاهدت الكنيسة كثيراً للحد من هذه الحوادث، ولكنها لم تنجح كثيراً، ولكن عندما قامت الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر تحول الناس من الحروب الاقطاعية ومن أعمال السطو والسرقة إلى التجمع للحرب ضد المسلمين واستعدوا للزحف على الأراضي المقدسة.

والواضح أن القسوة والوحشية سادتا العصور الوسطى أكثر من قبل، ويرجع ذلك إلى أن البرابرة الجرمان الذين اجتاحوا أوروبا وشكلوا معظم سكانها لم يتخلوا عن عاداتهم البربرية رغم اعتناقهم الديانة المسيحية، فقد كان الرجال والنساء خشنوا الطباع يضربون ويسبون بعضهم وخدمهم، وقد يصل حد الضرب إلى الموت. وكانت شوارع العصور الوسطى غير منضبطة يسودها جانباً منها الفوضى والشجار، لذلك كانت القوانين قاسية، ورغم ذلك لم تتمكن الدولة من قمع العنف. ومن العقوبات التي حلت بالمخالفين التعذيب، أو استخدام عامود الاحراق، وسلخ الجلود، وتمزيق الأطراف بشدها إلى الخيول. ومعاملة المسجونون بكل وحشية.

ومن هذه المعاملة إحاطة رقبة المسجون بحبل وثقل ثم يشد الحبل فتخرج عيون السجين من مكانها، كما كان يربط ابهام السجين أو أحد أصابعه بثقل ينزعه من مكانه، كما وضعت النيران في أوعية تحت أقدامهم، كما حكت قصبات أرجل السجين بقطعه من الخشب حتى تظهر العظام.

وعلى أية حال فقد كان السلوك العام في العصور الوسطى يجمع بين الرحمة والقسوة، وقد تحمل أهالي العصور الوسطى آلامها بكل شجاعة، كما قدموا الصدقات طواعية، كما استمتع الرجال والنساء بكل ما وقع تحت أيديهم من ملذات وترف.

منازل العصور الوسطى

كانت منازل العصور الوسطى غير مريحة إلى حد كبير، فلم تكن الوسائل

الحديثة مثل الكهرباء وغيرها قد عرفت في هذه المرحلة. فقد كان المنزل سميك الجدران قليل النوافذ التي كانت بمثابة فتحات في الجدار قبل ما وجد بها الواح زجاجية، بل كانت تسد بالواح خشبية تغلق بمصاريع لحماية من بالداخل من برد الشتاء القاصي. وكانت التيارات الهوائية تتسلل إلى المنزل عبر جزء من النوافذ والأبواب، لذلك كانت المقاعد ذات الظهور المرتفعة تحمي الجالسين عليها من أضرار هذه التيارات التي تكون مرغوبة في الصيف إلى حد ما.

أما برد الشتاء فقد كان قاسياً تم التغلب عليه بوضع مدفأة أو أكثر داخل المنزل حسب مساحته، كما استعمل أهل الدار القبعات والفراء داخل الدار لاتقاء البرد. وقد استعمل الحطب أو الفحم لاشعال المدافيء. وقد أدى ذلك إلى تلوث الهواء ولكن تناثر المنازل في المدن والريف وقلة عدد السكان قد قلل من أضرار الاحتراق إلى حد كبير.

ولم تكتظ المنازل بالأثاث، فقد كان قليلاً ولكنه كان جيد الصنع، فقد كانت المقاعد عادة بدون ظهور إلا في منازل الأشراف، كما أن بعض هذه المقاعد كان محفوراً حفراً جميلاً وعليها نقوش أو رموز أو رنوك تشير إلى صاحبها،كما كانت بعض مقاعد الأشراف مطعمه بالصدف أو الأحجار الكريمة. كما وجدت بعض المقاعد الحجرية مع الجدران أيضاً، كما وضعت بعض الصناديق في ساحة المنزل لتكون بمثابة مقاعد.

وانتقل استخدام السجاجيد من الشرق إلى اسبانيا في بداية الأمر ثم إلى أوروبا بقدر ضئيل ثم شاع استخدامها في القرن الثالث عشر الميلادي. وتذكر بعض الحوليات أن اليانور عندما انتقلت من اكوتين إلى انجلترا عام ١٢٥٤ م بعد زواجها من هنري الثاني قام خدامها بفرش جناحها بسجاجيد كما يفعل أهل أسبانيا ثم انتشرت هذه العادة في انجلترا وإلى غيرها من الدول.

وفي المنازل العادية كانت تنثر الأعشاب أو القش على الأرض، ولما كانت أرضية المنازل رطبة إلى حد كبير خاصة في الشتاء كانت رائحة المنزل تتأثر براحة العشب أو القش التي كثيراً ما كانت غير محببة. أما جدران المنزل

فكان يغطى جانباً منها بالستائر المزركشة لتزينها وتمنع جانباً من تيارات الهواء، كما استخدمت هذه الستائر على النوافذ، وفي تقسيم ساحة المنزل إلى قاعات أو حجرات.

واحتفظت بعض منازل ايطاليا بمظاهر الترف الروماني، لذلك كانت هذه المنازل أوفر راحة وأقرب إلى الشروط الصحية من منازل شمال أوروبا. وكانت معظم المنازل تحصل على المياه من الأنهار أو الروافد المائية القريبة منها، ولكن بيوت الطبقات الوسطى كانت تحصل على الماء بواسطة مضخات ركبت على آبار داخل المنزل.

وقلت الحمامات العامة في العصور الوسطى لأن الكنيسة اعتبرتها من بؤر الفساد داخل المدينة. وعندما تعرف الصليبيون على حمامات البخار في بلاد الشرق أدخلوها إلى منازلهم رغم معارضة الكنيسة.

والحقيقة أن المستوى الاجتماعي مرتبط بالنظافة، فكان السادة الاقطاعيون والطبقات الغنية يستحمان في أحـواض خشبية عدة مرات في الاسبوع أيام الصيف، وفي القرن الثاني عشر زادت مدن أوروبا ثراء، فارتفع مستوى معيشة العديد من الأفراد فكثرت الحمامات في انجلترا وفرنسا والمانيا.

ووجدت بعض وسائل الصرف الصحي في بيوت الأغنياء وفي الأديرة، فقد استخدمت البالوعات لافراغ محتويات المراحيض، ولكن الكثير من سكان المنازل كانوا يقضون حاجتهم في مراحيض وجدت خارج المنازل تكفي لمنزلين أو ثلاثة. أما المراحيض العامة فقد اعتبرت من وسائل الترف ولم نسمع عن بعضها إلا بعد منتصف القرن الثالث عشر، لذلك اعتبر حدثاً كبير عندما أدخلت انجلترا فكرة الأنابيب لنقل الفضلات في أواخر القرن الثالث عشر. وكانت مياه الغسيل وغيرها تفرغ في الشوارع أو تلقى من النوافذ. وبعد وباء عام ١٥٣١ أصدرت سلطات باريس مرسوماً يحتم على كل منزل بناء مراحيض خاصة بـه، ولكن هذا المرسوم لم يأخذ مرحلة التنفيذ إلا بعد فترة طويلة.

ومن سلوك الأفراد في العصور الوسطى غسيل الأيدي قبل الأكل وبعده

لأنهم كانوا يأكلون بأيديهم. واعتمد الأهالي على وجبتين رئيسيتين في اليوم وظلت هذه العادة حتى الوقت الحاضر تقريباً، وكانت الوجبة الأولى تتم في العاشرة صباحاً، والثانية في حوالى الرابعة بعد الظهر. وكان للوجبات أشكالاً خاصة تتعلق بوضع الأسرة الاجتماعي. ففي المنازل الكبيرة كان يعلن عن موعد الوجبة بالنفخ في البوق. ووضعت الأطعمة على ألواح خشبية ترتفع على قوائم قصيرة، وفي بيوت الأغنياء كانت الأطعمة توضع على خوان من الخشب الثمين وقد حفرت على جوانبه النقوش البديعة. واستعمل أهل المنزل مقاعد ربما قصيرة الأجل أو بطول عادي كما استعملوا الدكك أيضاً.

وفي بيوت الأغنياء كان الخدم يحملون الأباريق لغسل الأيدي. وكثيراً ما كان الناس يجلسون على الموائد أزواجاً فقد كان يجلس كل رجل بجوار زوجته عادة، وكان الاثنان يأكلان معاً من طبق واحد ويشربان من كوب واحد، وقد يستخدم البعض الملاعق، ولم تعرف الشوكة إلا بعد القرن الثالث عشر، وقد يستخدم كل فرد سكينه الخاص إذا لزم الأمر.

واتخذت الأطباق أشكالاً عديدة وصنعت من مواد مختلفة، فقد كان بعضها من الخشب أو من سبيكة معدنية بها جانب من الرصاص، وكان بعضها من الزجاج. وفي بيوت الملوك والأمراء وجدت بعض الأطباق التي صنعت من الفضة أو الذهب.

واحتوت الموائد العديد من أنواع الطعام الذي أحسن إعداده، ولعدم وجود وسائل التبريد كثيراً ما كان يفسد الطعام، وللتغلب على هذه المشكلة استخدمت التوابل التي استوردها الغرب الأوروبي من الشرق رغم ارتفاع ثمنها. وضمت منازل الأثرياء بعض الطهاة وقد يكتفي بواحد فقط. وكان هذا الطاهي من الأشخاص المهمين داخل المنزل. وكان عليه اعداد القدور وآنية الطهي ويفخر بما يقدمه للمدعوين من أنواع الطعام. ويفخر أيضاً بما يحمله من كرامة البيت وسمعته وبما يسمعه من مديح المدعوين إذا أعجبهم طعامه.

واستخدم عامة الناس الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير

والشوفان والشيلم. وكان يتم صنع هذا الخبز في المنزل الريفي. أما سكان المدن فقد استخدموا الخبز الأبيض الذي يصنعه الخبازون في مخابزهم. وكانت لحوم الخنازير أكثر استخداماً في العصور الوسطى رغم علمهم أنها تعيش على الفضلات التي تلقى في الشوارع، وما كان هناك من اعتقاد أنها تسبب الاصابة بالجذام. وقد يقدم الخنزير مطهياً لكبار الضيوف في بيوت الأثرياء، كما قدم الدجاج والطاووس والسمك.

وكانت الحلوى نادرة الوجود لأن السكر لم يعرف في أوروبا إلا بعد القرن الحادي عشر عندما عرفه الصليبيون في بلاد الشام، ولذلك استخدموا عسل النحل محل السكر في المراحل السابقة، وكانت الفواكه تقدم بعد الطعام. ومن المعروف أن التبغ لم يكن معروفاً في أوروبا الوسطى، فقد كان الأهالي يشربون الخمور بعد تناول وجباتهم. وكان يتم شرب الماء بعد غليه ولكن استخدامه كان قليلاً.

وعوضاً عن الماء شرب الأهالي الجعة والنبيذ والأنواع الأخرى مثل خمور التفاح والكمثري، لذلك كثرت الحانات في أوروبا التي تقدم الجعة لرخص ثمنها حتى أنهم شربوها بعد فطورهم. ووجدت المعاصر الخاصة بالخمور في الأديرة والقصور ومنازل الأغنياء. وكان أهل شمال أوروبا يفضلون الجعة التي لا يزيد ثمنها عن ثمن الخبز، أما الأغنياء في كل أنحاء أوروبا وأهل جنوب أوروبا كانوا يفضلون النبيذ. وقدمت فرنسا أفخر أنواعه وتغنى بمديحه المغنون في الأغاني الشعبية.

وكان صاحب الدار عادة ما يسلي ضيوفه مع الشراب ببعض الأغاني وما يقدمه المهرجون. وكان لبعض السادة الأثرياء طائفة خاصة بهم من المسلين، كما كان الضيوف يستمعون إلى بعض الموسيقى أو رواية بعض القصص. ومن وسائل التسلية أيضاً الرقص أو لعب الشطرنج أو النرد. وقد حرمت فرنسا صنع النرد أو لعبه منذ مطلع القرن الثالث عشر لأن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار، ولكن هذه القوانين لم تمنع تداوله، وأضحت هذه اللعبة من ضروب التسلية التي انهمك فيها الأشراف وخسروا فيها ثرواتهم.

وكان الرقص في الميادين والشوارع من الأمور المألوفة في العصور الوسطى رغم أن الوعاظ من رجال الدين كانوا يحرمونه. وقد رأى المعتدلون إباحة الرقص في حفلات الزواج والمناسبات. وقال البعض أن الرقص من أعمال الرياضة البدنية إذا كان في حدود الأدب، ولكن البعض رأى أنه بدعة من أعمال الشيطان. أما الكنيسة فلم ترض عنه لأنها وجدت فيه إغراء بالفساد.

والواقع أن الرقص انتشر في أوروبا خاصة في فرنسا وألمانيا وابتدعت أنواعاً كثيرة مارسوها في المواسم الزراعية أو الاحتفال بالنصر، أو لتفريج الكروب إذا نزلت بهم كارثة. وكان معظم الرقص يدور بالنهار لعدم وجود الإضاءة الليلة.

واستخدمت منازل العصور الوسطى الإضاءة بواسطة مصابيح تستخدم الزيت، ولما كان الزيت غالي الثمن فقد كان الأفراد يأوون إلى فراشهم في وقت مبكر. وكان الأغنياء ينامون على حشيات من الريش ووسائد معطرة، أما الفقراء فكانوا ينامون على فراش من القش. ولكثرة البعوض استخدم القادرون كَلة لوقايتهم.

الملابس والزينة

لقد تجمع في أوروبا العصور الوسطى خليط من الأجناس وقد تغلب عليهم العنصر الأبيض عدا بعض الزنوج. فلقد كان هناك اليونانيون في البلاد البيزنطية، وأنصاف اليونانيين في ايطاليا الجنوبية، بالإضافة إلى اليهود وبعض المسلمين من سكان شمال أفريقية. كما كان في شمال إيطاليا الرومان واللمبارد وأهل البندقية وجنوه. وفي فرنسا كان هناك الباريسيون والنورمان، وفي الأراضي المنخفضة نجد الفلمنكيين والهولنديين وفي شبه جزيرة اسكندنافية كان النرويجيون والسويديون والدانمراكيون، هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى مثل المجريين والصقالبة وغير ذلك كالإنجليز والسكون.

والواقع أن العناصر التيوتونية كان لها الغلبة في جميع بلدان أوروبا الغربية عدا جنوبي ايطاليا واسبانيا لقربها من شمال أفريقية الاسلامية. ولعل

ذلك مرجعه إلى الهجرات الجرمانية العديدة والفتوحات الإسلامية، وكثرة الحروب وما يصاحبها من عمليات الأسر وانتقال هؤلاء الأسرى ليعملوا كعبيد فيها بالإضافة إلى تجارة الرقيق.

ولما كانت الغلبة للعناصر التيرتونية وهي العناصر الجرمانية فقد أصبح رجل العصور الوسطى الذي يثير إعجاب المرأة هو الرجل الطويل الأشقر بعيونه الزرقاء. أما المرأة التي تغنوا بها في الملاحم والروايات فهي المرأة النحيلة الرشيقة ذات العيون الزرقاء والشعر الأشقر الطويل. وتدريجياً تحول الشَعر الطويل عند الرجل إلى درجة من القصر ربما تشابه الأوروبي في وقتنا الحالي، كما حلق الأوربيون لحاهم. وبما اقتصر هذا التحول في الطبقات العليا في بداية الأمر.

أما الفلاحون وهم الكثرة في أوروبا في تلك المرحلة فقد كانوا يتركون لحاهم وشعر رؤوسهم، وفي بعض الأحيان كانوا يجدلون شعورهم، وتارة يضبغونه ويربطونه بالأشرطة. وكانت النساء المتزوجات في القرن الثالث عشر يضعن شبكة ربما كانت من الخيوط الذهبية وذلك حسب المستوى الإجتماعي للمرأة.

وكانت ملابس العصور الوسطى عند الرجل والمرأة أجمل مما كانت عليه من قبل، ويرجع ذلك إلى التقدم في صناعة الغزل والنسج بعدما تعاملوا مع السوق الشرقية الاسلامية، فقد اختفت إلى حد كبير العباءة الرومانية وحلت محلها السراويل القصيرة والطويلة الضيقة أو الواسعة وذلك حسب مناخ ودرجة حرارة المنطقة. ففي جنوب أوزوبا ومناخ البحر المتوسط حيث ترتفع درجة الحرارة اختلفت الملابس عن بلاد الشمال الباردة. كما تنوعت الملابس حسب نوع العمل الذي يقوم به أهل أوروبا.

وعادة ما كان الرجل العادي يلبس سروالا طويلاً ضيقاً وقميصاً مصنوعاً من القماش، وربما كان أحدهما من الجلد أو كلاهما معاً ويضع على رأسه قلنسوة من الفراء أو قبعة من الصوف أو اللباد أو الجلد. كما كان يضع على

كتفيه حرملة، كما استعمل الأوروبيون الحذاء العالي الذي ترتنع مقدمته.

وكانت معظم أجزاء الثياب تصنع من الصوف الذي يغزل وينسج ويخاط في المنزل. أما رجال الطبقات الثرية فكان لهم غزالون ونساجون وخياطون يتولون أمر ملابسهم. كما ارتدى هؤلاء الأغنياء سراويل تحتية صنعت من التيل الأبيض الرفيع، وجوارب ذات ألوان صنعت من الصوف أو الحرير، كما ارتدوا قمصاناً من التيل. ويعلوا كل ذلك حرملة أثناء الشتاء يمكن أن تمتد لتغطي الرأس حماية من المطر. ولم يكن للقلنسوة شكلاً واحداً، فكان هناك ذات القمة المربعة التي سميت Mortarboard، وهي القلنسوة التي ارتداها رجال الجامعات والتي ظلت حتى الوقت الحالي. وكثيراً ما ارتدى هؤلاء الأغنياء القفاز.

وأضاف أثرياء أهل أوروبا إلى هذه الملابس بعض الوسائل لتزينها، فكانت الأطراف والحواشي تجمل بالفراء أو الحرير أو المخمل وذلك حسب مناخ المنطقة وفصول السنة، ولعل في ذلك ما جعل الفراء الذي استوردته أوروبا من روسيا غالي الثمن باعتباره أجمل أنواع الفراء.

واستخدم الأثرياء من أهل أوروبا الحلى لزينة أجسادهم وملابسهم ومآزرهم وأحذيتهم. فقد وضعت بعض اللاليء بعدما دون عليها بعض العبارات المقدسة أو غير ذلك في ملابسهم. كما زينت أطراف الملابس بخيوط من الذهب أو الفضة. وزاد الملوك هذه الزينة في ملابسهم لدرجة أن بعضهم كان يلبس مئزراً مرصعاً بالذهب أو مطعماً بالحجارة الكريمة.

ومما لا شك فيه أن الملابس تدل على منزلة الرجل ومكانته الإجتماعية، لذلك كان لكل طبقة ملابسها وشعاراتها وهي ما تعرف بالرنوك. وقد تحتج إحدى الطبقات إذا ما استعمل الناس شعاراتهم وملابسهم. ولذلك سنت القوانين لتنظيم ما يضعه الناس على ملابسهم من شعارات. ومن ذلك أن حاشية السيد الإقطاعي أو النبيل أو الفرسان التابعين له كانوا يلبسون في المناسبات والأعياد والحروب الثياب التي تحمل شعارات النبيل.

وكانت ملابس النساء تتكون من قميصاً طويلاً من التيل عليه جلباب ذو

أطراف من الفراء يصل إلى القدمين، وارتدى النساء فوق ذلك قميصاً نصفياً ومئزراً مرصع بالحلى أو الجواهر. وكثيراً ما استخدمت النساء القفازات المصنوعة من جلد الشاموا. وكان النساء يمسكن في ايديهن بكيس من الحرير ربما احتوى منديلاً أو بعض النقود، كما وضعن على رؤسهن القبعات التي تفننوا في صنعها وتجميلها وتزينها بكل أنواع الزينات.

وأصبحت الأحذية ذات الكعاب العالية هي المحببة إلى النساء في أواخر العصور الوسطى، وقد تعمدت المرأة في هذه المرحلة إلى تقصير أثوابها بعض الشيء حتى تظهر حذاءها وجانباً من ساقها. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأت النساء تلبسن ملابس تكشف عن جانب من صدورهن الأمر الذي أصدر من أجله رجال الدين مواصفات لملابس المرأة، كما أمر رجال الدين المرأة بلبس النقاب، وقد صنع هذا النقاب من الحرير الرقيق المشغول بالذهب فظهر النساء أجمل كثيراً ولفتن عيون الرجال وأصبحوا أكثر اغراء للفساد. كما استخدم النساء المساحيق ولبسن الشعور المستعارة. واهتمت المرأة بزينة وجمال بشرتها ولذلك كانت تضع الكثير من وسائل التجميل مثل لبن الخيول ومسحوق البقول وغير ذلك لتجميل بشرتها.

التسلية والألعاب

تفاوتت وسائل التسلية والألعاب بين الطبقات، ولكن العامة والخاصة كانوا يجتمعون من حين لآخر في بعض المناسبات، مثل قيام الملك بعقد جميعه عامه بين أتباعه الاقطاعيين، أو إذا قدم ملك أو أمير أو من في مستواهم إلى أحد المدن حيث يصطف الناس لمشاهدتهم، أو إذا اقيمت ألعاب البرجاس، أو إذا كان هناك أحد المواكب الدينية، أو مواكب أحد الأعراس أو الاستعراضات العسكرية، أو الاحتفالات التي تقيمها أحد الطوائف النقابية.

ففي مثل هذه المناسبات كانت الشوارع تزين بالأعلام والمشاعل وتماثيل القديسين المصنوعة من الشمع، والشارات العسكرية. وفي هذه المهرجانات كان المغنون الجائلون يرسلون أصواتهم عبر هذه الحشود ويقصون قصص البطولة

والغرام ، كما كان بعض المهرجين يعرضون ألعابهم على الحبال وهم معصوبي العينين. وفي بعض الأوقات كان يتم صراع بين بعض الحيوانات والرجال أو الحيوانات بعضها البعض.

وكانت رياضة الصيد من أعمال الملوك والأمراء، ولكن قوانينه حددت مواسمه بفترات قليلة في السنة. واحتفظ الأشراف بأملاك خاصة لصيدهم وحرم على الآخرين دخولها. وإذا كان الصيد نوعاً من الرياضة لتقوية الجسم استعداداً للحرب، فقد كانت من ناحية أخرى مصدراً من مصادر الطعام. وكانت رحلات الأشراف للصيد مهرجاناً كبيراً حيث يخرج الرجال والنساء تصاحبهم الكلاب وقد امتطوا جيادهم في حللهم الزاهية وعدة الصيد. وكان اشتراك السيدات في الصيد يتم عن طريق البزاة المدربة على الطيران على ارتفاع عال لمهاجمة أنواع مختلفة من الطيور والعودة بها إلى السيدات، ثم توضع هذه الطيور في شراك لاصطياد فريسة أخرى. وكان البازي الذين يعلم البزاة شخصاً هاماً جداً داخل القصور الاقطاعية ولدى كبار رجال الدولة حتى كان منصب حافظ البزاة من المناصب الكبرى واعلاها مرتبة في فرنسا.

وبالإضافة إلى الصيد كان هناك الكثير من الألعاب مثل السباحة والانزلاق على الثلج، وسباق الخيل، والرمي بالقوس والسهام والنشاب، وصيد الأسماك، والعاب الكرة، ورمي القرص والمصارعة والملاكمة ولعبة التنس التي وفدت إلى أوروبا من بلاد الشرق، ولعبة البولو التي يبدو أنها وردت من الصين إلى إيطاليا.

وبعد الاستقرار النسبي الذي ساد أوروبا في أواخر العصور الوسطى أصبح الناس أكثر ميلاً للتألق والاشتراك في الحياة العامة، فقد كانت النشاطات الجماعية في الأديرة بنوعيها وفي الجامعات، ومراكز النقابات الطائفية. وساد المرح أيام الآحاد والأعياد حيث كان الأهالي يرتدون أفخر أنواع الثياب.

وفي أعياد الميلاد كانت الجماهير تنظم الكثير من وسائل التسلية حيث يلبث المهرجون الأقنعة واللحى المستعارة والملابس المضحكة ويمثلون

المسرحيات في الطرقات والميادين العامة. وكانت هذه المشاهد ترى أيضاً في أعياد الفصول الزراعية والأعياد المحلية.

كما كان للكنيسة أعيادها، وقد يصاحب هذه الأعياد جانباً من الفكاهة، ومن هذه الأعياد ما كان معروفاً في فرنسا بعيد الحمار الذي يحتفل به في الرابع عشر من يناير كل عام، وفي هذا العيد يتم تمثيل فرار السيدة مريم والسيد المسيح على حمار من فلسطين إلى مصر، فقد كانت فتاة جميلة تركب حماراً ثم يقاد الحمار إلى الكنيسة حيث تتم الصلاة، فإذا ما انتهت الصلاة نهق الحاضرون ثلاث مرات تكريماً لهذا الحيوان الذي أنجى السيدة مريم والسيد المسيح من العذاب أو القتل.

الفصل الثاني عشر

الالحاد ومحاكم التفتيش

- ثراء الكنيسة
- الالحاد الديني
- نشأة محاكم التفتيش
- نتائج محاكم التفتيش

ثراء الكنيسة

ظلت كنيسة روما هي القوى المحترمة في غرب أوربا، ومعنى ذلك أن الغارات الجرمانية قطعت أوصال الأمبراطورية الرومانية في الغرب خاصة بعد سقوط العاصمة روما عام ٤٧٦ م، فقد أقام الجرمان العديد من الدول على أنقاض الامبراطورية الرومانية، ولم يكن في أوربا بعد سقوط روما قوة تستطيع أن تصد هذه الغارات وإن بقيت كنيستها تقاوم تيار المذهب الأريوسي والوثنية التي دان بها هؤلاء الجرمان.

وكانت أول دولة تعتنق المسيحية على مذهب روما هي دولة الفرنجة بقيادة كلوفس، فوجدت الكنيسة في روما في هذه الدولة سنداً لها، كما وجد الفرنجة في كنيسة روما سنداً لها أيضاً. وقد تولى السدة البابوية في روما بعض الباباوات العظام الذين نهضوا بالكنيسة الكاثوليكية حتى أصبحت في مرحلة من المراحل دولة أوروبية بزعامة البابا فوق جميع الدول الأوروبية التي يحكمها الملوك أو الأباطرة. وفي مراحل عظمة الكنيسة، تولت شئون العبادة والتعليم والزواج والحروب الصليبية وأقامت الكنائس والكاتدرائيات واشتركت اشتراكاً فعلياً في تصريف شئون المجتمع الدنيوية.

ولم يكن بوسع الكنيسة أن تنهض بهذا العمل الضخم إلا إذا توفرت لها المصادر المالية الكافية، وكان من هذه المصادر ضريبة العشور والأراضي التي تملكها الكنيسة والرسوم التي تجني من المسيحيين مثل رسوم مراسم التعميد أو

مباركة المشرفين على الموت، ومراسم الزواج وغير ذلك.

وكانت ضريبة العشور أهم هذه المصادر وأكبرها دخلاً للكنيسة، وكانت قوانين دول أوروبا تفرض على جميع الأراضي غير أراضي الكنيسة أن تؤدي عشر محصولها عيناً أو ما قيمته نقداً للكنيسة، وكانت كل أبرشية ترسل عشر ما تجمعه إلى الأسقف. وهكذا نشأ جهاز معقد لجمع الأموال التي تصب في النهاية في كنيسة روما حتى ضاق الأهالي بهذا الأموال وبدأوا يعلنون تمردهم وكراهيتهم لجامعي هذه العشور. وعندما هددت الكنيسة بإنزال قرار الحرمان بالذين لا يسددون هذه العشور تحدى بعض الناس قرار الحرمان وتعاهدوا على ألا يجلسوا مع رجال الدين على موائد الطعام أو يقدموا لهم الطعام أو الشراب، مما إضطر الأساقفة إلى إرتضاء هؤلاء الثائرين.

والمصدر الآخر للكنيسة كان الأراضي التي حصلت عليها بالوصية أو هبة من الأفراد أو الحكام، أو الأراضي البور التي استصلحها الرهبان. وقد زادت هذه الأراضي يوماً بعد يوم لأنه كان من المألوف أن يوصي كل مالك أرض بجزء من أرضه أو ماله للكنيسة، وكان الذين لا يفعلون ذلك يشك في إيمانهم، ويمكن أن يدفنوا في مقابر غير مخصصة للمسيحين الأتقياء.

وزاد من إيراد الكنيسة أن غالبية الأهالي كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة وعادة ما كان رجل الدين هو الذي يتولى كتابة الوصايا، وتأكد ذلك بقرار أصدره البابا الكسندر الثالث Alexander III (١١٥٩ - ١١٨٤م) وأوجب قيام القساوسة بكتابه الوصايا وإلا أصبحت غير قانونية، كما أن أي فرد من غير القساوسة يقوم بكتابة أحد الوصايا يقع تحت حرمان الكنيسة. ولما كان من المفهوم لدى المسحيين في هذه المرحلة أن الهبة أو الوصية للكنيسة تخفف عنهم آلام المطهر، لذلك كانت الوصايا والهبات كثيرة.

وكانت بعض الأديرة تؤاخي بعض المحسنين فتمنحهم نصيباً من تخفيف عذابهم في المطهر، كما وهب بعض المسنين كل ما لديهم لأحد الأديرة نظير إيوائهم بقية حياتهم. كما باع بعض الذين وهبوا أنفسهم للحروب الصليبية

أراضيهم للكنيسة بمثن بخس ليحصلوا على نفقة الحرب، ومن الناس من كان يموت دون ورثة فتنقل كل أملاكه للكنيسة، وكان كل ذلك دخلاً كبيراً للكنيسة. ويلاحظ أن الأموال أو الأملاك الخاصة بالكنيسة لا يجوز انتقالها للغير، لذلك أخذت أملاك الكنيسة وأموالها تزداد يوماً بعد يوم حتى صارت الكنيسة الكبرى في مدينة ما تمتلك عشرات الضياع وربما المدينة بأكملها، وقد ورد في بعض المصادر أن كنيسة انجلترا كانت تمتلك خمس الأراضي الزراعية، وأن كنيسة ألمانيا كانت تمتلك ثلث الأراضي الزراعية، وفي مملكة قشتاله امتلكت الكنيسة ربع هذه الأراضي .وربما كانت هذه المصادر قد بالغت في هذه التقديرات، ولكن المهم هنا أن الكنيسة امتلكت الكثير من الأراضي الزراعية وما تغله من حاصلات بالإضافة إلى الأموال الأخرى من الروافد العديدة.

والأهم من هذا كله أن ثروة الكنيسة أصبحت موضع حسد الحكام والملوك والأباطرة. ومن ذلك أن شارل مارتل Charles Martel (ت ٧٤١ م) حاكم الفرنجة صادر أموال الكنيسة واستغلها في حروبه، كما أن لويس التقى Louis the Pious ملك فرنسا (٨١٤ ـ ٨٤٠ م) أصدر القوانين التي تحرم على من له ورثة بأن يوصي بأملاكه للكنيسة، يضاف إلى ذلك أن هنري الثاني Henry II إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدمة (١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ م) إستولى على العديد من أراضي الأديرة. وكانت حجة هنري أن الرهبان قد نذروا أنفسهم للعيش فقراء. وفي انجلترا وضعت القيود على الأموال التي تنقل للكنيسة، وإلى جانب ذلك صادر الملك إدوار الأولى Edward I (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ م) عشر أملاك الكنيسة، كما استولى في عام ١٢٩٤ م على نصف دخل الكنيسة السنوي. ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد حدث في فرنسا أن فيليب أوغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م) فرض الضرائب على أملاك الكنيسة في بلاده، كما أن فيليب الجميل (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) صادر أموال هيئة الفرسان الداوية وحاكمهم.

وكانت ثروة الكنيسة وعدم رضاء الناس عنها وقيام بعض الحكام بمصادرة بعض هذه الثروة، كما كانت سبباً في كفر الناس بالكنيسة، وسبب رئيسيا من أسباب

الإلحاد. ومن ذلك ما أعلنه البعض أن كل قس أو راهب يموت وله بعض الأملاك فإن مثواه النار، كما شن البعض الحملات على ثروة أتباع السيد المسيح، وتمدنا المصادر ببعض قصائد الهجاء وبعض القطع الأدبية والقصص التي تهاجم الكنيسة وثرواتها.

وتطور الأمر وهاجم بعض رجال الدين الكنيسة ذاتها، ومن ذلك أن هيوبرت أف رومان Hubert of Romans رئيس طائفة جماعة الدومنيكان كتب يهاجم صكوك الغفران بقوله أن «بائعي صكوك الغفران البابوية يفسدون المحاكم الدينية بما يتقبلونه من الرشاوى». كما أن توماس بكت Thomas Becket رئيس أساقفة كنتربري (١١٦٢ - ١١٧٠ م) هاجم مجلس القضاء البابوي الذي تباع مناصب أعضائه.

وحاول بعض المصلحين في الكنيسة القضاء على ظاهرة الفساد داخل الكنيسة ونادوا بضرورة الإصلاح، واشترك بعض الباباوات في مقاومة هذا الفساد، وهاجموا فرض رسوم على إجراءات التعميد أو دفن الموتى أو إتمام مراسم الزواج. وتشجع البعض بموقف هؤلاء المصلحين وشنوا الحملات القاسية على رجال الدين.

الإلحاد الديني

مع إعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول بالديانة المسيحية في مطلع القرن الثالث الميلادي ظهرت المذاهب الدينية، وقد تحوت هذه المذاهب إلى طوائف كان بعضها غير راض عن أعمال الكنيسة سواء في القسطنطينية التي تزعمت الأرثوذكسية أو روما التي تزعمت الكاثوليكية، وطوال العصور الوسطى نمت هذه الفرق وزاد من نموها الإتصال ببقية الإصقاع خاصة في القرن الثاني عشر، لذلك أقبلت على غرب أوروبا موجات جديدة من الطوائف ولعلها عادت مع المحاربين الصليبيين الذين عادوا من الشرق، أو من بلاد فارس وآسيا الصغرى حيث المانوية والمزدكية، أو من بلاد الإسلام التي كرهت الصور والتماثيل. كما أن بلاد البلقان قد لفظت الكثير من البوليسيون Paulicians،

فساروا إلى إيطاليا وفرنسا، وكان من هذه الطوائف من يسخر من الصور المقدسة والعشاء الرباني ورجال الدين.

وإذا كانت الأفكار التي اعتنقتها هذه الطوائف قد أتت من الشرق، فقد ظهر في أوروبا نفسها طوائف أخرى لعلها تأثرت بالأفكار الشرقية، ففي عام ١٠٠٠ م ظهر في مدينة تولوز وأورليان في فرنسا أفكار تنكر المعجزات وقدرة التعميد على محو الآثام، ووجود جسد المسيح ودمه في القربان المقدس. وقد تجاهلت الكنيسة الكاثوليكية في روما هذه الأفكار في أول الأمر، ثم حاربتهم وأحرقت من معتنقيها ثلاثة أحياء في عام ١٠٢٣ م. ولكن ذلك لم يمنع طوائف أخرى من الظهور ولم تهدأ الإضطرابات.

وفي جنوب فرنسا تصاعدت موجة الإلحاد عندما قام أحد الأثرياء ويدعى بطرس والدو Peter Waldo في عام ١١٧٠ م بدعوة جماعة من العلماء ليترجموا الإنجيل، واقتنع بطرس بعد قراءة الترجمة أن المفروض على المسيحيين أن يعيشوا كما عاش الحواريون ليس للواحد منهم ملك خاص، فترك جزء من ثروته لزوجته ووزع الباقي على الفقراء، ودعا المسيحيين إلى العيش فقراء، فتجمعت حوله طائفة عرفت بإسم «رجال ليون الفقراء» Poor men of Lyons، ولبست هذه الطائفة ملابس الرهبان وعاشوا عيشة مشاعة على العفة والطهارة والفقر، ولم تقاوم الكنيسة هذه الطائفة وسمحت لهم بالقراءة والانشاد داخل الكنيسة. وتحولت هذه الطائفة تدريجياً إلى معاداة رجال الدين وأنكرت صحة العشاء الربابي الذي يقدمه رجل دين آثم، وقالت أن كل مسيحي طاهر له القدرة على العفو عن الذنوب. وعارضوا صكوك الغفران وعقيدة المطهر وتحول القربان المقدس إلى دم المسيح وجسده.

ولمقاومة مثل هذه الهرطقات عقد مجلس في مدينة تولوز الفرنسية عام ١٢٢٩ م وأصدر قراراً بعدم إمتلاك أي شخص غير رجال الدين للكتب المقدسة، وحرم أيضاً قراءة ترجمات الإنجيل ووجوب استعمال الأناشيد المكتوبة باللغة اللاتينية، ومن جراء ذلك أحرق العديد من أتباع بطرس والدو ـ الذي هرب إلى بوهيما حيث مات عام ١٢١٧ م ـ عقاباً لهم.

وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر كانت الهرطقة والطوائف الدينية قد وجدت لها أوكاراً في معظم بلاد أوروبا، وليس أدل على ذلك من أن أحد رجال الدين قال «إن المدن ملأى بالأنبياء الكاذبين» وفي مدينة ميلان الإيطالية كان بها حوالي سبع عشر طائفة دينية أهمها الطائفة التي ظهرت في حي بتاريا Pataria الفقير في المدينة والتي عرفت بإسم البتريائيين . وطالما قامت هذه الطائفة من حي فقير في حركة ضد الأغنياء بصفة عامة ومنهم رجال الدين. وهاجمت هذه الطائفة الرشوة التي تفشت في الكنيسة وبيع مناصب رجال الدين وزواجهم، ونادت هذه الطائفة بمصادرة أموال رجال الدين وبيع أملاكهم.

وكانت بعض الطوائف الدينية قد سيطرت على مقاليد الحكم في بعض المدن، ففرضت الضرائب على رجال الدين، لذلك تدخل البابا أنوسنت الثالث وطلب من رجال الدين عدم تعيين أحد هؤلاء الهراطقة في أي منصب، فثار هؤلاء وجهروا بالسباب ضد الكنيسة وهاجموا بعض الكنائس ونهبوها.

وفي فرنسا بوجه خاص كانت أقوى الطوائف الملحدة هي طائفة الكاثاري Cathari، ويرجع أصلها إلى كلمة يونانية تعني «طاهر»، وطائفة الإلبيجنسيين Albigenses في جنوب فرنسا نسبة إلى مدينة ألبي Albi. وفي مدينة منبليه ونربونه ومرسليا كانت مراكز الهرطقة تزداد يوماً بعد يوم.

وكانت عقائد الكاثاريين تعود إلى العقائد المسيحية في بداية عهدها، وكان فيها جانبا من المذهب الأريوسي الذي كان في إيطاليا وجنوب فرنسا، بالإضافة إلى بعض الأفكار المانوية وغيرها من أفكار بلاد الشرق الإسلامي والمسيحي. وانقسمت فلسفة هؤلاء كما انقسمت عند المانوية إلى الخير والشر، فالخير هو الله والروح والسماء، والشر هو الشيطان والمادة والعالم المادي. وجاء في أفكار هؤلاء أن الشيطان هو الذي خلق العالم، لذلك أصبحت المادة شراً، والصليب الذي صلب عليه السيد المسيح على حد قولهم مصنوع من الخشب، والخشب من المادة لذلك أصبح شراً. ومن عقائد الكاثاريين رفضهم للعشاء الرباني، والقداس، وتعظيم الإيقونات، والتثليث، ولا يؤمنون بأن السيد المسيح ولد من مريم العذراء، وأن المسيح ملاكاً وليس

الله. ونادوا بإنكار الملكية الخاصة وعملوا على تقسيم ما يحصلون عليه بينهم بالتساوي. ونادوا بحب أعدائهم والإهتمام بالفقراء والمرضى، وأن يستمسكوا بالسلام وعدم إستعمال العنف لأنه ينافي الأخلاق الكريمة ولو كان ضد معارضيهم. كما أنكرت هذه الطائفة أن الكنيسة تخص السيد المسيح، وذكرت أن القديس بطرس لم يأت إلى مدينة روما ولم يؤسس فكرة البابوية، وأن الباباوات في روما ليسوا خلفاء للحواريين بل خلفاء للأباطرة. واستشهدوا بأن المسيح لم يكن له أملاكاً ولا أموالاً، أما كبار رجال الدين فقد أصبحوا من الأثرياء.

وزاد الكاثاريون في أفكارهم ونادوا بأن رجال الدين ما هم إلا زنادقة وأنهم من زمرة الشياطين، وأن البابا هو المسيح الدجال، وصوروا السيدة مريم العذراء في صورة مشوهة الجسد عوراء، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات. وانقسم الناس إلى مؤيد لهم وساخر، وكان من مؤيدهم الشعراء الذين ناصروا أيضاً طائفة الإلبيجنسيين الذي سخروا من الصليب والإعتراف والحج.

وتساهلت الكنيسة كثيراً في بادىء الأمر مع هؤلاء الهراطقة، حتى أن المجالس التي عقدت في أكثر من مدينة لم تصل إلى نتيجة حاسمة بينهم وبين الكاثوليك، وقد حضر مندوب الباب بعض هذه المجالس، ولكن مثل هذه المجالس التي عقدت في أكثر مدينة لم تصل إلى نتيجة قاطعة بين المعتقدات، وانفضت في النهاية دون أن يتعرض لها معترض. ومن الذي ساعد هؤلاء الهراطقة على نشر أفكارهم الحكام العلمانيون الذين أرادوا إضعاف شوكة الكنيسة التي تناصفهم السلطان على الأقل، لأن الكنيسة كانت واسعة الثراء، ويؤيد ذلك قيام بعض الأشراف بمصادرة الأديرة وما بها.

وكان في هذه التطورات خطراً كبيراً على الكنيسة، فلما جلس البابا أنو سنت الثالث على عرش روما بدأ يتصدى لهؤلاء الهراطقة وأصدره أوامره إلى بعض رؤساء الأساقفة في جاسكونيا Gascony يطلب منه إستخدام كافة الوسائل للقضاء على هؤلاء الهراطقة وطردهم من المنطقة، وطلب منه الإستعانة

بالحكام المحليين وأباح لهم قتلهم. كما طلب البابا أنوسنت من فيليب أوغسطس ملك فرنسا مساعدة عسكرية للقضاء على الإلبيجنسيين وأن ينظم حملة صليبية للقضاء عليهم، ومن يرفض من أهالي فرنسا الإنضمام إلى هذه الحملة تصادر أملاكه لصالح دولة فرنسا، ولكن فيليب ترد بعض الوقت.

ولم يوافق ريموند Raymond كونت تولوز على محاربة الإليجنسيين فأصدر البابا ضده قرار الحرمان، ولكن البابا رفع قرار الحرمان بعد ما وعد ريموند بإجابة البابا إلى طلبه ولكنه لم ينفذ وعده.

ودامت جهود البابا أنوسنت الثالث حوالي عشر سنين دون فائدة، لذلك لجأ إلى أسلوب العنف، وأصدر قرار الحرمان على ريموند، وأصدر قرار القطع على المناطق التي يسكنها ريموند وأتباعه وأباح هذه الأراضي لكافة المسيحيين. ونادى بحرب صلبية ضد هؤلاء. وساند فيليب أوغسطس البابا وترك الحرية لرجاله للتطوع في هذه الحملة. وقد وعد البابا كل من يشترك في هذه الحملة بالغفران من كل خطاياه والتمتع بالمزايا التي يتمتع بها المشتركون في الحروب الصليبية ضد المسلمين. وتدارك ريموند الموقف وطلب الغفران من البابا، وبدأ يستعد لمحاربة الإلبيجنسيين.

وبدأت الحملة الصليبية ضد الإلبيجنسيين عام ١٢٠٩ م، وقاوم سكان مدينة لانجويدك Languedoc رجال الحملة، فقد كانت الحملة حرباً من الشمال ضد الجنوب، .ورأى أهل لانجويدك أن أهل الشمال يريدون الإستيلاء على أراضيهم تحت ستار الحماس الديني، وكانت المقاومة عنيفة للغاية حتى عرض قواد الحملة على مدينة بيزيير Beziers تسليم الملحدين حقناً للدماء، ولكن أهل المدينة رفضوا وأعلنوا المقاومة حتى الموت. لذلك هاجمت الحملة المدينة بكل عنف ونجحوا في النهاية في تسلق أسوار المدينة واستولوا عليها وقتلوا من أهلها حوالي عشرين ألفاً.

وكان من أكثر القواد شجاعة في هذه الحملة سيمون أف مونتفرت Simon of Montfort الذي واصل حروبه في جنوب فرنسا ضد الهراطقة مدة تصل إلى

أربع سنوات حرر فيها الكثير من الأراضي عدا مدينة تولوز التي استسلمت له عام ١٢١٥ م حيث اجتمع مندوبو البابا وتم خلع ريموند، وتولى سيمون أمر المدينة. ومن الملاحظ أن هذه الحملة لم تفرق بين الهراطقة وغير الهراطقة في أقاليم الجنوب الأمر الذي ازعج البابا أنوسنت الثالث، حتى أن البابا أشفق على ريموند ورتب له معاشاً شهرياً وخصص جانبا من أملاكه لإبنه من بعده.

ولما بلغ الإبن ويدعى ريموند السابع سن الرشد انتقم لأبيه واسترد المدينة من سميون الذي مات أثناء الحصار عام ١٢١٨ م فتوقفت الحملة الإلبيجنسية إلى حين. وكان البابا أنوسنت قد مات عام ١٢١٦ م، وأطلت الحركة الإلبيجنسية برأسها مرة أخرى ومارست شعائرها تحت حكم ريموند السابع، واستؤنفت الحرب مرة أخرى في عام ١٢٢٦ م وظلت حتى عام ١٢٢٩ م وانتهت بانتصار عصر التسامح. وفي هذا العام أيضاً اجتمع مجلس مدينة نربونه Narbonne وحرم إمتلاك غير رجال الدين للإنجيل، وكان أهم ما أسفرت عنه الحرب الإلبيجنسية هو مسيرة فرنسا نحو المركزية ومحاكم التفتيش.

نشأة محاكم التفتيش

لم تكن محاكم التفتيش التي ظهرت في تاريخ العصور الوسطى بدعة جديدة، ولكن جذورها تمتد في عمق الزمن وإن اتخذت شكلاً صارخاً يشكل علامة من علامات أوروبا الوسيطة. فقد وجد في كافة الأديان السماوية منها أو الوضعية ضرورة محاكمة المارقين على الدين. ولكن المشكلة هنا أن الذين يعترفون بدين ما يفسرونه طبقاً لما يرون، ولذلك أصبح كل طرف منهم يعتبر الطرف الآخر من الضالين وإنه هو وحده الذي يفهم دينه فهماً صحيحاً، ولديه الحجة الكافية لإثبات وجهة نظره.

والمهم هنا أن معاقبة المارقين وجدت في نصوص الديانة نفسها، فإذا نظرنا إلى الديانة المصرية القديمة أو البابلية أو الأشورية وغيرها من الديانات وجدنا النصوص الكافية في صلب الديانة ذاتها التي تشدد العقوبة على الخارجين على هذا الدين، ولعل من الأمثلة على ذلك ما ورد في قوانين اليونان التي رأت

في الإمتناع عن عبادة الآلهة اليونانية جريمة كبرى كان عقوبتها الإعدام، ومن المعروف أن سقراط حكم عليه بالموت بموجب هذه القوانين. وفي الإمبراطورية الرومانية حيث كانت الآلهة أصدقاء وحلفاء أوفياء للإمبراطورية، فقد كان الخروج على آلهة الرومان من جرائم الخيانة التي يواجه مرتكبيها الموت. وكانت الإمبراطورية نفسها تتولى هذا الأمر في حالة عدم وجود مدعي ومدعى عليه. وفي هذه الحالة كان القاضي يستعدي المتهم ويتولى التحقيق في القضية Inquisitio . ومن هذه الكلمة جاءت الكلمة الإنجلزية Inquisitions أي محاكم التفتيش، وكلمة Inquistors أي المحققون أو المفتشون.

وفي التوراة التي بين أيدينا النصوص التي توجب معاقبة المارقين، ومن ذلك «إذا قام متنبيء أو رائي حلم فأعطاكم آية أو معجزة، ولو تمت الآية أو المعجزة التي كلمك عنها وقال لك تعال بنا إلى آلهة غريبة لم تعرفها فنعبدها، فلا تسمع كلام هذا المتنبيء أو رائي الحلم. . . . بل أقتله قتلاً يدك تكون عليه أولاً. . . . ترجمه بالحجارة حتى يموت. . . .» تثنية الإشتراع ١٣ : ١ - ١١. وقد حافظت الجماعات اليهودية على العمل بذلك إلى حد ما.

وفي العصور الوسطى كانت الديانة المسيحية عماد هذه العصور، وكانت الكنيسة صرحاً شامخاً تمثل رمزاً كبيراً لهذه الديانة، بل كان من المباديء العامة لدى كافة المسيحيين أن الكثير من الكنائس قد أقامها أتباع المسيح، واعتبرت روما أن أي هجوم على المذهب الكاثوليكي الذي ساد معظم أوروبا يعتبر جريمة موجهة إلى الله نفسه. وساعد الكنيسة والباباوية على إتخاذ هذا الموقف ما ورد في الإنجيل «لأنكم إذا إنفصلتم عني، لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً. من لا يستقرّ فيّ يُرم كالغصن فييبس فيؤخذ فيطرح في النار فيشتعل». (انجيل يوحنا ١٥ : ٥ - ٦).

ولم تتمسك الكنيسة دوماً بتطبيق هذه الشرائع، ففي بداية المسيحية وبعدما انشقت الإمبراطورية إلى شرقية وهي الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية ثم اتخذت فيما بعد المذهب الأرثوذكس ديناً لها، طبق الإباطرة

هذه الشرائع وحكموا على المانويين بالإعدام. أما الامبراطورية الغربية التي كانت عاصمتها روما واتخذت المذهب الكاقوليكي ديناً لها لم يكن بوسعها تطبيق هذه الشرائع على القبائل الجرمانية التي غزت أوروبا واتخذ معظمها المذهب الإريسوي عقيدة لها، لذلك تسامحت الكنيسة هذه المرحلة، وعندما ساد المذهب الكاثوليكي معظم أوروبا سارت أيضاً على سياسة التسامح مع الذين خرجوا على الكاثوليكية وكانوا قلة في بداية الأمر.

وعندما بدأ عدد المارقين يزداد إلى حد ما، أعلن البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨ ـ ١٠٥٤ م) إنزال قرار الحرمان من رحمة الكنيسة على المارقين على الدين ويقصد العقيدة الكاثوليكية. ويلاحظ هنا أن عام ١٠٥٤ هو عام الإنشقاق الأكبر بين الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في القسطنطنية ويتولى أمرها بطريك القسطنطنية وللامبراطور نوعاً من السيادة عليها، والكنيسة الغربية الكاثوليكية في روما ويتولى أمرها البابا ولا يخضع لسيادة أحد في غرب أوروبا من ملوك أو أباطرة.

ولما انتشر الإلحاد في القرن الثاني عشر الميلادي أضافت الكنيسة إلى قرار الحرمان وجوب نفي الملحدين أو سجنهم، أما في القرن الثالث عشر وبعد أن تسيدت الكنيسة على معظم دول أوروبا بدأت في تنفيذ الشرائع بحرفيتها ووجدت أن عقوبة الإعدام هي عقوبة الملحدين.

وحتى هذه المرحلة لم يكن هناك إتفاق أو تقارب بين الكنيسة والدولة على ضرورة معاقبة الملحدين، ولكن هذا التقارب بدأ عندما شعرت الكنيسة بأنها جزء من حكومة أوروبا الأخلاقية على الأقل إن لم تكن جزء من حكومة أوروبا السياسية. وكانت الكنيسة تنظر إلى الملحدين كنظرة الدولة إلى جريمة الخيانة العظمى، وبين الأخلاق والسياسة يكون النظام الإجتماعي الذي يهدمه الملاحدة. وأعلن البابا أنو سنت الثالث أن القانون المدني يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإنزال عقوبة الإعدام بهم، وإذا كان ذلك عقوبة خائن الدولة فكيف يكون عقوبة خائن الدين. ومن هذا المنطلق ومن شرائع المسيحية تأكد

حق الكنيسة في عقوبة الملحدين الذين يسيئون إلى الله وهي جريمة أكبر بكثير من الإساءة إلى الملك.

وفلسفة الكنيسة جريمة الإلحاد واعتبرتها أكثر شراً من الإسلام أو اليهودية، لأن المسلمين واليهود إذا عاشوا داخل المجتمع المسيحي فهم يخضعون لنظام صارم، أما الملحد فهو خائن يختفي داخل المجتمع المسيحي ويهدمه من الداخل ومن الصعب البحث عنه، وحرمت الكنيسة على غير رجال الدين التعامل مع الدين المسيحي، وتفسير نصوصه وإلاَّ تفرقت المسيحية إلى مئات الطوائف.

وكان شعب أوروبا بأكمله يجل الكنيسة ويحترمها رغم ما بها من عيوب عدا سكان جنوبي فرنسا وإيطاليا. ومن هنا جاء التجاوب بين الكنيسة والشعب والحكام بضرورة معاقبة الهراطقة. وكان الشعب أو الأهالي أسرع في معاقبة الهراطقة من الكنيسة والدولة. وكان الناس هم الذين يقبضون على الملاحدة ويرسلوهم إما للكنيسة أو الدولة لمحاكمتهم، وربما كانوا يفتكون بهم قبل أن يصلوا بهم إلى المحاكمة. ومن ذلك ما حدث في عام ١١١٤ م عندما ألقي القبض على بعض الملاحدة في مدينة سواسون بفرنسا فوضعهم أسقف المدينة في السجن، ولكن الأهالي خشوا من لين الكنيسة مع هؤلاء الملحدين فهجموا على السجن وأخرجوهم وأحرقوهم.

وفي العصور الوسطى حيث تساند الكنيسة الحكام، فقد خشي هؤلاء الحكام السيطرة على رعاياهم بدون مساعدة الكنيسة ، لذل سانـد الملوك والأباطرة الكنيسة ربما على كره منهم في مطاردة الملحدين ومعاقبتهم، كما أن الحكام خشوا أن يكون وراء التطرف الديني تطرفاً سياسياً، وهنا يكون الخطر على أملاك الكنيسة وسلطتها وكذلك على الدولة وسيادتها.

وساند الرأي العام الكنيسة والدولة بالقضاء على الهراطقة، ففي نهاية القرن الثاني عشر والربع الأول من القرن الثالث أصدر الملوك والأباطرة سلسلة من القرارات التي يعاقب بموجبها الهراطقة. ومن ذلك، صدر عام ١١٩٤ م في ألمانيا-حيث

أصدر الامبراطور هنري السادس Henry VI (١١٩٠ - ١١٩٧ م) أوامره بضرورة مصادرة أملاك الهراطقة وإنزال أشد أنواع العقاب بهم، وفي ألمانيا أيضاً أصدر أوتو الرابع Otto IV (١١٩٧ - ١٢١٨ م) أوامره التي تدور حول المعنى نفسه، وحذا لويس الثامن Louis VIII (١٢٢٣ - ١٢٢٦ م) حذو المانيا وأصدر في عام ١١٢٦ م مثل هذه القرارات.

وكان الإمبراطور فريدريك الثاني Frederick II (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) أكثر صرامة في معاملة الهراطقة ولكنها جاءت في صورة لصالح الدولة متسترة وراء الغيرة الدينية. فقد أصدر فريدريك الثانـي في الفترة من ١٢٢٠ - ١٢٣٩ م من القوانين بإن يسلم الهراطقة الذين حكمت عليهم الكنيسة إلى السلطات الزمنية لاحراقهم، أما إذا تابوا ورجعوا عن ضلالهم فيخفف الحكم من المـوت إلى السجن مدى الحياة ومصادرة أملاكهم وأموالهم وحرم منها ورثتهم، إلا إذا قام الورثة بالإبلاغ عن بعض الهراطقة.

ورغم كل هذه الإجراءات فقد كانت الهرطقة آخذة في الإزدياد، لذلك زادت اهتمامات الكنيسة في ملاحقتهم، فقد طلب من الإساقفة زيارة اسقفياتهم مرة على الأقل كل سنة وملاحقة الضالين وأن يقبضوا على من تحوم حولهم الشبهات، وأن يجبروهم على أداء يمين الولاء للكنيسة الكاثوليكية واتباع أوامرها وتعاليمها وإلا أصبحوا في تعداد الضالين. كما أن البابا أنو سنت الثالث طلب من جميع الحكام أن يقسموا على إبادة جميع الملاحدة القاطنين في أراضيهم، وإذا لم يفعل الحكام ذلك أصبحوا من الهراطقة. وإذا أهمل أي حـاكـم في تنفيذ ذلك يخلع من منصبه ويصبح رعاياه في حل من الولاء له.

ورغم هذه القرارات والمحاكمات فقد كان هناك جـانباً من أوروبا مرتعاً للهراطقة مثـل بعض الأراضي الفرنسية خاصة الجنوبية ومعظـم إيطاليـا رغم وجود البابوية في أراضيها بالإضافة إلى جميـع بلاد البلقان، فتهددت وحـدة الكنيسة. وزاد مـن تـهـديـد وحدة الكنيسـة أن أحد الإسـاقفة ويـدعى فيلبو باترونون Filippo Paternon وكانت سلطته تمتد من مدينة بيزا Pisa حتى مدينة أرزو Arezzo قد إعتنق مذهب الكاثاريين، فعين البـابا جريجـوري التاسـع

Gregory IX (١٢٢٧ ـ ١٢٤٠ م) لجنة تحقيق لمحاكمة الأسقف وأتباعه، وعقدت هذه اللجنة أول جلساتها في فلونسا عام ١٢٢٧ م، والمهم هنا أن هذه اللجنة كانت بداية لمحاكم التفتيش البابوية.

وخير ما يوضح الغرض من انشاء محاكم التفتيش واختصاصاتها المرسوم الذي صدر في عام ١٢٨٠ م من البابا نقولا الثالث (١٢٧٧ ـ ١٢٨٠ م). فقد ورد في هذا المرسوم حرمان جميع الهراطقة من رحمة الكنيسة، مثل الكاثاريين وغيرهم. وإذا أدانت الكنيسة أحدهم وجب تسليمه إلى القاضي لمعاقبته. أما إذا ندم أحدهم بعد القبض عليه وأراد أن يكفر عن ذنبه وجب سجنه مدى الحياة. ويحرم من رحمة الكنيسة أيضاً من يخفي أحد الهراطقة أو يقدم لهم المساعدة، ويحرم من حماية القانون من بقي محروماً لمدة عام ويوم. ولا يسمح بدفن الهراطقة دفنة مسيحية، وكل من يفعل ذلك يحرم من رحمة الكنيسة ويظل تحت الحرمان حتى يتوب، ولا يغفر ذنبه إلاَّ إذا أخرج جثة المهرطق وألقاها في الهواء. كما حُرم على غير رجال الدين الكاثوليكي مناقشة أمور العقيدة ومن يفعل ذلك يحرم من رحمة الكنيسة وأوجب المرسوم ضرورة الإبلاغ عن الهراطقة وأماكنهم وإجتماعاتهم السرية، ومن يعرف ولا يبلغ يحرم من رحمة الكنيسة ويحرم أبناؤه أيضاً حتى الجيل الثاني من رحمة الكنيسة، ويحظر على هؤلاء الأبناء تولى المناصب الكنسية.

محاكم التفتيش:

داوم البابوات على إرسال المحققين أو المفتشين لملاحقة الهراطقة واختار البابوات لهذا العمل رهبان طائفة الدومنيكان لما عرف عنهم بالتقشف وقد أطلق اسم كلاب الله أو الصيادين من قبيل السخرية على هؤلاء المفتشين. وقد عرف عن هؤلاء المفتشين التزمت الخلقي وقسوة القلب. ولكل قاعدة شواذها فقد عرف عن بعضهم طيبة القلب، ومنهم من كان قاسياً للغاية مثل الراهب روبرت الذي أمر بإحراق حوالي مائة وثمانين شخصاً في يوم واحد وإن كان قد أعفى من منصبه وسجن مدى حياته.

وكان على هؤلاء المفتشين ملاحقة المسيحيين المهرطقين دون سواهم

فلا يحق لهم ملاحقة المسلمين أو اليهود. وكـانت إجراءات المحـاكمة تتم بـالقبض على الهراطقـة في منطقـة مـا وعلى المشتبـه فيهم إيضـاً. ويعطي المفتشون مهلة شهر واحد حتى يراجع الهراطقة موقفهم فإن تابوا تم حبسهم مدة قصيرة أو يتصدقون بالأموال مقابل ذلك. أما الذين لا يعترفون من المقبوض عليهم وتثبت إدانتهم في المحاكمة، فيتم مثولهم أمام محكمة التفتيش.

وكانت محكمة التفتيش تتكون غالباً من اثني عشر رجلاً يختارهم حاكم المدينة أو الإقليم، وتعرض أسماء المرشحين على الأسقف وهيئة المحلفين فإذا أقروها أضيف إليهم اثنان آخرين وبعض الحجاب. وبهذا التشكيل تكون المحكمة قد استعدت للفصل في القضايا. وقد ينتهز بعض الهراطقة الفرصة وقبل مثولهم أمام المحكمة ويقرون بذنوبهم، وهنا يعاقبوا باحكام تختلف باختلاف إدانتهم. وكان بامكان المحكمة محاكمة الهاربين أو الموتى أيضاً.

وتطلب إدانة المهرطق شاهدين إثنين، وكان من الشهـود الزوجـات أو الأبناء. ولـم يكن من حق المتهم أن يعرف من اتهمه، ولكنه كان يستطيع أن يطّلع على أسماء جميع الشهود دون تحديد، وقد يتم قتل أحد الشهود من قبل أهل المتهم للإرتياب فيه. وكان من حق المتهم أن يذكر أسماء أعدائه حتى لا تقبل شهادتهم ضده. كما كانت المحكمة تعاقب بشدة من يقدم بلاغاً كاذباً ضد أحد الأشخاص. وحتى نهاية القرن الثالث لم يكن يسمح للمتهم الإستعانـة بـأحد، ولكن البـابا انـوسنت السـادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢ م) أصـدر في عـام ١٣٥٤ م مرسومـاً يقضي بعرض أدلـة الإثبات على الأسقف وبعض الـرجال حسني السمعة. وعرفت هذه المجموعـة باسم الخبـراء وكان لهـا في بعض الأحيان أن تبدي رأيها في أدلة الإتهام. والواقع أن التـعليمــات التي كانت تصدر إلى المحققين كانت تقضي بأن نجاة المتهم من العقاب خير من إدانة البريء، وأنه يجب الحصول على اعتراف صـريح من المتهم أو وجـود أدلة دامغة.

وصاحب اجراءات التحقيق تعذيب المتهمين، ولكن التعذيب لم يرافق

محاكم التفتيش في بداية عهدها، وحدث في عام ١٢٥٢ م أن أصدر البابا انوسنت الرابع إجازة التعذيب إذا تأكد القضاة من إدانة المتهم، وليكن هذا الإجراء آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين، وإلاّ يؤدي التعذيب إلى فقد أحد أعضاء جسم المتهم أو الوفاة، ويجب استخدام التعذيب مرة أخرى في كل محاكمة، واشتمل التعذيب على الكي بالنار أو الجلد أو السجن الإنفرادي في مكان ضيق مظلم، أو وضع اقدام المتهم في النار وغير ذلك.

وشك المحققون في الإعتراف الذي يأتي بعد التعذيب، ولذلك كانوا يتركون المتهم بضعة ساعات بعد ذلك، فإذا قرر ما قرره بعد التعذيب أصبح صادقاً وإن عدل عن إعترافه عاد إلى التعذيب مرة أخرى.

وكان يحكم على الهراطقة بعد إدانتهم بالسجن مدى الحياة أو الاعدام، وكان السجن يشدد بالحرمان من الطعام أو بتقييد المذنب بالسلاسل، أو يخفف بالسماح للسجين بالزيارة أو اللعب. وكان يصاحب السجن أو الإعدام في بعض الحالات مصادة الأملاك والأموال. وتوزعت الأملاك المصادرة والأموال بين المحاكم والكنيسة والذي أبلغ عن المهرطق. وفي بعض الدول مثل فرنسا كانت تصادر لمصلحة الدولة. وكان في ذلك اغراء للدولة والافراد في الإبلاغ عن الهراطقة، وحتى في محاكمة الموتى لمصادرة أموال الورثة. وتباهى أحد أساقفة جزيرة رودس بأنه جمع حوالي مائة ألف صلدى مرة واحدة في حملة على الهراطقة.

وكانت الأحكام تعلن في حفل رهيب يقام من وقت لآخر عقب إنهاء الإجراءات، وفي هذا الاحتفال يقسم المتهمون إلى جماعات «الأولى وهم التائبون حيث يؤكدون توبتهم. والثانية الجماعة المذنبة التي ستسلم إلى السلطات المحلية، ويسمح لهم بيوم واحد لإعلان توبتهم، ولو كانوا على وشك الحرق، وهؤلاء يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة. أما الثالثة فهي الطائفة التي تمسكت بموقفها وهؤلاء يحرقون أحياء في ميدان المدينة أو الاقليم. ويلاحظ أن رجال الدين لم ينطقوا بعبارة حكم الإعدام حتى لا تراق الدماء، وحتى يتم قتل

المذنبين دون سفك الدماء الذي حرمته الكنيسة، كانوا يحرقون عند عامود الاحراق.

نتائج محاكم التفتيش

لقد نجحت محاكم التفتيش في أوربا في تحقيق نتائجها إلى حد ما، ولعل أهم ما نجحت فيه هذه المحاكم هو تأخير تمزق الكنيسة إلى عدة قرون، ورغم هذا كله فإن الهجوم على الكنيسة لم يتوقف. وكان للحكام الزمنيين دوراً كبيراً في هذا الهجوم، وكانت الرشوة وزواج رجال الدين ومشكلة التقليد العلماني من أهم أسباب مهاجمة الكنيسة. وقد انتهز الأباطرة والملوك هذه الفرصة وزادوا من سلطانهم وخففوا من سلطان رجال الدين داخل أراضيهم. وفي فرنسا بوجه خاص أقبل الملوك على رجال القانون واعتمدوا عليهم في إدارة البلاد بدلاً من رجال الدين. وفي عهد الملك فيليب الرابع قام الصراع بينه وبين البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ ـ ١٣١٣ م)، وانتهى الأمر بقيام الملك بتعيين البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ ـ ١٣١٤ م)، ونقل مقر البابوية إلى مدينة أفنيون Avignon في عام ١٣٠٩ م، وظلت هذه المدينة مقراً باباوياً حتى عام ١٣٧٧ م، وهي الفترة الذي تعرف في التاريخ باسم الأسر الباباوي حكم خلالها ثمانية باباوات.

ولم يكن لمحاكم التفتيش دوراً كبيراً في انجلترا، ولعل مرجع ذلك أن الذين ساندوا محاكم التفتيش بكل قوتهم كانوا يسعون إلى كسب رضا الباباوية لتقوية مراكزهم في بلادهم. ولكن الواضح أن ملوك انجلترا بعد الفتح كانوا من القوة في بلادهم وأنهم كانوا لا يخشون الباباوية لدرجة كبيرة. فلقد تسيد وليم الفاتح على رجال الدين ومنع دخول أي مندوب بابوي إلى بلاده بدون اذن منه. كما أن هنري الثاني دخل في صراع من الباباوية بسبب دستور كلارندون الذي أصدره عام ١١٦٤ م والغاء سلطة المحاكم الدينية. وليس معنى ذلك أن هنري لم يكن متمسكاً بدينه، فقد جلد واحداً وعشرين من الهراطقة في عام ١١٦٦ م وكواهم بالنار في مدينة اكسفورد. ومن دستور كلارندون حتى صدور العهد

الأعظم عام ١٢١٥ م كانت انجلترا تعمل على توحيد القوانيين في داخلها، حتى إذا ما دخلت انجلترا عام ١٢٩٥ م كان البرلمان قد اكتمل وتقرر مبدأ ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً. ولا نكاد نسمع عن الهراطقة داخل انجلترا حتى كان جون ويكلف John Wycliffe (١٣٣٠ - ١٣٨٤ م) وهو من رجال الدين الذين حاولوا إصلاح أحوال الكنيسة، وأنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع الكتاب المقدس، فاتهم بالهرطقة.

وفي إيطاليا تفاوتت وجهات النظر مع الهراطقة حيث كانوا في الشمال كثيري العدد. ويبدو أن الصراع السياسي الذي كان قائماً بين الدويلات الإيطالية قد شغل الكثير منهم عن موضوع الهراطقة، كما أن المدن التجارية الإيطالية قد اهتمت بالتجارة أهم من اهتمامها بالدين. وعلى أية حال فكان بعض الحكام يحمون الهراطقة في السر والعلن ومن هؤلاء أزلينو Ezzelino في فيسنزا Vicenza وبلافيشينو Pallavicino في مدينة كرمونا Cremona وميلان Milan، وقد أعلنت البابوية الحرب الصليبية ضد هؤلاء ونجحت في القضاء على أزلينو في عام ١٢٥٩ وعلى وبلافيشينو في عام ١٢٦٨ م. وعلى العكس من ذلك نجد أن الراهب روجيري Ruggieri قد أنشأ فرقة عسكرية لتأييد محاكم التفتيش وتعقب الهراطقة. وإذا كانت الكنيسة قد تعقبت الهراطقة في إيطاليا فإن الهراطقة أيضاً تعقبوا رجال الدين، وحدث أن قتل الهراطقة أحد الرهبان في مدينة ميلان. وعلى أية حال لقد انتصرت البابوية في إيطاليا ولكن هذا الإنتصار كان ظاهرياً.

وتجلت أعمال محاكم التفتيش في ألمانيا، ولعل مرجع ذلك إلى أن الحكومات الألمانية قد اعتمدت على رجال الدين في إدارة شؤونها، وتغلغل نفوذ رجالها في طول ألمانيا وعرضها. ومما قامت به محاكم التفتيش في ألمانيا أن أحرق هنري أسقف مدينة استراسبورج Strasbourg في عام ١٢١٢ م ثمانين من الهراطقة في يوم واحد، وكان يتزعم هذه المجموعة أحد رجال الدين وهو القس يوحنا الذي أعلن عدم إيمانه بالمطهر والغفران، وهاجم عدم زواج رجال الدين، وامتلاك هؤلاء للأراضي. ومن أجل إصلاح الأحوال الدينية والقضاء

على الهراطقة عين البابا جريجوري التاسع في عام ١٢٢٧ م كونراد أسقف مدينة ماربرج رئيساً لمحاكم التفتيش في ألمانيا كلها، وطلب البابا من الأسقف ملاحقة الهراطقة وإصلاح أحوال رجال الدين لأن فساد أحوالهم هو السبب الرئيسي في قيام الهرطقة. وواءم كونراد في عمله بين القسوة والرحمة وانتهى أمره بأن قتله أصدقاء ضحاياه. واضطرت محاكم التفتيش أن تخفف من قسوتها واتبعوا العدالة في محاكمتهم. ورغم هذا فقد بقيت الهرطقة في ألمانيا وهي التي مهدت السبيل إلى ظهور جون هس John Huss (١٣٧٣ ـ ١٤١٥ م) الذي اتهم بالهرطقة واعدم حرقاً، ومارتن لوثير Martin Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) الراهب الذي تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي.

وفي ختام الحديث عن محاكم التفتيش نقول أن الصراع بين البابوية والهراطقة كان عنيفاً وأنه كشف عن وحشية ليس لها نظير. كما أن الصراع بين الباباوات والأباطرة كان أشد هؤلاء في تاريخ العصور الوسطى، وبين مطرقه الأباطرة وسندان الهراطقة انهارت عظمة باباوية العصور الوسطى واستسلمت في النهاية لحركة الإصلاح الديني الذي يعتبر علامة بارزة على نهاية العصور الوسطى.

المصادر والمراجع

التي اعتمد عليها في هذا الكتاب

أولاً: العربية والمعربة

السيد الباز العريني (دكتور):

الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى - بيروت - دار النهضة العربية - ١٩٦٣.

إيريس حبيب المصري:

قصة الكنيسة القبطية - ٣ جـ - الإسكندرية ١٩٦٣ - ١٩٧١.

بتشر (ا. ل.):

كتاب تاريخ الأمة المصرية - ترجمة تادرس شنودة المنقبادي - ٣ أجزاء - القاهرة ١٩٠٠ - ١٩١٠.

بور (ايلين):

نماذج بشرية من العصور الوسطى - ترجمة توفيق حسين - بيروت ١٩٥٧.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

نشأة الجامعات في العصور الوسطى - اسكندرية - دار المعارف ١٩٧١.

جيمس (د.):

الماجنا كارتا «العهد الأعظم» ترجمة مصطفى طه حبيب - القاهرة ١٩٦٥.

دانتي اليجيري :

الكوميديا الالهية ـ الطهر ـ ترجمة وتعليق الدكتور حسن عثمان ـ القاهرة ١٩٦٤ .

دوسن (ك .) :

تكوين أوروبا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

ديفز (هـ . و .) :

شارلمان ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ـ القاهرة ١٩٥٩ .

أوروبا في العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي محمود الإسكندرية ١٩٥٨ .

ديورانت (ويل) :

قصة الحضارة ـ الأجزاء ١٢ ـ ١٧ ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

أوروبا في العصور الوسطى ـ ٢ جـ ـ طبعة ثانية ـ القاهرة ١٩٦٤ .

حضارة أوروبا في العصور الوسطى ـ بيروت ـ دار النهضة ١٩٧٦ .

فرج جرجس :

تاريخ الكنيسة القبطية ـ القاهرة ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ .

فيشر (هـ . ا . ل .) :

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ـ ٢ جـ ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني والدكتور إبراهيم أحمد العدوى ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٧ .

كرامب وجاكوب :

تراث العصور الوسطى ـ ٢ جـ ـ ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات ـ القاهرة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ .

كولتون (ج. ج.):

عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ـ ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ بيروت ـ دار النهضة ١٩٨١.

كوبلاند وفينوجرادوف:

الاقطاع في العصور الوسطى في غرب أوروبا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٨.

لانجر (و.):

موسوعة تاريخ العالم ـ ٣ جـ ـ الترجمة بإشراف الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢.

نظير حسان سعداوي (دكتور):

تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ـ القاهرة ١٩٥٨.

نعيم زكي فهمي (دكتور):

دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب ـ القاهرة ١٩٧١.

هارتمان وباراكلاف:

الدولة الامبراطورية في العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ الاسكندرية ١٩٦٦.

ثانياً: الأجنبية

1 - Adelson, Howard L:

Medieval Commerce, New York 1961.

2 - Ashley W.J:

The Beginnings of Town Life in the Middle Ages. Quarterly Journal of Economics X, Boston Mass 1896.

3 - Baldwin, M.W.:

The Mediaeval Church, New York 1960.

4 - Ballard A.:

The English Boroughs in the twelfth Century, Cambridge 1914.

5 - Blanchet A.:

Les enceintes romaines de la Gaule, Paris 1907.

6 - Bloch, M.:

Feudal Society Trans from the French by L. A. Man- yon, London 1961.

7 - Boissonade P.:

Life and Work in Medieval Europe, New York 1927.

8 - Burckhardt J.:

The Civilization of the Renaissance, Trans by S.G.C. Middlemore, London 1944.

9 - Cambridge Economic History Vol. III, Cambridge 1963.

10 - Cambridge Medieval History Vol VI, 1964.

11 - Cantor N.F. (ed):,
The Medieval World: 300 - 1300, New York 1963.

12 - Carcopino J.:
Daily Life in Ancient Rome Ed. by H.T. Rowell Trans. from the French by E.O. Lorimer, Aylesbery 1956.

13 - Coulton G.G.:
1 - Medieval Panorama, New York 1955.
2 - Medieval Village Manor and Monastery, New York 1960.

14 - Crombie A.C.:
Augustine to Galileo Vol 1 : Science in the Middle Ages (V - XIII Centuries), London 1961.

15 - Crump C.G. & Jacob E.F.: (eds),
The Legacy of the Middle Ages, Oxford 1951.

16 - Dante:
The Devince Comedy II:Purgatory Trans By D.L. Sayers, Edin - burgh 1959.

17 - Des Marez G,:
Etude sur la propriété foncièere dans les villes du Moyen age et specialement en Flandre, Ghent 1898.

!8 - Downs N.:
(ed) Basic Documents in Medieval History, New York 1959.

19 - Eyre E. (ed),
European Civilisation- Its Origin and Development Vol III : The Middle Ages, London 1935.

20 - Gross C.:
The Gild Merchant 2 Vols, Oxford 1890.

21 - Haskins C.H.:
The Rise of Universities, New York 1960.

22 - Hay D.:

The Italian Renaissance in its Historical Back ground,Cambridge 1961.

23 - Heer F.:

The Medieval World (Europe 1100 - 1350) Trans . from the Herman by J. Sondheimer, London 1962.

24 - Joinville J. de:

Memoirs of Louis XI King of France An English trans. by Colonel Johnes of Hafod Cf. Chronicles of the Crusades, Bohn's, London, 1848.

25 - Katz S.:

The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe New York 1960.

26 - Ker W.P.:

The Dark Ages, London 1955.

27 - La Monte J.L.,

The World of the Middle Ages, New York 1949.

28 - Lodge E.C.:

The End of the Middle Ages (1273 - 1453), London 1924.

29 - Lopez R. S.:

and Raymond I.W.(trans.): Medieval Trade in the Mediterran - ean World, New York 1955.

30 - Luchaire A .:

Les Communes francaises, Paris 1911.

31 - Maitland F. W.:

Township and Borough Cambridge 1898.

32 - Meckisack M.:

The Fourteenth Century (1307 - 1399), Oxford 1959.

33 - Molinier A.:

Les Sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie (1494). IV: Les Valois 1328 - 1461. Paris, 1904.

34 - Mommsen T. E.:

Medieval and Renaissance Studies, Ed by E.F. Rice Ithaca 1959.

35 - Monore P. A.:

Text - Book in the History of Education, New York 1914

36 - Mundy H.:

John and Peter Riesenberg; The Medieval Town, New York 1958.

37 - Myers A. R.:

England in the Late Middle Ages (1307 - 1536), London, 1953.

38 - Neilson N.:

Medieval Agrarian Economy New York 1936.

39 - Painter S.:

French Chivalry : Chivalric Ideas and Practices in Mediaeval France, New York 1961.

40 - Paris, M.:

English History From the year 1235.to 1273 . Trans. From the Latin by J.A. Giles 2 vols London, 1852 - 3.

41 - Petit - Dutaillis C.E:

Les Communes francaises, Paris 1947.

42 - Pirenne H.:

«Villes, Marchés et Marchands au moyen age» . Revue historique LXVII 1898»

«Les Origines des constitutions Urbaines au Moyen age» Revue Historique vols. LIII, LVII, 1893, 1895.

«La Hanse flamande de Londres» Bulletin de L'Academie de Belgique Class des lettrees 1890.

Medieval Cities Princeton 1925.

Northern Towns and their Commerce. Cambridge Medieval History vol VI.

43 - PowerE.:

Medieval People London 1954.

44 - Previté - Orton C.W.:

The Shorter Cambridge Medieval History 2 vols Cambridge 1952.

45 - Renard Georges:

Gild in the Middle Ages.

46 - Rosenthal E.I.J.:

Political Thought in Medieval Isla, Cambridgc 1958.

48 - Stephenson C.:

Medieval Feudalis, New York 1942.

49 - Sullivan R. E.:

Heirs of the Roman Empire. New York. 1960

50 - Vander Linden H.:

Les gildes marchandes dans les pays - Bas au Moyen age, Chent 1869.

51 - Waugh W.T.:

A History of Europe from 1378 to 1494. London 1932.

52 - Wauters A.:

De L'origine des premiers developements des libertes comm - unalies en Belgique,Brussels 1869.

53 - Whitelock D.:

The Beginnings of English Society (The Anglo Saxon period) Lo - ndon 1954.

54 - Will -D.:

The Age of Faith , New York 1950.

55 - Woodward E.L.:

History of England , London 1957.

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الصور واللوحات

للمؤلف

الكتب

١ ـ الحملة الصليبية الخامسة: طبعة أولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ اسكندرية ١٩٨٧ .

٢ ـ الحملة الصليبية الخامسة: طبعة ثانية دار المعارف ـ اسكندرية ١٩٨٥ .

٣ ـ إدارة الإمبراطورية البيزنطية: دار النهضة بيروت ١٩٨٠ .

٤ ـ معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية: دار النهضة بيروت ١٩٨١ .

٥ ـ معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة بيروت ١٩٨٢ .

٦ ـ مملكة الوندال في شمال أفريقيا: دار المعارف إسكندرية ١٩٨٥ .

٧ ـ السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية: دار المعارف ـ إسكندرية ١٩٨٥ .

٨ ـ القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين: دار النهضة بيروت ١٩٨٦ .

كتيبات:

٩ ـ نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية: دار النهضة ـ بيروت ١٩٨٠ .

١٠ ـ المؤرخ جريجوري التوري : منشورات جامعة بيروت العربية ١٩٨٠ .

بحوث ومقالات :

١١ ـ الامبراطورية رومانوس الرابع : بحث منشور في مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ١٩٨٣/٨٢ .

١٢ ـ اركولف ورحلته إلى الشرق : بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط بجامعة عين شمس (المجلد الثالث عشر دار المعارف ١٩٨٥).

١٣ ـ كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين : بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام الأردن ـ عمان ١٩٨٧ .

١٤ ـ صلاح الدين من الإسكندرية إلى حطين : بحث في المؤتمر الدولي لذكرى ٨٠٠ عام على معركة حطين ـ بغداد ١٩٨٧ .

١٥ ـ السفراء والقناصل في عصر الحروب الصليبية : بحث ألقي في الموسم الثقافي ٨٨/٨٧ بجامعة بيروت العربية .

١٦ ـ King Amalric and the Siege of Alexandria 1167 in Crusad and Settlement. Cardiff 1983.

١٧ ـ Holy Land left in Peace 1196 - 1217.

١٨ ـ Capture of Damietta 1219.

١٩ ـ 1221, Crusaders sue for Peace, return Damietta. and leave.

والمقالات الثلاثة الأخيرة منشورة في the Crusaders Chronicles. London 1990.

٢٠ ـ تاريخ الحروب الصليبية : الطبعة الأولى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٩٠ .

شكر

عظيم شكري وتقديري لادارة

دار المعرفة الجامعية

وجميع العاملين بالمطبعة الذين

ساهموا في اخراج هذا الكتاب.